الغُرَباء

قصة الهجرة والتهجير عبر التاريخ

شعلان الشمّري

الغرباء

قصة الهجرة والتهجير عبر التاريخ

1439هـ - 2018م



مسودة

لم تتم مراجعتها بعد

للملاحظات على البريد:

AL-SHAMRE@HOTMAIL.COM

إهداء :

إلى أولئك الذين سطروا هذه الملحمة... بالدماء والدموع !
إلى الغرباء ...

مُقَدِّمَة

هذه حكاية تستحق أن تروى !

هي حكاية الإنسان منذ أن وطأت قدماه الأرض,بل هي حكاية الإنسان منذ أن خرج من جنته وحمل عصا الترحال في أرض كتب الله عليه أن لا يستقر له على ظهرها حال.

هي حكاية البشر منذ خرجوا من القارة الأفريقية وجابوا العالم لأول مرة في التاريخ بشكل مجموعات صغيرة تستكشف هذا العالم الغريب الساحر والعنيف الغادر,تسربوا من بين الجبال والبحار وكأنما يهيمون على غير هدى,تطوح بهم الحظوظ وترسم لهم الأقدار خريطة المستقبل.

ثم إذا استقروا وتوزعوا بين قارات العالم في رحلات طويلة استغرقت آلاف السنين,آخذت موجات من الغرباء تضرب استقرار هؤلاء الذين استوطنوا الأرض,وكأنما هؤلاء الغرباء يأتون من المجهول, وكأنما هناك نبع مسحور يخرجون منه.

لقد ألقى بي البحث في موضوع الهجرة بعيداً,وكنت كلما وصلت إلى قوم اعتبرهم شعباً أصلياً في أرض ما ثم أعود وأبحث في جذورهم لأجدهم قد جاؤوا من مكان أخر ,وهكذا كلما قرأت سيرة شعب من الشعوب وجدتهم يستفتحون تاريخه بالقول إن هذا الشعب جاء من المكان الفلاني.

بقيت أتتبع هذه الخيوط وأجر قدمي متثاقلاً خلفهم وهكذا حتى تجاوزت الدول الوطنية والقومية والإمبراطوريات الدينية والإمبراطوريات القديمة والحضارات الأولى والمدنيات الأولى وحتى القرى الأولى إلى الإنسان في الكهوف,وكلما ابتعدت أكثر كلما أصبحت الصورة ضبابية أكثر وبدأت المفاهيم تتفتت و تفقد معناها.

فمن هو المواطن ومن هو المهاجر؟ وما هو الوطن أصلاً؟ ومن هو الأحق بالوطن؟ هل هو الذي قد جاء أولاً؟!

وهل الأصل في طبيعة البشر أنهم كائنات تميل إلى الاستقرار أم إلى التجوال ؟ وما هي العوامل التي تدفع الناس لمغادرة أرضهم والتوجه إلى أرض أخرى؟

ولقد اخترت عنوان "الغرباء" بدلاً من المهاجرين لما تحمله هذه المفردة من معنى لغوي ونفسي, بالإضافة إلى أن غالبية البحوث حول الهجرة تعتبرها ظاهرة حديثة ارتبطت بتكون الدول

الحديثة, أما هنا فقد اعتبرنا الانتقال الجماعي للبشر من أرض إلى أخرى بهدف الاستقرار في تلك الأرض هو هجرة, سواء كان هذا الانتقال على شكل جماعات تستكشف أراض خالية من السكان كما هو الحال في الهجرات البشرية الأولى, أو كان على شكل غزو يهدف إلى القضاء على المجموعات المحلية أو طردها والاستقرار مكانها كما هو حال الهجرات البشرية الوسيطة, أو كان بهدف إيجاد فرص أفضل للحياة في عالم متقدم بلا صدام مع السكان المحليين كما هو الحال في الهجرات الحديثة.

وكلمة الغريب لا تطلق عادة من المهاجر نفسه وإنما يطلقها المحلي على المهاجر وتحمل في ثناياها نوع من الانتقاص والتوجس, والغريب يحمل غربته معه كما يحمل متاعه, فحتى لو نجح في مهمته وأقصى المحلي وحل محله, فإن اغترابه يبقى,وحنينه لا ينقطع,فهو في عذاب مقيم, فحياته في أولها صراع مع الآخر وفي أخرها صراع مع النفس.

ولبداية هذا البحث قصة!

فقد كان الموضوع يخطر لي منذ سنوات,وكلما قرأت في موضوع قريب منه أجد دافعاً يدفعني أكثر للبحث فيه,فلما كان يوم 2015/04/20م بثت القنوات الإخبارية خبر غرق ألف مهاجر في يومين قبالة سواحل إيطاليا مما حدا بالإتحاد الأوربي

إلى الدعوة اجتماع عاجل لمناقشة الموضوع , وأطلق الناس حينها على البحر الأبيض المتوسط اسم " التابوت الأبيض المتوسط" فمنذ ذلك اليوم وضعت الكلمات الأولى في هذا البحث إكراماً وتخليداً لهذه الدماء والدموع التي تراق منذ وجد الإنسان على هذه الأرض.

لفت نظري أثناء بحثي عن المصادر أن أكثر البحوث التي تتناول موضوع الهجرة تتناولها بشكل أكاديمي بحت كفرع من علوم الإنسان فهي تتعامل مع الظاهرة كعلم فتستند على الإحصائيات والأسباب والنتائج بشكل يعزل الظاهرة عن الإنسان ويقولبها في قالب جامد ليس فيه من الحياة شيء رغم أن ظاهرة الهجرة من أكثر الظواهر البشرية مساساً بعاطفة الإنسان,فكثير من القصص والأساطير والقصائد,بل إن أعذبها قد كتب بسبب الهجرة.

لذا قسمنا هذا الكتاب بفصول متتالية حسب المراحل التاريخية, فالفصل الأول يشمل الهجرات البشرية الأولى التي انتشر البشر من خلالها في كافة أرجاء المعمورة وتشمل المرحلة التاريخية منذ أول ظهور للبشر حتى بداية العصور التاريخية وظهور المدن, وفي هذه المرحلة كان انتقال البشر مشياً على الأقدام أو في قوارب بدائية لمسافات قصيرة ولم تكن الهجرة فيها صراع

بين الإنسان والإنسان وإنما صراع بين الإنسان والطبيعة, صراع مع الوحوش الضارية التي لم يكن البشر يقلون عنها ضراوة.

أما الفصل الثاني فيشمل المرحلة التاريخية منذ الحضارات الأولى في العالم القديم, وكانت الهجرة في هذه المرحلة غالباً على شكل اجتياح جحافل من الغزاة, فيقتل من يقتل ويستعبد من يبقى, أو يتحول الغزاة إلى طبقة حاكمة تتمتع بمزايا خاصة ويبقى السكان المحليون يشكلون الأغلبية المغلوبة على أمرها.

وفي الفصل الثالث تناولنا العالم الهليني والروماني الذي أصبحت به مساحات الإمبراطوريات أكبر وفي قارات متعددة, في حين كان الفصل الرابع مخصصاً للهجرات التي تسببت في سقوط الإمبراطورية الرومانية ورسم خطوط أوروبا الحديثة.

أما الفصل الخامس فشمل الهجرات من الجزيرة العربية كالأنباط, والغساسنة والمناذرة, وكذلك الفتح العربي الإسلامي.

وفي الفصل السادس تحدثنا عن هجرة القبائل التركية من أواسط آسيا إلى الأناضول. والفصل السابع خصص للحديث عن اكتشاف القارات الأمريكية والهجرات الأوروبية إليها, أما الثامن فكان للحديث عن الهجرات في العالم المعاصر خلال القرن الماضي فشمل الهجرة في شكلها الناعم الحديث,فهي رغم خطورتها – خصوصاً الهجرة عبر البحر- إلا أنها لا تجاري

الشكلين السابقين في قوة الصدام وعدد الضحايا, كما أن المهاجر الحديث لا يواجه التحدي بنفس العنف لأن غالبية البلدان المستقبلة للمهاجرين تغض الطرف شيئاً ما لأنها تحتاج إلى قوى عاملة رخيصة الأجر. وتبقى الفصل الأخير وهو الأهم حيث استخلصنا فيه أهم النتائج حول تأثيرات الهجرة على كافة مناحي الحياة واستعرضنا فيه بعض الآثار الاجتماعية والنفسية والسياسية لظاهرة الهجرة قديماً وحديثاً.

ونسأل الله التوفيق ,,,

جـدة

2018/04/01م

الفصل الأول :

إعداد المسرح أو هجرات العراة

تمهيد

قبل أن نبدأ رواية قصة اغتراب الإنسان على الأرض لابد أن نبدأ بالتساؤل عن تاريخ ظهور الإنسان نفسه على هذه الأرض. وللإجابة على هذا السؤال نبحث عن أقدم دليل مادي على وجود الإنسان, فنجد آثار الأقدام التي اكتشفتها عالمة الآثار ماري ليكي في فبراير عام 1978 في لايتولي في تنزانيا, وهي آثار أقدام لشخصين أو ثلاثة انطبعت على حجر مسامي متشكل من رماد بركاني على مسافة 75 قدماً ويقدر عمرها بين 3,5-3,7 مليون سنة[1] وهو تاريخ بعيد جداً يفصلنا عن المرحلة المنطقية لظهور البشر ,و المرحلة التاريخية المعروفة. إلا أن هذا الدليل هو دليل غير مباشر ويمكن تفسيره ونسبته بطرق متعددة, أما الأدلة المباشرة التي تعتمد في تأريخها على المستحاثات فهي أيضاً لم تتفق على تاريخ محدد لبدء ظهور البشر كما فعلت الكنيسة عن طريق حسابات الأسقف " آشر " الذي أعلن في مطلع القرن السابع عشر أن بدء ظهور الإنسان على الأرض هو عام 4004

---

[1] تاريخ الإنسان حتى ظهور المدنيات

ق.م وذلك من خلال حساب أعمار الأنبياء حسب تسلسل ورودهم فـي التـوراة حتـى الوصـول إلـى آدم, وقـد اعتمـدت الكنيسـة هـذا التاريخ كتأريخ رسمي لظهور الإنسـان, لكـن التـاريخ الـذي يميـل إليه كثيـر مـن البـاحثين لظهـور الإنسـان هـو قبـل مـا يقـارب 200 ألف سنـة.

إنــه لمـن الصــعب جـداً تتبـع أخبـار الإنسـان فيمـا قبـل التـاريخ, فمعرفتنا عن التاريخ تكاد تبدأ مـع حضـارات بـلاد مـابين النـهرين والحضــارة المصــرية القديمــة فــي فتـرة لا تتجـاوز 3000 قبـل الميلاد, وهي فترة حديثة نسبياً إذا ما قارنها بتاريخ الإنسـان علـى الأرض لعشرات الآلاف من السنين قبل ذلك.

وفـي ظـل هـذا الغيـاب للمعلومـات لجـأ العلمـاء إلـى دراسـة الآثـار الموجـودة (كــرؤوس الفــؤوس والســيوف والأدوات الحجريــة) ومقارنـة طريقـة صـناعتها, ومـن هنـا وجدت التسميات التـي تـدل علـى العصـور المختلفـة حسـب اخـتلاف طـرق صـناعة الأدوات الحجريـة (كالأشـولية والموسـيترية والاولـدواي) وانتقالهـا مـن موقع إلى آخر,و هكذا فعلم الآثار (الأركليوجيا) هنا نادراً ما يميز بين حركة البشر وحركة الأفكار[2]

[2] الإنسان في الشتات



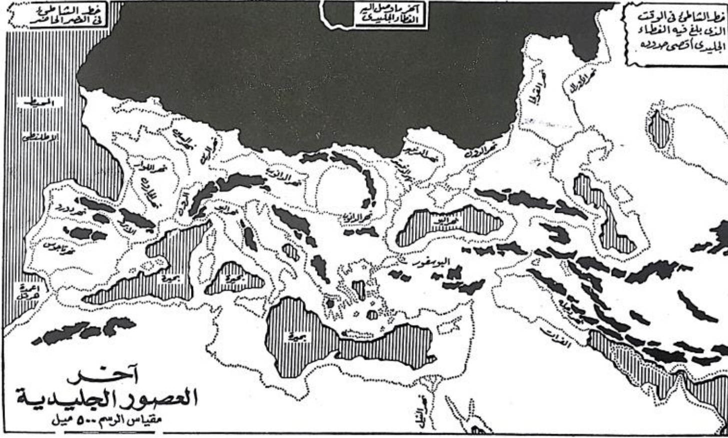
آثار الأقدام في لايتولي

وفي تتبع آثار الإنسان قبل التاريخ المكتوب اتجه العلماء نحو هذه الآثار وتحليلها وكلما ظهرت بينات جديدة ازدادت معرفتنا بهذا التاريخ ورغم كل ما بذل من جهود فما زالت الرؤية ضبابية وغير واضحة المعالم, كما أن البحث التاريخي ازداد صعوبة وتخصصاً وأصبح المؤرخ في حاجة لكثير من العلوم الأخرى

لتساعده في سعيه لفهم معنى ووقت هذه الآثار, كعلوم طبقات الأرض واللغة والخط وأحياناً حتى علوم التشريح والفيزياء.

يكاد يتفق الجميع أن هذه الأرض كانت يوماً ما خالية من البشر تماماً, ثم من جماعة صغيرة معدودة الأفراد بدأت تزداد أعدادهم شيئاً فشيئاً وكلما ازداد العدد كلما ازدادت الرقعة التي يحتلونها من الأرض, وهذا التوسع والامتداد لم يكن يتم اعتباطاً وإنما كانت تحدده عوامل كثيرة كان أهمها المناخ, فالأرض كما هو معروف مرت بعصور جليدية وعصور دافئة بالتناوب خلال عصر البيلستوسين الذي يمتد من 1.8 مليون سنة حتى 10.000 سنة مضت فكان تقدم الجليد في النصف الشمالي من الكرة الأرضية يحد من تقدم البشر,بل إنه يجعل مناخ جنوب غرب آسيا وأفريقيا معتدلاً وممطراً مما يؤدي بالتالي إلى عدم الحاجة إلى الهجرة إلى المناطق الشمالية كما سيتبين معنا لاحقاً.
فحتى وقت حديث نسبياً أو بالأصح حتى الوقت الذي بدأ فيه الإنسان يتعلم إنتاج غذائه بنفسه كان الإنسان نوعاً من الكائنات نادر الوجود نسبياً[3]

[3] شجرة الحضارة,الجزء الأول , رالف لنتون .



العالم القديم في آخر العصور الجليدية كما يتصوره رالف لنتون[4]

ولكن ما هي الأرض التي انتشر منها البشر- إن كان هناك بقعة واحدة محددة – فقد وجدت أثار بشرية في كل من آسيا وأفريقيا و أوروبا يعود تأريخها إلى آلاف أو مئات الألوف من السنين.

في السابق كان الباحثون يعتمدون على الآثار البشرية والحفريات التي يخضعونها لفحوص الكربون المشع ليعرفوا عمرها التقريبي أو يعمدوا إلى أساليب أخرى في حال كانت هذه الحفريات قديمة جداً. ونتيجة لبعض الحفريات حول العالم كان هناك رأي قديم تمسك به علماء الأنثروبولوجيا فترة من الزمن

[4] شجرة الحضارة –ج1- صفحة 43

وهو أنه كان هناك منذ البداية مجموعات عرقية مستقلة عن بعضها, زنجية وقوقازية ومغولية, أما المجموعات المتوسطة فقد نتجت عن الاختلاط بين تلك الأجناس إلا أن الحفريات لم تؤيد هذا الرأي, فقد عثر مثلاً في كهف شوكوتين في الصين على ثلاث جماجم لها نفس العمر تقريباً,وقد وصفت هذه الجماجم على النحو التالي: الأولى تشبه جمجمة صيني شمالي من السكان الحاليين, والثانية تشبه جماجم سكان الأسكيمو, والثالثة تشبه جماجم سكان ميلانيزيا ,ويعلق رالف لنتون على ذلك بأنه بما أن شوكوتين لم تكن مركزاً لهيئة الأمم المتحدة قبل الطوفان فإن التفسير الوحيد هو أن سكان تلك المنطقة كانوا يختلفون عن بعضهم اختلافاً كبيراً[5]

هذا وقد كان العلماء الأنثروبولوجيون يدرسون الحفريات ويحللون معطياتها ويعدلون نتائجهم كلما ظهر جديد من هذه الحفريات, وقد اختلفوا فيما بينهم اختلافاً لا يستهان به في النتائج التي توصلوا لها في بحوثهم.

إلا أنه وقبل ما يقارب الخمسين عاماً بدأ نوع جديد من البحوث يظهر ويسود بفضل تقدم البحوث في مجال تحليل الحمض النووي DNA وقد كان هذا التقدم في تطبيق بحوث الحمض

---

[5] المصدر السابق.

النـووي فـي تتبـع أصـول وهجـرات الإنسـان يعـود بالفضـل إلــى الباحث الإيطالي البروفيسور لويجي لوكـا كافـالي سفورزا[6] الـذي بدأ في بحوثه قبل ذلك من خلال تطبيقات عن طريق فصـائل الـدم إلا أنه عندما وجد أن تقدم بحـوث DNA قد أصـبح كافياً بـدأ فـي دراسـاته التـي لاقـت نجاحـاً وانتشـاراً باعتبارهـا أكثـر علميـة مـن الاعتماد على الحفريات فقط.

وقـد رسـمت هـذه البحـوث – التـي مازالـت جاريـة حتـى الآن[7] – خريطـة للتحركـات البشـرية قبـل التـاريخ مـن خـلال العلامـات المتغيـرة فـي DNA , وهـي خريطـة عز نظيرهـا بمـا تحملـه مـن نتـائج ومـا تملكـه مـن أدلـة, وهـذه الخريطـة رغـم أدلتهـا والأدوات العلمية التي تستخدمها إلا أنها ليست نهائية ومازالت قابلة للتعديل

---

[6] بروفيسـور ايطـالي يـدرّس فـي جامعـة سـتانفورد بالولايـات المتحـدة. نشـر العديـد مـن الكتب,ترجم بعضـها, وأهم كتبـه التـي ترجمت كتـاب "الإنسـان فـي الشـتات, تـاريخ التنـوع الوراثي والهجرات البشرية الكبرى" ترجمـه الـدكتور منتصـر الطيـب ابراهيم ونشـرته دار الوراق للنشر, وقد حصلت بصعوبة على نسخة منه,وهو بالإضافة إلى نتائج بحوث سبنسر ويلز آحد المصادر الرئيسية لهذا الفصل.

[7] هناك مشروع يجري العمل عليه حالياً من قبل "ناشيونال جيوغرافيك" وبإدارة سبنسر ويلز,الـذي سبق لـه العمـل مـع لـويجي لوكـا كافـالي , بإمكـان أي آحـد المشـاركة فـي هـذا المشـروع مـن خـلال إرسـال عينـة مـن اللعـاب إلـى ناشـيونال جيوغرافيك لمعرفـة أصـول صاحب العينة وذلك من خلال الموقع التالي:

/https://genographic.nationalgeographic.com

كذلك قامت جامعة كورنيل عام 2011 وبالتعاون مع سبنسر ويلـز بتحليـل الحمـض النـووي لمئتي طالب من جميع الدول والأعراق, وكانت النتائج تحمل معلومات هامة,يمكن الوصـول إليها من خلال البحث عن:

Tracing the genetic ancestry of 200 undergraduate students

حسب المعطيات المستحدثة فنحن لم نحلل كل الحمض النووي لكل البشر لكي نعطي نتائج نهائية.

في المهد الأفريقي :

كان هناك في الماضي جدل حول الأرض الأولى التي استوطنها البشر أما اليوم فيكاد يتفق جميع الباحثين على أن القارة الأفريقية هي البقعة التي انتشر منها البشر إلى أصقاع العالم أجمع[8],وجميع البشر الذين يعيشون اليوم على هذا الكوكب يعودون بأصولهم إلى أفريقيا.

هذا هو ما يقطع به العلماء الذين يعتمدون في دراساتهم على تحليل الحمض النووي, فقد توصل فريق بحثي بقيادة آلان ويلسون إلى أن جميع البشر اليوم يعودون إلى أم واحدة عاشت في أفريقيا قبل حوالي 100-200 ألف سنة, دعوا هذه المرأة باسم "حواء المتوكوندريا" أو "حواء العلمية" لاعتمادهم في دراستهم تلك على "المتوكوندريا" داخل الخلايا, كذلك قد أثبتت أبحاث

[8] هناك من يرى أنهم انتشروا من الشرق الأوسط إلى أفريقيا

آخرين أن جميع الرجال الموجودين حالياً يرجعون إلى رجل واحد دعوه "آدم العلمي" عاش في أفريقيا كذلك قبل حوالي 200 ألف سنة, إلا أنهم اختلفوا اختلافا غير قليل في تقدير عدد السنين,ومنهم من ذهب إلى أنه هناك احتمال بأن يكون "آدم العلمي" و "حواء المتوكوندريا" قد عاشوا في الفترة نفسها ومنهم من نفى ذلك, وليس هذا مجال بحثنا الآن.

أما علماء الآثار فليس لديهم ما يقطع تماماً بأن الإنسان نشأ وانتشر من أفريقيا إلا أن الأبحاث والحفريات القديمة التي وجدت هناك ترجح هذا الرأي, على الأقل حتى تظهر مستحاثات جديدة تنفي هذا الادعاء.

عاش الإنسان الفترة الأطول في تاريخه صائداً وجامعاً للثمار, ونظام الحياة هذا أدى إلى الثبات في عدد البشر, لأن الفرد الواحد قد يحتاج إلى خمسين ميلاً مربعاً لتقوم بأوده[9] ولتعذر توفر هذه المساحات الخصبة ولضعف الأدوات الحجرية في مواجهة الطبيعة الشرسة ولتقلب المناخ, كل ذلك أدى إلى ثبات أعداد البشر أو تزايدها بصورة بطيئة, حتى أن عددهم في أفريقيا كان ما يقارب عشرة آلاف إنسان,وقد وصل في بعض الأحيان إلى ألفي إنسان في العالم أجمع.

---

[9] المصدر السابق

وتـاريخ البشـر فـي القـارة الأفريقيـة هـو تـاريخ ضـارب فـي القـدم ورغم هذا القدم فقد عاش الإنسان خلال هذه الفتـرة المتطـاولـة بـلا تغييرات كبيرة في نمط الحياة الذي كان يعتمد على الصيد وجمـع الثمار وهو النمط الذي مازالت هناك شـعوب افريقيـة تعتمـد عليـه كـالأقزام الـذين يعيشـون فـي وسـط أفريقيـا فـي مجتمـع خـال مـن التراتبية و يعتمدون في معيشتهم على الجمع والالتقاط حتى اليوم وقـد ورد ذكـرهم فـي تـاريخ هيـرودوت فـي القـرن الخـامس قبـل المـيلاد وكـذلك البوشـمان الـذين يعيشـون فـي جنـوب القـارة الافريقية.

والأفارقـة مـن بـين شـعوب جميـع القـارات هـم الأكثـر تبيانـاً مـن الناحيـة الوراثيـة[10] ,ولـهـذه الملاحظـة أهميـة كبيـرة فقـد تعنـي أن التمـايزات التـي نراهـا اليـوم فـي شـعوب مختلفـة إنمـا ترجـع فـي أصـلها إلـى هجـرة جماعـات صـغيرة تسـود بينهـا بعـض الصـفات علـى مـدى أجيـال, إمـا لاعتبـارات جماليـة أو لأسـباب تكيفيـة, فـي حين بقيت شعوب القارة الأصلية تتمتع بالتنوع الأصلي.

و تاريخ الشعب الزنجي لا يعلمه إلا الله وحده,أما المتزنجين وهم فرع من الزنوج يشاركونهم في كل صفاتهم الأساسية عدا الحجـم فهـم قصـار القامـة كـأقزام الكونغـو, والقليـل منـا يعـرف أن هـؤلاء

---

[10] الإنسان في الشتات

المتزنجين يؤلفون سكان جزر الأندمان الواقعة في الجانب الآخر من المحيط الهندي تجاه بورما, كما أنهم يوجدون في جبال شبه جزيرة الملايو وفي جهات كثيرة من الفلبين وغينيا الجديدة.

كذلك توجد آثار قاطعة تدل عليهم في أنحاء متعددة أخرى من ميلانيزيا وأستراليا وجزر الهند الشرقية, وأخيراً ولعل هذا هو أهم ما في الموضوع فإن ثمة ما يدل عند أشد شعوب الهند تأخراً أن سكانها الأصليين كانوا من السلالات السمراء[11].

أما الصفات المميزة المتعلقة بالشعر المجعد والشفاه الغليظة فإنها ليست من السمات البدائية [12] فهذه الصفات لا توجد لدى البوشمان وهم آحد أقدم الشعوب في أفريقيا إن لم يكن أقدمها على الإطلاق بل حتى لون البشرة فهو يميل إلى الصفرة, وعندما زارهم سبنسر ويلز لم تخطيء عينه شكل عيونهم الآسيوية الواضحة وعظم الخد المرتفع للمغول ولون بشرتهم المتوسط الذي قد يتحول إلى أفتح أو إلى أغمق حسب الظروف البيئية.

يدمج بعض علماء الأجناس البوشمان مع الهوتنتوت في اسم واحد هو "الخويسان" جامعين اسم Khoi-Khoi (الهوتنتوت)[13] مع San (البوشمان) , وفي الوقت الحالي تستوطن هذه

---

[11] ما وراء التاريخ– وليام هاولز, ترجمة أحمد أبو زيد
[12] المصدر السابق
[13] يرى وليام هاولز أن الهوتنتوت هم نتيجة لتمازج البوشمان بالزنوج

المجموعتان مناطق قاحلة في جنوب أفريقيا لكنهم في الماضي كانوا يستوطنون منطقة السافانا التي طردوا منها مؤخراً وباستثناء بعض التغير في المناخ فإن الخويسان كانوا يعيشون بطريقة تشبه طريقة عيش الأقزام في الوقت الحالي. هذا ولم يبق الكثير منهم ممن يعيشون على الجمع والصيد فالغالبية منهم أصبحوا يمتهنون أعمالاً أخرى.





صورة لبعض الأقزام



بعض الصور من البوشمان

وخلال هذا التاريخ الطويل حافظ الخويسان على لغتهم التي هي وبلا ريب لغة غاية في القدم والتي تتميز بأصوات "طقطقة" صعبة لا توجد في إي لغة أخرى في العالم. هذا وقد امتزجت بعض القبائل الأفريقية مثل "الخهوسا" مع الخويسان يتضح ذلك من خلال وجود مورثات الخويسان في التكوين الوراثي

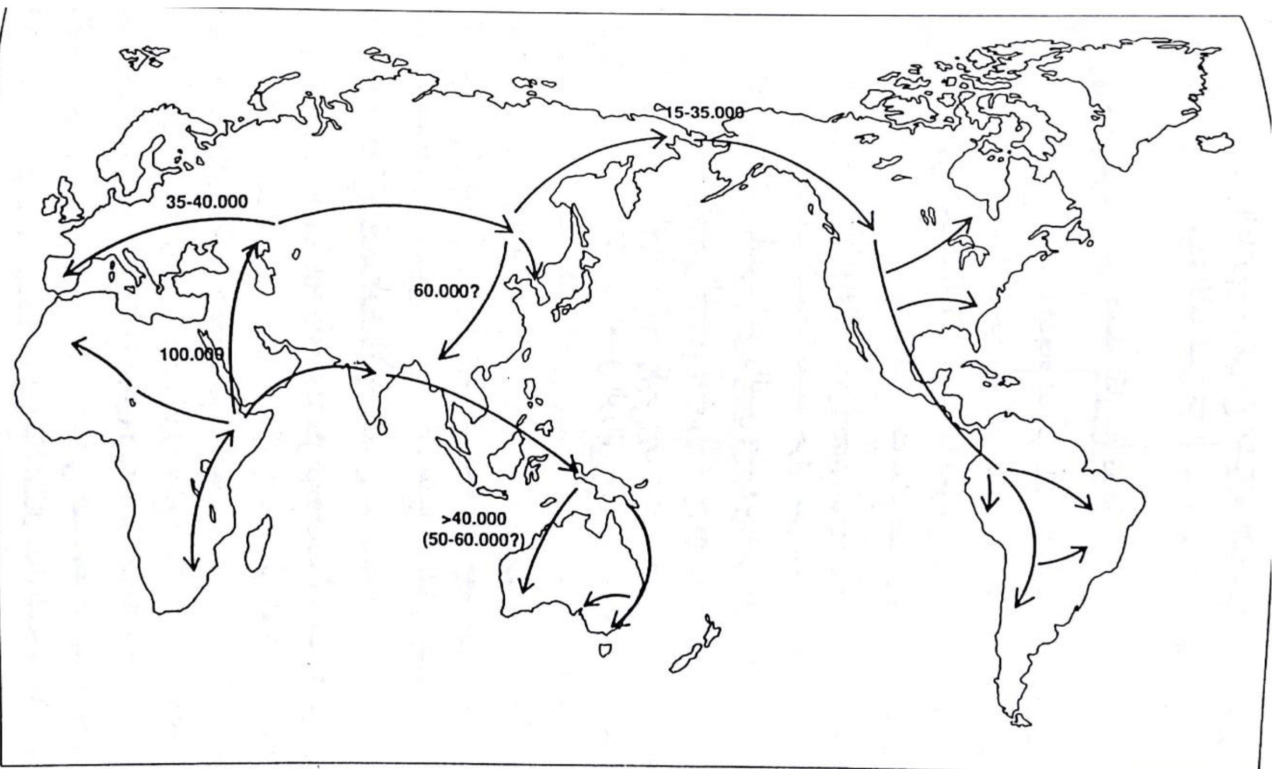
للخهوسا, فنرى ذلك منطبعاً على وجه نيلسون مانديلا والذي هو من أصل خهوسي لكن ملامح الخويسان واضحة في محياه[14]

وإنه مما يؤسف له إن هذه القبائل والشعوب الموغلة في القدم تكاد تنقرض اليوم بكل مما تحمله من صفات وراثية وثقافية, هذه الشعوب التي نطلق عليها صفات التوحش والتخلف هي في الواقع من أكثر شعوب العالم سلمية ووداً.

في الصفحة التالية : الخريطة التي رسمها لويجي لوكا لهجرات الإنسان إلى قارات العالم انطلاقاً من أفريقيا

---

14 الإنسان في الشتات- لويجي لوكا كافالي



خريطة تبين المسارات المحتملة لتوسع الإنسان المعاصر من موطنه الأصلي في أفريقيا نحو القارات المختلفة مع تبيان التاريخ المحتمل لوصولهم الى تلك القارات.

في الخريطة أعلاه ,وهي التي نشرها لويجي لوكا في كتابه يبدو أنه كان يرى أن الهجرة للشرق الأوسط كانت هي الأولى قبل 100 ألف عام, ورغم أنه لو يؤكد على هذا التأريخ إلا أن العمل الذي قام به سبنسر ويلز لاحقاً يبين أن الهجرة الأولى لم تكن للشرق الأوسط.

ـ الموجة الأولى : بعيداً إلى استراليا[15]

توصل الدكتور سبنسر ويلز في بحوثه على الحمض النووي DNA إلى أن الموجة البشرية الأولى التي خرجت من القارة الأوربية ذهبت بعيداً جداً على عكس المتوقع أو المنطقي من أنها ستنتشر في شمال أفريقيا مثلاً أو إلى شبه الجزيرة العربية أو إلى الشرق الأدنى, فقد اتجهت هذه الموجة مباشرة نحو استراليا !
وهذه النتيجة الغريبة تثير الكثير من التساؤلات والمعضلات على طول الطريق من أفريقا وحتى استراليا, فكيف وصل هؤلاء البشر وبوسائل بدائية إلى استراليا رغم بعد المسافة وصعوبة

---

[15] حسب نتائج لويجي لوكا وسبنسر ويلز فإن الإنتشار البشري الذي نتج عنه التوزع الحالي قد بدأ من القارة الأفريقية قبل حوالي 60-70 ألف سنة, لذا فهو يقطع مع الانتشار السابق لهذه الهجرات رغم وجود حفريات تثبت تواجد بشري قبل هذا التاريخ بآلاف السنين في كثير من أرجاء المعمورة.

التضاريس, وهل من المعقول أنهم عبروا المحيط الهندي بقوارب بدائية أم أنهم استخدموا طريق البر؟

وفيما يبدو أقرب إلى المعقول أنه وبسبب موجة من الجفاف ضربت أفريقيا قبل حوالي 72 ألف سنة دفعت أولئك البشر إلى مغادرة أفريقيا للمرة الأولى, وليس هناك من تأكيد للمكان الذي عبروا منه إلى آسيا, فهل هو عن طريق سيناء أم عن طريق باب المندب الذي كان أضيق كثيراً مما هو عليه اليوم, بل هناك احتمالاً بأن يكون البر الآسيوي متصلاً مع البر الأفريقي في تلك المنطقة نظراً لانخفاض مستوى سطح البحر كثيراً وتراجع حدود البحر في بعض المناطق إلى 40 كيلومتر عن حدودها الحالية.

وسواء كان هذا أم ذاك فقد عبرت مجموعات صغيرة من أفريقيا إلى ما يعرف اليوم باليمن ثم استمرت في طريقها إلى منطقة الخليج العربي ومنها عبرت واستمرت بمحاذاة الساحل حتى الوصول إلى سواحل شبه القارة الهندية ثم عن طريق جزر شرق آسيا حتى الوصول إلى استراليا رغم أن البحر كان يفصل بين استراليا وتلك الجزر بمسافة وإن كانت ليست كالمسافات الحالية ولكنها كانت كبيرة في مقاييس تلك العصور, ولإثبات هذه الفرضية كان على سبنسر ويلز أن يتجه إلى قرى جنوب الهند للبحث عن علامات معينة في DNA سكان تلك المناطق لتثبت

مرور سكان استراليا الأصليين من تلك البقعة, وفعلاً تمكن من العثور على هذه العلامات في DNA احد الرجال بعد أن آخذ مجموعة من العينات وتحليل Y كروموسوم فيها.



العبور إلى استراليا

وسكان استراليا الأصليون " الابوريجن" يشكلون في الواقع احد الكنوز الانتثروبولوجية في العالم وذلك لسببين: أولاً لأنهم من أقدم الشعوب في العالم, وثانياً لأنهم بعد هجرتهم قد عاشوا في شبه معزل عن الشعوب الأخرى وذلك لبعد المسافة بينهم وبين تيارات الهجرة اللاحقة في العالم القديم حتى وصلتهم جحافل الأوربيون في العصور الحديثة وكادوا يقضون عليهم تماماً.

ويبدو أن الطابع الجسماني الأسترالي الأكثر شيوعاً يمثل جنساً إنسانياً عاماً مغرقاً في القدم يشبه كثيراً في مميزات هيكله العظمي أقدم ما عثر عليه حتى الآن من بقايا نوعنا الإنساني[16].



بعض الاستراليين الأصليين

---

[16] شجرة الحضارة.

ـ الموجة الثانية: إلى آسيا

إن كان الإنسان قد ولد في أفريقيا فقد ترعرع وشب عن الطوق في آسيا, فهي المكان الذي انتشر منه البشر إلى أصقاع العالم الأخرى.

بل وكما أسلفنا فهناك من يرى أن آسيا هي المهد الذي ولد فيه البشر ومنها انتشروا إلى أفريقيا, حيث وجدت في فلسطين جماجم بشرية يعود تاريخها إلى قبل مئة ألف عام مضت, لكن يبدو أن هؤلاء الذين سبق وأن عبروا إلى آسيا عن طريق سيناء قد انمحت آثارهم تماماً قبل حوالي ستين ألف عام مضت.

وبالرغم من مرور الموجة الأولى عن طريق آسيا إلى أستراليا إلا أن الغالبية العظمى من الأسيويين كانوا نتيجة هجرة لاحقة خرجت من أفريقيا بعد الهجرة الأسترالية واتجهت إلى منطقة وسط آسيا, وقد كانت هذه الموجة عظيمة الأهمية في التاريخ البشري فسكان القارات (الأسيوية والأوربية والأمريكية) جميعهم يعودون بجذورهم إلى هؤلاء المهاجرين الذين اتخذوا من هذه المنطقة في وسط آسيا نقطة انطلاق إلى كافة أرجاء العالم الأخرى.



الانتشار في آسيا

حيث أنها انقسمت إلى عدة مجموعات منها مجموعتين اتجهت إحداهما إلى جنوب أسيا والأخرى إلى شمالها, ولكي يثبت هذا الأمر اتجه سبنسر ويلز في رحلته إلى كازخستان بعد تحليل آلاف العينات حيث وجد كذلك رجل يعود بجذوره إلى تلك الهجرة, أي أن أجداده لم يغادروا أسيا الوسطى منذ ذلك

الوقت,وفي هؤلاء الأجداد تجتمع شعوب شرق آسيا وأمريكا وأوربا, كان هذا الرجل يدعى "نيازوف"[17]



نيازوف

ويبدو أن الهجرة إلى آسيا كانت أكثر كثافة و أكثر فاعلية, حيث أنها عمرت أرجاء الأرض خلال بضعة آلاف من السنين حتى وصلت آثارها إلى المناطق الباردة في شمال أوربا.

[17] إيرادنا لمثل هذه المعلومات التفصيلية لتوضيح إلى أي مدى توصل التقدم في مجال الاستخدام لتقنيات التحليل الوراثي لكشف ماض الإنسان

- إلى أوربا

عندما استقر هؤلاء المهاجرون في وسط آسيا, وبعد أن بدأت أعدادهم في التزايد أكثر وأكثر أخذوا ينتشرون في كافة الاتجاهات, فالقسم الأول اتجه نحو شرق آسيا كما أسلفنا, أما القسم الآخر فقد اتجه نحو أوروبا, ولا يعرف على وجه التحقيق أي الطرق سلكوا إلى أوربا,هل هي عن طريق الأناضول أم عن طريق شمال البحر الأسود؟ إلا أن الرأي الأرجح أنهم سلكوا طريق الأناضول ومنها عبروا إلى المنطقة التي تعرف اليوم بالبلقان ومن هذه المنطقة كان هناك طريقان رئيسيان للهجرة, أولهما سار محاذياً لشواطئ البحر الأبيض المتوسط حيث تدفقوا على ايطاليا وشبه جزيرة أيبيريا وامتدوا لاحقاً إلى جزر البحر المتوسط.

أما الطريق الثاني فقد كان إلى أواسط أوربا عن طريق نهر الدانوب وروافده حيث توجه هؤلاء المهاجرون إلى ما يعرف اليوم بألمانيا وفرنسا.

ورغم الأهمية العظيمة التي لعبها الأناضول في هذه الهجرات إلا أن حضارات الأناضول في العصر الحجري الحديث والأزمنة المبكرة من عصر استخدام المعادن تكاد تكون مجهولة نسبياً [18]

وصل الإنسان إلى أوربا وانتشر في كافة أرجائها تقريباً حيث اكتشفت حفريات هؤلاء البشر في جنوب فرنسا في موقع كرومانيون عام 1868م وذلك أثناء الحفر لإنشاء خط حديد ومنذ ذلك الوقت أطلق على إنسان العصر الحجري القديم في أوروبا اسم "كرومانيون"

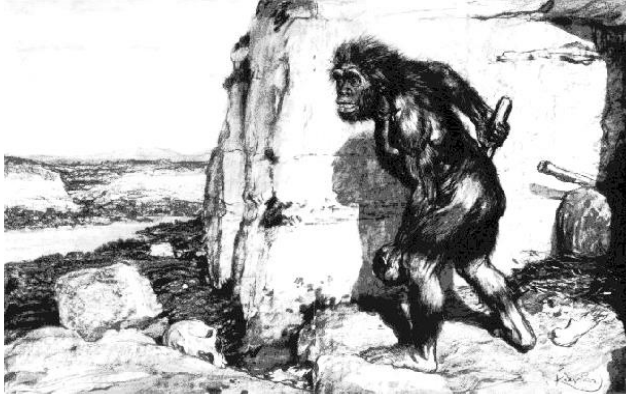
لابد أن نشير هنا إلى أمر في غاية الأهمية وهو أنه عند انتشار الكرومانيون لم تكن أوروبا خالية تماماً من البشر, حيث كان يسكنها جنس عرف لاحقاً باسم " النياندرثال" وقد اكتشفت أول جمجمة للنياندرثال قبل التعرف على الكرومانيون عام 1856م في وادي نياندر في ألمانيا, ولم يتم التعرف عليها في حينه حتى تم الكشف لاحقاً عن حفريات أخرى.

---

[18] شجرة الحضارة

وإنسان النياندرثال كان صياداً يعتمد على الأدوات الحجرية فقط وهو لم يكن يعيش في أوربا فقط بل اكتشفت حفرياته في الطابون بفلسطين كذلك اكتشفت هياكل لتسعة أفراد في كهف شانيدر في شمال شرق العراق, وفي كهف تشيك تاش في اوزباكستان وفي موقع مابا بجواندونق في الصين, كل هذه الحفريات تنتمي للنياندرثال رغم أنها لا تتطابق تشريحياً تماماً.

والنياندرثال حقيقة لطالما شكل معضلة لدى العلماء, ففي البداية قد أسيء فهمه وتم تصويره على أنه جنس متوحش يغطيه الشعر الكثيف, وأصبح مادة مكررة لفناني الرسوم المتحركة الذين صوروه على أنه يمشي بركب منحنية ويجر في يده عصى غليظة وفي اليد الأخرى امرأة !



تصوير تخيلي قديم للنياندرثال

لكن بعد مزيد من الدراسات والأبحاث تبين أن النياندرال وإن كان يتمتع بعظام غليظة وبنية منحنية قليلاً إلا أنه كان يمشي مستقيماً ويستعمل الأدوات الحجرية بمهارة ويمارس الطقوس ويدفن موتاه لكنه لم يخلف فناً كالذي خلفه الكرومانيون, على الأقل لم يتم العثور لفن يعود لمرحلة النياندرثال حتى الآن.

كذلك تبين أنه يملك اللغة ويمكنه الحديث بشكل طبيعي, حيث افترض سابقاُ أنه لا يستطيع التواصل باللغة وإنما فقط باستعمال أصوات بدائية.

وهذه الأبحاث الحديثة غيرت الصورة النمطية عن النياندرثال تماماً, بل أنها قلبتها تماماً, فأصبح ينظر إليه على أنه جنس مقارب لنا كثيراً.



رسم تخيلي حديث للنياندرثال

إلا أن النقطة الأهم في تاريخ النياندرثال ليست في الصورة المرسومة عنه وإنما في علاقته بالإنسان الحجري الحديث الذي جاء غريباً إلى أوربا في حين كان النياندرثال يعمرها منذ 400 ألف سنة.

حيث وجدت آثار آلات وعظام الإنسان الحديث في الطبقات التي تعلو مباشرة الطبقات التي توجد فيها آلات وعظام النياندرثال دون أن يكون بين الاثنين أي استمرار أو تداخل, لقد اندثر النياندرثال واختفى في نفس الفترة التي انتشر فيها الإنسان الحديث بين 35-40 ألف سنة مضت.

هذه الحقيقة ألهبت عقول الباحثين و أوحت لهم بفرضية وجود صـراع وجـودي بـين هـؤلاء القـادمين الغربـاء الجـدد وبـين المستوطنين الأرض منذ آلاف السنين, إلا أن هذه الفكرة بقيت في إطار الفرضية, حيث لم توجد إي أدلة تدعمها, وكل المواقع التـي عثر عليها لم تثبت تداخل أو صراع بينهم.

لذا بقي سبب اختفاء النياندرثال المفاجئ مجهولاً حتى اليوم, وكل ما وضع من فرضيات كاختفائهم نتيجة انتشار الأمراض بسبب أكلهم اللحوم البشرية, أو بسبب سيطرة الإنسان الحديث علـى الصيد مما أدى إلى تراجعهم حيث وجدت آخر آثارهم في كهوف على شاطئ المتوسط. كل هذه تبقى مجرد فرضيات لا تملك من الأدلة ما يدعمها.

إلا أنه ومؤخراً وبسبب أيضاً تقدم بحوث الحمض النووي DNA تبين أن الأوربيين الحاليين يملكون فـي حمضـهم النـووي نسـب قليلة متفاوتة تعود في الحقيقة إلى هؤلاء النياندرثال, مما يثبت أنه كان هناك تفاعل بين المستوطنين والقادمين الجدد, وإن كـان هذا التفاعل مجهولاً حتـى الآن, كذلك فإن تقنيات ما يعرف بالثقافة الموستيرية كانت موجودة في كلا المرحلتين, وهو أمر يوحي أيضا بوجود نوع من الاستمرار والتواصل

- إلى العالم البعيد

إنه لمن الغريب حقاً أن يصل الإنسان القديم بأدواته البدائية إلى قارة بعيدة كأمريكا, حيث عجز الإنسان الحديث من الوصول إليها حتى عام 1492 م مع رحلة كريستوفر كولومبوس .

ولكن كما هو الحال دائماً كان المناخ عاملاً مساعداً مهماً في هذا الانتشار, وحيثما يصل الإنسان إلى الحافة يأتي القدر ويمد يد المناخ ليبسطها فيعبر فوقها هؤلاء الذين لم يكونوا يعلموا إطلاقا أين كانوا يتجهون.

يتفق العلماء عموماً على أن السكان الأصليين للقارتين الأمريكيتين قدموا من شمال شرقي آسيا[19]

ويبدو من خلال دراسة DNA أن سكان القارتين الأمريكتين- باستثناء الأسكيمو الذين جاؤوا بهجرات لاحقة- أنهم يعودون في أصولهم إلى مجموعة محدودة من المهاجرين الذين عبروا من شمال شرق آسيا عبر سيبريا ثم من خلال سهل بيرنجيا, حيث يرى العلماء أن القارة الأمريكية كانت متصلة مع البر الآسيوي بسهل واسع خلال الفترة مابين عامي 10,000-27,000 سنة

[19] تاريخ الإنسان حتى ظهور المدنيات

مضت وذلك بسبب انخفاض مستوى سطح البحر في تلك المنطقة قرابة 130 م

وصلة القرابة بين السكان الأصليين للأمريكتين مع سكان وسط وشمال شرق آسيا تبدو واضحة في محياهم حتى اليوم من شكل الوجه إلى نوع الشعر ولون البشرة.

وتاريخ الإنسان القصير نسبياً في أمريكا هو السبب في انخفاض الكثافة السكانية عند وصول الجحافل الأوربية لها في القرن الخامس عشر الميلادي, وكادت جرائم الإبادة الجماعية هناك أن تقضي على هذه الشعوب بشكل تام.



العبور إلى أمريكا عبر سهل بيرنجيا

وتشير دلائل الحمض النووي إلى أن هذه المجموعة الصغيرة من المهاجرين قد عبرت هذا السهل قبل ما يقارب 12-15 ألف سنة[20] ونتيجة لارتفاع درجات الحرارة بعد هذا التاريخ مما أدى إلى ارتفاع مستوى البحر حتى غمر السهل الواصل بين شرق آسيا وأمريكا مما جعل هؤلاء المهاجرين يعيشون في هذا المعزل بدون إمكانية التواصل مع البر الآسيوي.

وعندما عبرت هذه المجموعة لم تتوقف بل استمرت في التحرك جنوباً حتى وصلت إلى أقصى القارة الأمريكية الجنوبية.

وهكذا كان أن عاشوا بعيداً عن العالم القديم حتى اقتحم كولومبوس و بيتزارو عليهم عزلتهم بالخيل والنار, وسيكون لهذا الإقتحام فصل خاص به

[20] هناك من الباحثين من يحددون تاريخاً أقدم, ويرون أن الوصول إلى القارة الأمريكية كان بين 30-35 ألف سنة مضت.



بعض الهنود الحمر(السكان الأصليين لأمريكا)

الانفجار السكاني

بعد أن أتم البشر انتشارهم في كافة قارات العالم بفترة قصيرة نسبياً, أي بين ما يقارب عامي 10-7 آلاف قبل الميلاد حدث اكتشاف غير وجه مستقبل الإنسان, و يعتبر كثير من المؤرخين هذا الاكتشاف من أهم الأحداث في تاريخ البشر إن لم يكن بالفعل أهم حدث على الإطلاق, ألا وهو اكتشاف الزراعة.

لا يعرف على وجه التحديد تاريخ دقيق لاكتشاف الزراعة, كذلك لا يعرف مكان محدد بعينه بحيث يمكننا نسبة اكتشاف الزراعة إليه, إلا أنه من المتفق عليه أن الزراعة ظهرت لأول مرة في منطقة ما ضمن ما بات يعرف بمنطقة الهلال الخصيب, حيث وجدت أقدم القرى والمدن في العالم كقرية جارمو[21] في التلال المطلة على وادي دجلة والفرات في العراق, وهي قرية تتألف من عدد من المنازل البسيطة المبنية جدرانها من الطمي المكبوس وقد عمرت هذه القرية لفترة طويلة من الزمن[22]

---

[21] قرية قديمة وجدت آثارها في جنوب شرق مدينة كركوك العراقية,قد تكون أقدم مجتمع زراعي, من المتوقع أن سكانها كانوا تقريبا 150 شخصاً
[22] ما وراء التاريخ

كذلك نجد موقع "شتال هيوك"[23] في جنوب وسط تركيا ويبلغ من العمـر 8 آلاف سـنة تقريباً,أسسـها فيمـا يبـدو بعـض الصـيادين وجـامعي الثمـار كمركـز دينـي أولاً ثـم أصـبحت مركـز تجـاري هام[24] أيضـاً نجد أريحا في فلسطين حيث تعتبر من أقدم المدن فـي العالم فقد وجدت فيها مناجل تعود لفترة متقدمة جدا, بالإضـافة إلى أن مدينة أريحا كانت تقع داخل سور تم بناءه من الحجر حتى قبل اكتشاف الفخار, وهو سور تبلغ سماكته حول 7 أقدام وهو مـا يزال قائماً حتى اليوم, حيث لم يفلح أحد من غزاة تلك الفترة فـي هدمـه,رغم أنـه لا يعـرف شـيء عـن هويـة العـدو الـذي بنـي هـذا السور من أجل مواجهته.

وتعتبر أريحا وشطال هيوك فريدتان كمدينتين من حيث تكوينهما أما جارمو وبعض المواقع الأخرى فإنها استمرت ولكن كقرى زراعية.

هذه المواقع التي المتباعدة في منطقة الهلال الخصيب تشير إلـى أن الزراعـة قـد انتشـرت هنـاك فـي وقـت متقـارب, رغـم جهلنـا المطبـق بطريقـة الاكتشـاف وأسـبابه وعلاقتـه بتـدجين الحيـوان وأيهما سبق الآخر, فقد وجدت آثار الحيوانات الرئيسية مثل الغنم

---

[23] موقع أثري اكتشف في جنوب وسط تركيا في مقاطعة كونيا,قد تكون أقدم مدينة في التاريخ بالتزامن مع أريحا, كان سكانها يقدرون ببضعة آلاف.

[24] تاريخ الإنسان

والماعز والخنازير كلها معاً في أدنى الطبقات الأركيولوجية في جارمو[25] ورغم أن فكرة أحادية مركز التدجين الأول تبدو مثيرة إلا أنها لا تجد من البينات ما يدعمها[26]

في مكان ما من الشرق الأدنى بدأت مرحلة ما يعرف بال "نيوليثية" أو العصر الحجري الحديث [27] حيث تغير نمط الحياة بشكل جذري مما أنعكس بشكل واضح على أعداد البشر في المعمورة, فقد قدر عدد سكان الأرض قبل اكتشاف الزراعة بحوالي الخمسة أو العشرة ملايين إنسان, وقد قدر سكان إنجلترا آنذاك بحوالي الخمسة إلى عشرة آلاف شخص, أي أنهم أقل من سكانها اليوم بعشرة آلاف مرة, وكان تبني الزراعة وانتشارها قد قاد إلى تضاعف عدد البشر بشكل مستمر فتضاعفوا حوالي ألف مرة خلال العشرة آلاف سنة الأخيرة, في حين لم تطرأ زيادة تذكر في تعداد الشعوب التي احتفظت بنمط الصيد وجمع الثمار[28] وهذا دليل على التأثير الهائل لاكتشاف الزراعة في تعداد البشر وتحضرهم اللاحق.

[25] ما وراء التاريخ
[26] تاريخ الإنسان
[27] "باليوليثي" العصر الحجري القديم, "ميزوليثي" العصر الحجري الوسيط, "نيوليثي" العصر الحجري الحديث.
[28] الإنسان في الشتات

يبدو أن اكتشاف الزراعة كان ثورياً حتى في حين اكتشافه, فلم يلبث هذا الاكتشاف إلا وانتشر في كافة أرجاء العالم القديم وفي جميع الجهات, ويرجح لويجي لوكا أن انتشار الزراعة قد صاحبته هجرات في أوساط المزارعين, ويروى أن مؤسسي أسرة شانج في شمال الصين كانوا مهاجرين جاءوا من جهة الغرب حوالي عام 1700 ق.م حاملين معهم أشياء خاصة بسكان جنوب غرب آسيا كالقمح والماشية والعجلة والمحراث رغم أن هؤلاء كانوا يحملون كافة صفات الجنس المغولي الجسمانية[29].

كذلك ازدهرت مدن مثل موهينجو دارو وهاربا[30] في الهند نتيجة انتقال الزراعة لتلك المناطق, وفي أفريقيا أيضاً حدثت تحركات سكانية كبرى إحداها في شمال أفريقيا قادمة من الشرق الأوسط حيث يمكن تفسيرها في ضوء انتشار الزراعة[31]

كما وجد المزارعون طريقهم إلى الشرق كذلك اتخذوا طريق آخر إلى الغرب, إلى أوربا, وقد بدأ هذا التوسع التدريجي قبل نحو تسعة آلاف سنة من المنطقة بين العراق وتركيا لتنتشر في كافة أرجاء القارة الأوروبية واستمرت في التقدم البطيء حتى وصلت إلى أقصى الغرب في بريطانيا والدانمرك واسبانيا والتي

---

[29] شجرة الحضارة ج 2

[30] مواقع أثرية في جنوب باكستان الحالية في وادي نهر السند

[31] الإنسان في الشتات

تبعد تقريباً أربعة آلاف كيلومتر خلال أربعة آلاف سنة, أي أن العملية كانت تتقدم بمعدل كيلومتر واحد سنوياً.

بهذه الطريقة البطيئة انتشر هؤلاء القادمون الجدد في سهول أوروبا الوسطى واخذوا ينشرون ثقافتهم مع كل تقدم يحرزونه, هذا ولا ننسى أن أوروبا كانت قد سكنتها خلال الأربعين أو الثلاثين ألف سنة الأخيرة شعوب قديمة انتشرت سابقاً, وكما سبق أن انتشرت تلك الشعوب على حساب النياندرثال بدأ هؤلاء المزارعون بالانتشار في مناطق هؤلاء الرواد القدماء.

هذا وقد كانت التباينات الوراثية لسكان أوروبا آنذاك كبيرة بسبب انخفاض الكثافة السكانية قبل اكتشاف الزراعة وكان بالتالي أثر الزيغ الوراثي أكثر فعالية وربما لم يتعد عدد سكان أوروبا المئة ألف نسمة في ذلك الوقت.

لم تكن جميع الأراضي ملائمة للزراعة بطبيعة الحال كما هي الأراضي في منطقة الهلال الخصيب الذي اكتسب اسمه بشكل واضح مما يتمتع به من خصب, لذا اتجه هؤلاء المزارعون إلى أسلوب آخر يعتمد على حرق الغابات ثم زراعتها والانتقال إلى أماكن أخرى عندما تجهد الأرض بسرعة نظراً لعدم معرفتهم بالتسميد فكان هذا الأمر دافعاً قويا لزيادة وتيرة الهجرة, فكان

المزارعون المهاجرون يتدفقون من جنوب غرب آسيا إلى جميع الاتجاهات[32].

فعندما بدأت هجرة الشعوب الزراعية إلى أوروبا ومنطقة البحر الأبيض المتوسط كانت غابات الصنوبر تغطي المنطقة, ونظراً لقلة الأمطار حيث اقتصر هطول الأمطار على فصل الشتاء فلم تستطع هذه الغابات أن تجدد نفسها, مما ساهم في سهولة استخدام المحراث وزراعة النباتات الأصلية كالقمح, إلا أن العقبة الرئيسية كانت في عدم وجود الأراضي المستوية مما اضطر هؤلاء المهاجرين للاستعانة بالمدرجات إلا أنها لم تكن مدرجات مروية فكانت تعتمد على مياه الأمطار الشتوية[33].

من جهة أخرى نجد أنهم لجئوا إلى تدجين أنواع أخرى من الأشجار كالتين و الزيتون والعنب, حيث أصبح زيت الزيتون مثلاً من الأشياء التي لا غنى عنها في اقتصاد البحر المتوسط فكان يستخدم في الطبخ والخبز والإضاءة وحماية الجلد, كما أنه أمدهم مع النبيذ والمحاصيل الأخرى بمواد ثمينة صالحة للتصدير والتبادل التجاري مع المناطق الأخرى.

يعد اكتشاف الزراعة وانتشارها الخطوة المهمة المباشرة قبل تمدن الإنسان وتحضره واستقراره, فقد قاد هذا الاكتشاف إلى

---

[32] شجرة الحضارة ج2

[33] المصدر السابق

الاستقرار في أماكن محددة, مما أدى إلى نشوء تجمعات زراعية وقرى استمر تطورها إلى مدن أصبحت خلال وقت قصير نسبياً حواضر عالمية ممهدة لنشوء الحضارات القديمة في بلاد مابين النهرين تحديداً.

فقد استقر المزارعون في السهول الرسوبية المجاورة لنهري دجلة والفرات ويبدو أن هؤلاء كانوا على علاقة قرابة مع سكان جارمو, كذلك ازدهرت قرى العبيد خلال الألفين الخامس والرابع قبل الميلاد وهي القرى السابقة مباشرة للحضارة السومرية الأولى في بلاد مابين النهرين التي سيأتي ذكرها في الفصل القادم.

ويبدو أن العوامل الأساسية التي أدت لازدهار الحضارة في وظهور المدن في مناطق مثل السهل الفيضي بين نهري دجلة والفرات, والسهل المحيط بأنهار السند والنيل, فنهر النيل كان يصب في خليج واسع في موقع قريب من موقع مدينة القاهرة اليوم كما أن مجراه كان واسعاً مرتفعاً فكان في مواسم الفيضان يغطي مناطق واسعة تحتفظ بالمياه لفترات طويلة وتتكون فيها المستنقعات, إلا أنه مع مرور الوقت استمر في تعميق مجراه وحمل الطمي إلى المصب حتى تكونت منطقة الدلتا الحالية حتى

أصبح بشكله الحالي تقريبا قبل العصر التاريخي[34].وهذا الأمر لم يفت هيرودوت عندما زار مصر في القرن الخامس قبل الميلاد فكانت هذه إحدى ملاحظاته الثاقبة .

إذن بعد اكتشاف الزراعة استقر كثير من الناس في قرى محددة رغم أن تيار الهجرات لم يتوقف من التجوال لدى الصيادين وجامعي الثمار, بل ازدادت وتيرته نظراً لازدياد أعداد البشر وللبحث عن مناطق جديدة لاستصلاحها. فانتشرت القرى في كل هذه المناطق, لكن متى ظهرت المدن؟ وأين؟

للإجابة على هذا السؤال حقيقة نحن في حاجة للإجابة أولاً على سؤال ما هي المدينة؟ أو ما هي الشروط الواجب توافرها في مكان ما حتى يمكن أن ندعوه مدينة؟

يضع جدعون جوبيرغ ثلاث شروط مسبقة لتكون الحياة المدنية وهي[35] :

1- قاعدة ايكولوجية مناسبة
2- تقنية متقدمة
3- مركب تنظيم اجتماعي

ورغم وجود خلاف حول أي المدن هي الأولى في العالم, إلا أنه من المتفق عليه بين العلماء أن المدن الأولى ظهرت في الشرق

---

34 دراسات في تاريخ الشرق القديم

35 مدينة ما قبل الصناعة

الأدنى ربما حول 4500-4000 ق.م ومن هذه المدن أوروك وأريدو و أور ولاجاش ولارسا, وظهرت أيضاً في مصر قرب هذا التاريخ, وفي وادي السند حوالي عام 3500 ق.م, وفي الصين لم تظهر حتى عام 2000 ق.م, أما في أوربا فلا نجد ما يمكننا دعوته مدن حتى في اليونان نفسها قبل عام 900 ق.م

إنه مما يلفت النظر ندرة وجود الأسلحة في مساكن العصر الحجري الحديث, وهو أمر قد يعني أن المهاجرين والمستوطنين السابقين كانوا يتجنبون بعضهم بعضاً, فما دامت هناك أراض جديدة صالحة للاستغلال فلم يكن هناك ما يدعوا إلى الحرب, وهو أمر إذا ما قارناه مع ملاحظتنا السابقة عن سلمية الشعوب التي تعتمد في حياتها على الصيد والجمع يمكننا أن نتساءل عن حقيقية " التقدم" من عصور التوحش والبربرية إلى الحضارة والتمدن, فهذه الملاحظات تعطينا انطباع مختلف, بل أنها قد تعني مقلوب فكرة التقدم, فالإنسان انتقل من الطبيعة المسالمة التي تحرص على تجنب الصدام إلى زمن حروب الإمبراطوريات ثم الحروب العالمية في العصر الحالي !

مع استقرار الإنسان وظهور المدن الأولى بدأ ظهور الحضارة و بذور الحروب لبسط النفوذ على المدن المنافسة, ففتحت هذه المتغيرات صفحة جديدة في تاريخ البشرية.

الفصل الثاني :

هجرات الغزاة

تمهيد :

تناولنا في الفصل الماضي هجرات البشر منذ ظهور الإنسان على الأرض وحتى ظهرت المدن وبدأ شيء من الاستقرار في أرض واحدة يلوح في الأفق, فبعد مرور عدة آلاف من السنين على انتشار الزراعة, بدأت تظهر القرى وتكبر بازدياد عدد سكانها وازدياد الإنتاج الزراعي فيها والتبادل التجاري بين هذه المدن.

لذا نجد أنفسنا في بداية العصور التاريخية ـ أي بعد ما يقارب خمسة آلاف عام من اختراع الزراعة ـ أمام مشهد مختلف, فنجد المدينة\الدولة وقد ظهرت في بلاد ما بين النهرين في عدة أماكن مختلفة ومتقاربة في السهل الرسوبي المتكون في جنوب بلاد مابين النهرين, وكذلك بدء ظهور الحضارة في زمن قريب من

هذا في السهل القريب من النيل وفي السهل الرسوبي المتكون في الدلتا في مصر.

وظهور المدن في هذه الأماكن تحديدا في وقت معين,مع عدم وجود أدلة على استيطان بشري سابقً يبعث على التساؤل عن السبب وراء هذا الظهور؟

ويبدو لي أن السبب في ذلك أن كل من أنهار دجلة والفرات والنيل كذلك كانت عنيفة الجريان وكثيرة الفيضان طوال العصور السابقة, مما جعل الاستيطان البشري فيها متعذراً, فنجد أن القرى القديمة كانت في المرتفعات القريبة منها, فلما هدأت حدة هذه الفيضانات, وظهور هذه السهول الفيضية الخصبة جداً, بدأت هجرات من المناطق المحيطة تتقدم شيئاً فشيئاً حتى اقتربت من ضفاف هذه الأنهار, وكان أن تمكنت من تسخير الفيضان المدمر سابقاً إلى عامل مهم في ري المحاصيل المحيطة وبالذات في مصر, فقد كانت حرفياً "هبة النيل". لذا نجد أن هذه الفيضانات قد انعكست بصورة واضحة في أدب وأساطير هذه الأمم, فقد ورد في لوائح الملوك السومرية أنه: (بعد الطوفان نزلت الملكية من السماء)

لذا سنتحدث في هذا الفصل عن "هجرات الغزاة", أي الهجرات التي كانت تتم على شكل اجتياح مسلح يقضي على السكان

السابقين أو يزيحهم كلياً من المنطقة المستهدفة أو يزيحهم جزئياً ويبسط سيطرته على البقية, ونظراً لطول الفترة التي يشملها هذا النوع فقد قسمناها إلى ثلاث أقسام, سنتناول في أولها الهجرات التي حدثت في كل من الحضارات التي نشأت منذ بداية التاريخ في كل من بلاد النهرين وبلاد الشام ومصر, ثم سنتبعها بالقسم الثاني بالهجرات التي حدثت في الشرق الأقصى و بلاد فارس وبلاد الإغريق, ثم في القسم الثالث سنتناول الهجرات الوسيطة التي ساهمت في تشكيل العالم كما نعرفه اليوم.

أولاً - الهجرات في الشرق الأدنى[36] :

آ – بلاد النهرين .

تعتبر بلاد النهرين[37] من أكثر بلدان العالم تعرضاً لموجات الهجرة التي تأتيها حيناً من الجنوب وحيناً من الشرق وحيناً آخر من الغرب, لذا نجد تعاقب السلالات المختلفة عليها مع استمرار الحضارة.

---

[36] نسوق هنا نفس الملاحظة التي ساقها ول ديورانت من أننا نقصد بالشرق الأدنى المنطقة التي يحدها من الشرق الهند وأفغانستان ومن الشمال البحر الأسود وتمتد إلى الغرب حتى تشمل مصر وإلى الجنوب حتى تشمل جزيرة العرب.

[37] أو بلاد مابين النهرين (ميزوبوتاميا) كما دعاها الإغريق,ونحن هنا لا نحدها فيما بين النهرين فقط وإنما بكل المنطقة المحيطة بهما شرق دجلة وغرب الفرات.

فكما أسلفنا لم تكن الأراضي المحيطة بالنهرين صالحة للسكنى بسبب الفيضانات, ومع هدوء حدة الفيضان بدأت تستصلح الأراضي الخصبة شيئاً فشيئاً, حتى في المرحلة التاريخية نجد أن بعض الملوك كانوا يستصلحون بعض أراض المستنقعات ويهبونها لمن يشاءون.

إذن تميزت منطقة ما بين النهرين بكثرة هجرة الأقوام إليها, فكانت أرضها تتعرض لموجات من الفيضان البشري, مثل ما كانت تتعرض للفيضانات النهرية, وكثيراً ما جاءت إليها موجات من الأقوام التي اصطلح على تسميتها بالأقوام أو الشعوب "السامية" , هذه التسمية التي شاعت بين المؤرخين والباحثين رغم عدم صحتها ولا منطقيتها, حيث كان أول من أطلق هذا الاصطلاح على الأقوام التي هاجرت من مهدها في الجزيرة العربية المستشرق الألماني شولتزر في عام 1781 م على المتكلمين بإحدى لغات "العائلة السامية"[38] كالعربية والعبرية والآكدية (البابلية والآشورية) والآرامية والكنعانية والحبشية والنبطية, بناء على التشابه الواضح بين هذه اللغات, وقد استوحى

[38] تقسم اللغات إلى عوائل لغوية حسب تشابهها, مما يرجح أنها تعود إلى أصل واحد, كاللغات السامية, واللغات الحامية, واللغات الهندو- أوروبية ...

هذا الاصطلاح من جداول الأنساب في التوراة في سفر التكوين, الإصحاح العاشر[39] الذي يعدد فيه أبناء سام بن نوح[40].

إذن فهذا الاصطلاح هو في الواقع ذو أساس لغوي وليس عرقي[41], فلا يمكننا أن نثبت أو ننفي الاختلاف أو التقارب العرقي بين هذه الأقوام القديمة حسب ما يتوفر بين أيدينا من مادة, نظراً لاعتمادنا في الغالب على مادة كتابية تكشف الأصول اللغوية ولا تكشف الأصول العرقية.

وهناك عدة نظريات حول المكان الأول الذي قدمت منه هذه الأقوام السامية[42], فهناك من يرى أن الموطن الأصلي للساميين هو أرض أرمينيا وهضاب آسيا الوسطى, وبأنها كانت مهداً

---

[39] ووُلِدَ لِسامٍ أيضاً بَنونَ، وهو أبو جميعِ بَني عابِرَ وأخو يافَثَ الأكبرِ .٢٢ وبَنو سامٍ :عيلامُ وأشُّورُ وأرفَكْشاد ولُودُ وأرامُ .٢٣ وبَنو أرَامَ :عوصُ وحُولُ وجاثِرُ وماشُ .٢٤ وأرفَكْشادُ وَلَدَ شالَحَ، وشالَحُ وَلَدَ عابِرَ .٢٥ وَوُلِدَ لِعابِرَ ابنانِ اسمُ أحدِهما فالِجُ .لأنَّ في أيّامِهِ انقسمتِ الأرضُ، وا سمُ أخيهِ يقطانُ .٢٦ ويقطانُ وَلَدَ ألْمُودادَ وشالَفَ وحضَرمَوتَ ويارَحَ ٢٧ وهَدورامَ وأُوزَالَ ودِقلَةَ ٢٨ وعُوبالَ وأبِيمايلَ وشَبا ٢٩ وأُوفيرَ وحَوِيلَةَ ويُوبَابَ .هؤلاءِ جميعُهُم بَنو يَقطانَ .٣٠ وكانَ مَسكِنُهُم مِنْ مِيشا في اتْجاهِ سَفارَ إلى جبَلِ المَشرِقِ .٣١ هؤلاءِ بَنو سامٍ بِبُلدانِهِم وعَشائِرِهم كلُّ جَماعةٍ بِحسَبِ لُغَتِها.

[40] مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة

[41] هناك من حاول أن يستعيض عن مصطلح السامية المضلل بمصطلحات أخرى كالأقوام العربية, أو أقوام الجزيرة, أو الأقوام الأفرو - آسيوية, إلا أن مصطلح السامية مازال هو الأكثر شيوعاً.

[42] نتبع التسمية الشائعة على كراهة منا

للساميين والآريين معاً,وحجتهم في ذلك حجة ضعيفة تعتمد على شكل الوجه.

أما النظرية الثانية فترى أن موطن الساميين الأوائل كان في بلاد مابين الرافدين لأنها أقدم أرض عمرها نوح بالإضافة لبعض التشابهات اللغوية, فيما يرى آخرون أن جزر البحر الأبيض المتوسط هي الموطن الأصلي للساميين, الذين هجروا هذه الجزر بسبب غرقها في البحر.

وهناك من يرجع هذه الأقوام إلى أفريقيا مع اختلاف في تحديد الموقع تماماً أو طريق الهجرة الذي سلكوه إلى آسيا, وذلك اعتماداً على التشابه بين بعض الشعوب الأفريقية كالمصريين القدماء والأحباش من الناحية اللغوية والتشريحية, رغم أن هذا التشابه الظاهر ليس برهاناً جازماً إن كان هؤلاء الأفارقة جاءوا من الساميين أم العكس[43].

وبالرغم من وجود كل هذه النظريات إلا أن النظرية الشائعة التي ترجع مهد الأقوام السامية إلى الجزيرة العربية لا تزال هي النظرية التي يعول عليها جمهور الباحثين, حيث انتشرت منها هجرات متعاقبة توجهت إلى أطراف الجزيرة وبوادي الشام والعراق, ومنها كانت تتغلغل إلى المناطق الأخصب مثل وادي

---

43 تاريخ العرب القديم, توفيق برو .

الرافدين وسوريا وفلسطين ولبنان.[44] فقد نزحت من الجزيرة وأطراف بواديها أقوام كثيرة وفي أزمان مختلفة لا يمكننا تحديدها بدقة فلم يكن أثرها يبدوا واضحاً إلا حين تخلف تلك الهجرات أثراً وذكراً لها في التاريخ كتأسيس دولة أو سلالة حاكمة.

وإن كانت هذه النظرية هي الراجحة والشائعة, ولكنها وإن كانت مرضية لكثير من الأسئلة من جهة, إلا أنها لا تجيب على كثير من الأسئلة الأخرى من جهة أخرى. فما هو سبب تكاثر السكان تكاثراً يفيض عن إمكانية البيئة الصحراوية على الاستيعاب؟ وما الذي جعل هذه الشعوب تقطن هذه البيئة الصحراوية الجافة ابتداء؟

نجد هنا فرضاً مهماً ألقاه "شوينفرت"حيث استند على عدم وجود الحبوب والماشية في حالتها البرية في كل من العراق ومصر وإنما في شبه الجزيرة العربية, لهذا فقد افترض أن الحضارة إنما نشأت في العصور قبل التاريخية في الجزيرة العربية, ومنها انتقلت إلى ثلاث مناطق هي : جنوب بلاد الرافدين, وشمالها, وإلى مصر[45], وبالرغم من أن هذا الفرض يداعب مشاعري كثيراً ويجيب على بعض أسئلة البحث, إلا أننا لا يمكن أن نجزم

---

[44] مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة.

[45] قصة الحضارة ج 1

بقبوله أو رفضه لقلة ما لدينا من بينات مادية تثبته, نظراً لاتساع الجزيرة العربية وقلة البحوث الأثرية فيها.

السومريون:

هنا نجد أنفسنا في موقع يصعب فيه أن نقول أي الحضارات كانت أسبق من الأخرى, ولكن بشكل عام فإن أقدم مدونات كتابية وصلت إلينا هي المدونات السومرية وإن كان هذا في ذاته لا يقوم دليلاً على أن الحضارة السومرية هي أولى الحضارات[46] ,فقد وجدت في العراق آثار حضارات قبيل المرحلة التاريخية سبقت الحضارة السومرية, كحضارة العبيد , إلا أننا لا نملك معلومات عن السكان في تلك المرحلة, وذلك لتعذر معرفتنا باللغة أو اللغات التي سادت في دور العبيد لأنه من عصور ما قبل التاريخ التي سبقت ظهور الكتابة, ولعل هؤلاء القوم المجهولين سبقوا الساميين والسومريين في استيطان السهل الرسوبي في حدود الألف الخامس قبل الميلاد, ولكن لغتهم بادت ولم يبق منها سوى تراث قليل كأسماء بعض المدن وبعض الصناعات[47] , ويرجح بعض الباحثين أن هؤلاء هم الذين أوجدوا الخط المسماري, في

---

46 قصة الحضارة.

47 مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة.

حين يفترض البعض وجود أقوام دعاها "الفراتيون الأوائل" رجح أنهم سبقوا السومريين في الحضارة[48], وأن احتكاك السومريين بهم هو الذي ولد لدى السومريين الأدب الملحمي في مرحلة لاحقة, وأي يكن فمن المتفق عليه لدى جمهور المؤرخين أن الحضارة الأولى التي تم التمكن من التعرف عليها معرفة تحقيق هي حضارة السومريين. فمن هم هؤلاء السومريون؟

كان السومريون قوماً مجهولين حتى للشعوب القديمة كاليونان والرومان ولم يعلم أحد بوجودهم[49] إلى أن حل الباحثون رموز الخط المسماري في القرن التاسع عشر فاكتشفوا أن الحضارة القديمة لم تشتمل فقط على اللغة البابلية السامية,بل وجدوا إلى جانبها لغة أخرى اتفق على تسميتها باللغة السومرية, ومنذ ذلك الحين والتساؤل يثار حول الأقوام التي تكلموا بهذه اللغة, فمن أين جاءوا؟ وكيف استوطنوا في هذه البقعة؟وكثير من الأسئلة الأخرى. هذه القضية تعرف لدى الباحثين بالقضية السومرية التي لم تحل حلاً شافياً حتى الآن .

عندما اكتشف الباحثون اللغة السومرية حاروا في تسميتها, فسماها بعضهم باللغة "الأشكوزية" وسماها البعض الآخر باللغة "الآكدية" وكانت أولى النصوص التي ورد فيها اسم السومريين

48 مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة
49 أو أنهم عدوهم جزءاً من البابليين والآشوريين.

في ألقاب الملوك (ملك سومر وآكاد) وبالنص السومري Lugal Ki-en-gl Ki-uri وباللغة البابلية Shar mat shumerim u Akkadim ويحتمـــل أن معناهـــا "أرض ســـيد القصـــب أو الأحراش"[50]

أما قضية مجيء السومريين إلى وادي الرافدين وزمن هجرتهم فهناك احتمالات عديدة, لا يوجد ما يبرر ترجيح بعضها على الآخر, فهناك من يرى أنهم لم يأتوا من مناطق بعيدة وإنما كانوا أحد الأقوام الذين عاشوا في جهة ما من بلاد الرافدين ثم هاجروا واستقروا في السهل الرسوبي عندما أصبح صالحاً للسكن في حـــدود الألـــف الخـــامس قبـــل المـــيلاد, وأنهـــم لـــم يكونـــوا أول المستوطنين لهذا السهل, وأنهم إنما عرفوا بها الاسم نسبة إلى الإقليم الذي استوطنوا فيه "سومر" .

فـــي حـــين يـــرى بـــاحثون آخـــرون أن الســـومريين نزحـــوا إلـــى الأراضي المنخفضة في السهل الرسوبي من مناطقهم الأصلية الجبلية التي يرجحون أنها الجبال الشرقية بسبب بناء معابدهم على مرتفعات صناعية "زقورات" , في حين يرى البعض الآخر أنهم إنما هاجروا من إيران بناء على تشابه أساليب صناعة الفخار بينهم, وأخيراً هناك من يفترض أنهم إنما هاجروا من

[50] مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة.

وادي السند, بناء على تشابهات حضارية مع كل من "هاربا وموهنجو دارو" ويفترضون وصولهم إلى وادي الرافدين عبر طريقين أحدهما عبر الخليج العربي والآخر براً عبر إيران.

ومهما يكن الموطن الأصلي الذي جاء منه السومريون فإنهم قد أعطوا الحضارات السابقة دفعة كبرى إلى الأمام حتى وإن لم يجلبوا معهم عناصر حضارية خارجية, وكل ما يمكن قوله عنهم أن لغتهم لا يمكن تصنيفها لا في عائلة اللغات السامية ولا في اللغات الهندو- أوربية, وتتميز هذه اللغة بميزة الإلصاق فغالبية مفرداتها تتكون من مقطع واحد ولكنها تولد كلمات جديدة عن طريق دمج كلمتين معاً, فمثلاً "لو" تعني رجل و "أي" تعني بيت و "كال" تعني عظيم,فـ "لوكال" تعني الملك, و "أيكال" تعني القصر ومنها كلمة هيكل في اللغة العربية.

وهكذا فليس هناك دليل قاطع على أصل السومريين أو المكان الذي هاجروا منه إلى السهل الرسوبي في جنوب بلاد الرافدين وإن كان على الأرجح أنهم هبطوا إليه من المرتفعات المحيطة به واختلطوا بالقوم الذين سبقوهم إليه .

الآكديون:

تعددت دول المدن في جنوب بلاد الرافدين, ولكنها لم تصل إلى نظام يوحدها, فكان أن حاول أحد ملوك مدينة أوما حاكم طموح يدعى " زاجيزي" فكان أن غزا لجش وانتصر عليها, ثم سعى إلى توحيد كل المدن السومرية تحت قيادته, فنقل عاصمته إلى مدينة أوروك لسمعتها الحضارية والعقائدية, حيث اعتبر نفسه ملكاً على سومر[51].

في هذا الوقت وفي ظل هذه الفوضى التي كانت تعصف بالمدن السومرية كان أن استغل هذه الظروف شعب من الشعوب التي تتحدث باللغات "السامية" وتسربوا إلى منطقة الفرات الأوسط, ولا يعرف على وجه التحديد ظروف استيطانهم هناك, إلا أنه من المرجح أنهم تسربوا بشكل بطيء .

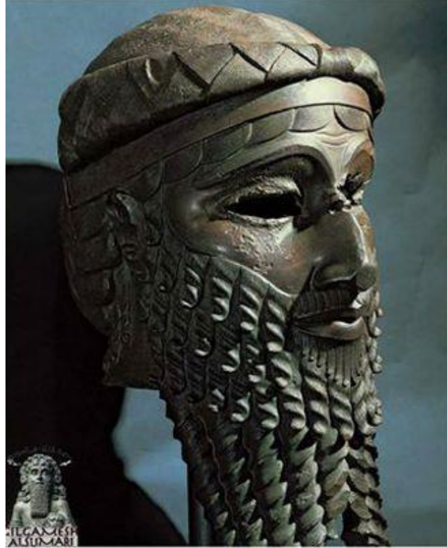
حيث كان هؤلاء الآكديون فرعاً من الهجرات السامية المتوالية التي تكاثرت أعدادها في بوادي العراق والشام قبيل منتصف الألف الثالث قبل الميلاد حيث تشعبت فروعاً كثيرة, كان منها الفرع الآكدي الذين استوطنوا قرب مدينة كيش, وهنا كان أن أعتلى العرش الآكادي ملك طموح لا يعرف له أباً يدعى شيروكين أو كما اشتهر باسم "سرجون" ومعناه الملك الصادق

51 الشرق الأدنى القديم

أو الملك الشرعي أسس مدينة "آكاد" أو "أجاد" على بعد ثلاثمائة كيلو متر شمال غرب المدن السومرية, هذه المدينة التي اصبحت مركز نشاط الآكاديين السياسي والعسكري, حيث وجه شيروكين اهتمامه إلى العناية بجيوشه واستعمال الأسلحة البرونزية,فكان يأكل أمامه يومياً 5400 جندي من حرسه, فلقب نفسه "ملك سومر وآكد" ومد سلطانه على المدن السومرية وكان من بين ضحاياه الملك السومري "زاجيزي" ثم تجاوزها إلى عيلام فبسط سيطرته عليها, حتى وصل إلى شاطئ الخليج العربي حيث غسل أسلحته في مياهه تعبيراً عن امتداد حكمه, ثم كان أن لقب نفسه بلقباً جديداً هو " شاركبرات أربعيم" ومعناه ملك الجهات الأربع أو الأركان الأربعة, ويقال أن حكمه امتد من "البحر الجنوبي" الخليج العربي إلى "البحر الشمالي" البحر المتوسط, وعقد علاقات تجارية مع "ديلمون" البحرين الحالية و "داجان" التي قد تكون عمان الحالية,وتذكر بعض نصوص خلفائه أنه خاض معركة في كبادوكيا في آسيا الصغرى انتصاراً لبعض التجار الآكديين الذين استقروا فيها حيث مارسوا تجارة الصوف والفضة![52]

[52] الشرق الأدنى القديم

وبهـذا يصـف الـبعض شـيروكين بأنــه أول إمبراطـور عرفـه التـاريخ[53], حيث دام حكمـه أربعاً وخمسين سنـة إلا أنـه شـهد فـي نـهايتـه بعض القلاقل والثورات مـن بعـض الشـعوب التـي كانـت تحـت سيطرته, ثـم خلفـه ابنـه ريمـوش واسـتمرت المشـاكل فـي عهده, إلا أنـه خلفـه نـارام سين حفيد شيروكين أعـاد مجد الدولـة الآكدية وأعاد حدودها القديمة, إلا أن الضعف عاد ينخر في جسد الدولـة الآكديـة فـي عهد خلفـاء نـارام سين, فلم تعمر هذه الدولـة طويلاً بسبب عوامل داخليها وخارجية عملت على سقوطها.



شيروكين أو سرجون

[53] وصفه عبد العزيز الثعالبي بأنه "أول قائد ازدان به تاريخ الأمة العربية في حروب التحرير ضد الأجانب.



نارام سين منتصراً على أعداءه

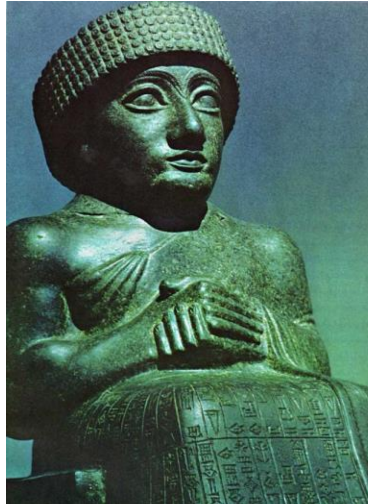
الجوتيون :

لم تكن الدولة الآكدية دولة متماسكة لاختلاف عناصرها, وكان هناك قوم يتربصون بها من جهة الشرق, هؤلاء هم الجوتيون أو "الغوتيون" وهم من القبائل الجبلية, والمعلومات عنهم قليلة, إلا أن المعروف عنهم أنهم اجتاحوا الدولة الآكدية حوالي عام 2200 ق.م حيث هبطوا من المناطق الجبلية إلى المناطق الزراعية الخصبة وفرضوا سيطرتهم على المدن وأذاقوا أهلها الأمرين من بأسهم, نظراً لما عرف عن أهل الجبال من شدة, لذا نجد أن السومريون كانوا يصفونهم بأنهم وحوش الجبال الذين فتكوا

بالسكان, واغتصبوا النساء, وسلبوا الأطفال من أمهاتهم, ونهبوا سومر ونقلوا كنوزها معهم إلى الجبال.

ولكي يؤمن هؤلاء القوم سيطرتهم على مدن أكثر منهم حضارة, سعوا إلى عقد معاهدات مع حكام هذه المدن, فأصبحت لاغاش مركزاً رئيسياً لتواجد الجوتيين, تحت حكم "غوديا" الشهير, الذين وصلتنا تماثيل له في غاية الإتقان.

ورغم تعاون بعض الحكام مع الغزاة الجوتيين إلا أن بعض المدن حملت راية المقاومة, وكان على رأسها أور و أوروك. مما أدى في النهاية إلى هزيمة الجوتيين بعد أن حكموا المنطقة لمدة تقارب 180 عاماً



غوديا

الأموريون :

بعد هزيمة الجوتيين عاد السومريون إلى حكم بلاد الرافدين في ظل سلالة أور الثالثة التي استمرت حتى عام 2000 ق.م تقريباً, وفي هذه الأثناء كان تدفق قبائل سامية عرفت باسم الأموريين قد زاد خلال حكم الجوتيين والملوك السومريون الذين خلفوهم, وقد دعا السومريون هذه القبائل التي تسكن الصحراء غرب سومر باسم (مارتو) الذي يعني " الأرض الأجنبية", وتصف الآداب السومرية هؤلاء الأموريين بأنهم قوم من الرعاة الذين لا بيت لهم والذين يأكلون اللحم النيء والذين لا يدفنون موتاهم, ولعل المقصود هنا هو عدم وجود مقابر لهم فكما هو معروف عن كل البدو الرحل أنهم لا قبور لأجدادهم فهم يدفنونهم في المكان ثم يرتحلون عنهم, كما ورد وصف رجل المارتو في أسطورة زواج إله البدو (مارتو- أمورو) الذي يسكن الصحراء, من ابنة أحد الآلهة المستقرة بأنه : " رجل يحفر بحثاً عن الكمأ على أطراف الأراضي الزراعية, الذي لا يعرف أن يحني الركبة" تعبيراً عن عدم قبولهم الخضوع لأحد, وممارسة البحث عن الكمأ مازالت حتى اليوم في تلك البقاع !

لم يكن الآموريون قوماً جدداً على بلاد الرافدين فقد عرفهم السومريون باسم مارتو كما سبق وعرفهم الآكديون باسم أمورو الذي يشير إلى معنى الغرب حيث يتمركزون.

ولكن تحركاتهم في تلك الأثناء كانت تقتصر على هجرات فردية أو مجموعات صغيرة بحثاً عن العمل كمرتزقة أو عمال في دول المدن السومرية, وكان أول من تصدى لهم هو الملك الآكدي (شار كالي شري) حيث هزمهم في إحدى المعارك في (جبل بسار) أو بشار وهو المسمى اليوم بجبل البشري في الصحراء السورية قرب مدينة دير الزور.

كان هؤلاء الآموريون بدواً يتجولون في الصحراء الواسعة غرب الفرات, وكان مركزهم مدينة ماري الآكدية التي اتخذوها قاعدة لهم, ومن خلال احتكاك هؤلاء البدو بمن سبقهم إلى الحضارة في بلاد الرافدين فقد اكتسبوا العوامل التي ستمكنهم من السيطرة على هذه الحضارة بدمجها مع فتوة هذه الأقوام البدوية كما هو حال التاريخ في مرات عديدة.

لم يقف سور مارتو عائقاً في وجه تقدم الآموريين, ذلك أنهم استغلوا قيام العيلاميين بالتقدم وأسر آخر ملك من سلالة سومر الثالثة فقز (إشبي إيرا) الذين كان ملكاً على ماري وتابعاً لملك

أور إلـى بـلاد النـهرين وأحتـل مدينـة إيسـن وأقـام فيـها أول سـلالة أمورية حكمت لمدة تربو على القرنين.

أصبح بلاد الرافدين والحال هذه مقسماً متنازعاً بين مدينتي إيسن التي يسيطر عليها الآموريون ومدينة لارسا التـي يسيطير عليها العيلاميـون, التـي كـان يحكمـها بـدورها هـي الأخـرى أحد شـيوخ القبائل الأمورية واسمه (نبلانم).

فـي ظـل هـذا الاضـطراب الـذي سـيطر علـى بـلاد الرافـدين, والصراع القائم بين لارسا وإيسن, استغل الآمورين هذه الظروف وكثفوا من هجراتهم واستيطان المنـاطق الوسطى والجنوبيـة من بلاد الرافدين, ونجح بعضهم في تأسيس كيانات سياسية لهم, مما دفع ملوك سلالة إيسن وغيرهم من السلالات والمدن الأخرى إلى إقامة الحصون للوقوف في وجه هذه الهجرات الجديدة.

في هذه الأثناء تمكن أحد شيوخ القبائـل الأموريـة واسمه (سومو آبم) من أن يستقل بمدينة بابل ويؤسس فيها سـلالة حاكمـة عرفت بالتاريخ لاحقاً باسم السلالة البابلية الأولـى, حيث كانت بابل قبل ذلك معروفة لدى السومريين باسم (كدنجيرا) ولعلها سميت بابل أو (باب إل) بمعنى باب الإله .

ازدهرت بابل بعد أن تولى حكمها الآموريون وأصبحت منذ ذلك الوقت أشهر مدن العراق القديمة حتى يومنا هذا, وقد نسب لها أنها أعظم مدن العالم على الإطلاق.

في وقت ما[54] من القرن الثامن عشر قبل الميلاد تولى حكم بابل الملك الآموري الشهير "حمورابي" , وبعد اختفاء سلالة إيسن انحصر النزاع في السيطرة على كامل بلاد الرافدين بين حمورابي وملك قوي آخر هو " ريم - سين", فظل كل منهما يتربص بالآخر لمدة ثلاثين عاماً حتى قام حمورابي أخيراً بالاستيلاء على لارسا ووحد كل بلاد الرافدين تحت حكمه.

كانت هجرات الآموريين حاسمة في صياغة تاريخ بلاد الرافدين, فقد جاء هؤلاء القوم بحماستهم وجددوا دماء الشعوب التي سبقتهم كالآكديين, واختلطوا بهم وتعلموا منهم الأساليب الحضارية, ووحدوا بلاد الرافدين تحت حكمهم, ورفعوا اسم بابل عالياً في التاريخ.

كان الآموريون يتألفون من مجموعة من القبائل المختلفة كقبائل "أمنانم" و "يخرورم" و "الخانيين" و "السوتو", ولم يقتصر استيطانهم على مناطق السهل الرسوبي وغرب الفرات, بل أن بعض هذه القبائل كقبيلة "يموت بعل" لم تجد مجالاً للاستيطان

---

[54] يختلف المؤرخين في تحديد حمورابي تحديداً دقيقاً.

في السهل الرسوبي فكان أن توجهت إلى منطقة شرق دجلة في المنطقة التي يخترقها نهر ديالى.

ويبدو أن الآموريين تميزوا بكثافة العدد والكفاءة الحربية, والشغف بالتشريع, فقد كان اول تشريع عالمي متكامل هو شريعة حمورابي الشهيرة,كما أن تأثيرهم لم يقتصر على بلاد الرافدين فقط, بل كان لهم تأثير حاسم أيضاً في بلاد الشام, وهذا ما سيرد ذكره في الجزء الخاص ببلاد الشام.



مسلة شريعة حمورابي تصوره وهو يتلقاها عن الإله

الكاشيون :

في تلك الأثناء التي كان يزدهر فيها بلاد الرافدين تحت حكم حمورابي الآموري, كان- هناك في الشرق- يلتم شمل قوم عرفوا في التاريخ باسم الكاشيين أو الكاسيين, وليس هناك قول متفق عليه عن أصل هؤلاء القوم, فالبعض يرى أنهم من الشعوب الهندو- أوربية[55], ويرى البعض الآخر أنهم (آسيانيين) وفدت إليهم شعوب هندو- أوربية في موجات من الهجرات إلى منطقة وسط جبال زاغروس, وهي المنطقة التي تعرف اليوم بإقليم لورستان في إيران, ومن خلال هذا الامتزاج وهذه الهجرة, برزت نهضة هذا الشعب بعد أن تبنى المهاجرون ثقافة وحضارة ولغة أهل البلاد, إلا أنهم نشروا الروح الحربية وكونوا فيما بينهم طبقة أرستقراطية[56].

أما اسمهم فيبدو أنه مشتق من الكلمة البابلية (كشو) التي لا يعلم أصل اشتقاقها بالضبط ويرجح أنها تعني القوة والبأس, ويحتمل أن تكون مشتقة من أسم الإله القومي للكاشيين.

بدأ هؤلاء الكاشيون يدخلون إلى بلاد الرافدين على شكل هجرات سلمية في أواسط القرن الثامن عشر ق.م بحثاً عن العمل في

---

[55] مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة
[56] دراسات التاريخ

الزراعة وتربية الحيوان, ثم بعدما صاروا يتجمعون في مناطق خاصة بهم أحس البابليون بخطرهم فحاربهم الملك البابلي (سمسو إيلونا) (1712-1749 ق.م) ولكن ازدياد عددهم لم يتوقف فأصبح السكان يتقبلون وجودهم لبراعتهم في العمل واندماجهم في المجتمع البابلي[57].

إلا أن التيار الرئيسي للكاشيين عندما صده خلفاء حمورابي عن بابل لم يجد أمامه إلا التوطن في منطقة (عانة) في الفرات الأوسط, متحينين الفرص للانقضاض على بابل, فجائتهم هذه الفرصة عندما اجتاحها الحثيون[58] عام 1595 ق.م ولأن الحثيون لم يطيلوا المكوث في بابل غير بضعة أشهر, فقد انسحبوا وسلموا حكم البلاد للكاشيين, ويبدو أن هذا الأمر كان مكافأة لهم لمساعدة الحثيين على دخول البلاد.

وبدأ حكم الكاشيين لبابل بالملك (اكوم كاكريمة) ليستمر حكمهم لبلاد الرافدين كطبقة أقلية ارستقراطية حاكمة لمدة تقارب الخمسة قرون, وقد حكم هؤلاء الكاشيين من أقصى الجنوب حتى بلاد آشور, حيث كان يعاصرهم ما يسمى بالعصر الآشوري الوسيط[59].

---

[57] الموسوعة العربية.

[58] من شعوب الأناضول, سيرد ذكرهم لاحقاً

[59] مقدمة في تاريخ الحضارات.

اتخذ الكاشيون في البداية مدينة بابل عاصمة لهم, ثم أسسوا في منتصف عهدهم مدينة ضخمة أسموها (دور كوريكالزو) بمعنى حصن كوريكالزو وهو آحد ملوكهم, وبقاياها تعرف اليوم باسم عقرقوف غرب بغداد .

كان عهد الكاشيون عهداً طويلاً موحداً مستقراً, وقد تقبل هؤلاء القوم حضارة وثقافة بلاد الرافدين فاستوعبوها وذابوا فيها و أسهموا في تقدمها, فكان للحصان لديهم مكانة مرموقة ترقى إلى حد العبادة, فكان أن أدخلوا الحصان معهم إلى بلاد الرافدين فازداد استعماله للنقل والحرب, وقد كان استعماله قبل ذلك قليلاً وقد ورد ذكره بالنصوص السومرية باسم (انشو – كرا) أي حمار الجبل وباللغة الآكدية (سيسو), فكان دخول الحصان عن الطريق الكاشيين سبباً هاماً في تقدم كل من الحرب والتجارة.

عندما ضعف الحكم الكشي تنافس كل من الآشوريين في الشمال والعيلاميين في الجنوب على الاستحواذ على مملكتهم, فكان أن غزاها العيلاميون ودمروا بابل ونهبوا كنوزها ومنها مسلة نرام سين ومسلة حمورابي, وقد حاول بعض الكاشيين الثورة على العيلاميين إلا أنهم نكل بهم وقتلوا, وقد ظل صدى ذكرهم يتردد في المدونات الآشورية حتى القرن السابع قبل الميلاد.

ومن خلال النصوص التي عرفت باسم رسائل تل العمارنة يبدو أن ملوك الكشيين كانوا على علاقة طيبة بالفراعنة, فقد وجدت رسالة يعتب فيها الملك الكشي (بورنا بورياش) الثاني (1375-1346 ق.م) على أخناتون بسبب إرساله كمية قليلة من الذهب, ومذكراً إياه بأن الكنعانيين عرضوا على أبيه التحالف لغزو مصر لكنه رفض وحذرهم لأنه يعتبر من يعادي مصر إنما هو عدو له[60].

الحوريون:

يرجح أن يكون المهد الأصلي للحوريين هو المنطقة الجبلية التي تمتد من جبال طوروس بالقرب من كركميش (جرابلس اليوم) في الغرب إلى بحيرة وان (أو فان) في الشرق, ولسبب ما فإنهم بدئوا منذ وقت مبكر في الانتشار باتجاه الجنوب صوب أعالي بلاد الرافدين, في تلك المنطقة التي تعج بمسميات الشعوب, حيث كانت تجاورهم شعوب وردت تسمياتهم في المدونات السومرية والآكدية باسم السوبارو (أو السوبارتو) واللولو وغيرهم, أما الحوريين فقد ظهروا في التاريخ منذ منتصف الألف الثالث قبل

[60] مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة

الميلاد, واتصل بهم ملوك الدولة الآكدية حيث كانت لهم دويلة في أعالي دجلة والفرات, ولكن لم يبرز لهم شأن سياسي مؤثر في عموم بلاد الرافدين حتى القرن الخامس عشر قبل الميلاد[61].

وهنا أيضاً نجد أن هناك خلافاً حول أصل هؤلاء الحوريين, فمنهم من يرى أنهم من أوائل الشعوب الآرية المعروفة في الشرق الأدنى كويل ديورانت[62] , نجد أن هناك من ينفي انتمائهم إلى الشعوب الهندو-أوربية أو السامية حتى, بناء على أدلة لغوية[63] .

ويبدو أن انتشارهم قد شمل المناطق من المنطقة التي دعاها السومريين سوبارتو في شمال شرق دجلة إلى شمال منطقة مابين النهرين, حيث قامت لهم ممالك بعد ضعف الدولة الآكدية كمملكة نغر في منطقة تل براك في سوريا اليوم, وأربيل في العراق اليوم, وأثناء انشغال ملوك أور بمواجهة التقدم الآموري برز شأن أحد ملوكهم واسمه (تيش أتل) ملك مدينة أوركيش (تل موزان قرب القامشلي اليوم) الذي خلف لنا أقدم نص باللغة الحورية.

---

[61] المصدر السابق

[62] قصة الحضارة ج2

[63] مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة

وفي القرن الخامس عشر قامت مملكة عرفت بالتاريخ باسم مملكة (ميتاني) الحورية وعاصمتها (وشوكاني) عند منابع نهر الخابور, ويبدو أن غالبية سكان هذه المملكة كانوا من الحوريين إلا أن الطبقات الحاكمة كانوا من الأرستقراطيين الآريين[64] .

عندما قامت مملكة ميتاني كانت المنطقة تخضع للنزاع المصري-الحثي فكان أن عقد الملك الحوري معاهدة مع مصر مما عرضه لغضب وحملات الملك الحثي.

ثم تعزز الرباط الحثي-المصري من خلال الزيجات الملكية, فكانت فتيات ميتاني مرغوبات في مصر, وكان بعضهن عندما تزف في موكب ملكي تأخذ معها الكثير من الوصيفات ممن يبقن في مصر ويتزوجن من رجال البلاط فيها, حتى أن أميرة تدعى "كيلوجيا" حضرت إلى مصر ومعها 317 وصيفة تزوج أكثرهن من مصريين ممن يعمل في خدمة الفرعون.

وهذه الروابط العائلية أدت إلى مزيد من الأرتباط بين المملكتين, فنجد بين رسائل تل العمارنة رسالة من ملك ميتاني إلى امنحوتب الثالث يقول فيها :" إلى امنحوتب العظيم ملك مصر, وأخي وصهري الي أحبه ويحبني, أقول أنا دوشراتا ملك ميتاني العظيم وأخوك ووالد زوجتك الذي يحبك, صحتي جيدة وإني ابعث إليك

---

64 المصدر السابق

بتحياتي يا أخي وصهري وكذلك إلى أقاربك وأبنائك وزوجاتك ورجالك".

ثم في رسالة أخرى بعد موت أمنحوتب الثالث وتولي العرش من قبل أمنحوتب الرابع الذي عرف بأخناتون,يقول: " حينما مات والدك بكيت يوم علمت بوفاته وسقطت مريضاً وأشرفت على الهلاك, ولكن عندما علمت بأن أكبر أنجال الملك أمنحوتب والملكة تي قد جلس على العرش قلت الآن لم يمت أمنحوتب".[65]

تسبب لاحقاً الصراع على العرش بين أفراد الأسرة الحاكمة بضعف سلطة المملكة فتدخل فيها الآشوريون والحثيون وتقلصت مساحاتها ونقلت عاصمتها إلى تئيد (قرب القامشلي في سوريا) لتصبح أثراً بعد عين .

---

[65] دراسات التاريخ.

الآشوريون:

يعتبر الآشوريون من ضمن الشعوب السامية التي هاجرت من الجزيرة العربية إلى بلاد الرافدين, وقد كان تاريخ هجرتهم قريبا من هجرة الآكاديين في الألف الثالث قبل الميلاد أو قبل ذلك, وقد استوطنوا المناطق الشمالية من بلاد الرافدين, وهي المناطق التي عرفت سابقاً باسم (سوبارتو), ويبدو أن الآشوريون قد تأثروا بالسوباريين من جميع النواحي, اللغوية والقومية والدينية, حتى أن بعض الآلهة السوبارية بقي في العبادة الآشورية, لكن الآشوريين تحاشوا إطلاق تسمية (سوبارتو) على بلادهم وعلى أنفسهم لأن لهذه التسمية مدلول سلبي, إذ أنها ترادف معنى "العبد" باللغة الآكدية, ويبدو أن سبب التسمية كان بسبب أن منطقة سوبارتو كانت من مصدر جلب الأسرى ليتم استعبادهم.[66] لذا نجد أن ملك بابل أحيانا عندما يخاطب ملك آشور يستخدم صيغة "ملك سوبارتو" لتذكيره بأن السيادة إنما هي لبابل.

ويبدو أن السوبارتو الأصليين الذين سكنوا المنطقة قبل مجيء الآشوريين اضمحلوا في هذه الأقوام فمنهم من قضي عليه, ومنهم من هاجر إلى المناطق الجبلية تحت الضغط الآشوري, في حين

---

[66] مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة.

اندمج بعضهم في المجتمع الآشوري ونقوا ارثهم معهم لهذه الشعوب الفتية المندفعة. ليس هذا فحسب, بل كشفت وثائق حديثة أن بعض أوائل ملوك الآشوريين كانوا يحملون أسماء ذات طابع حوري.

يشترك في مسمى "آشور" كل من أرضها وإلهها وشعبها, وقد وردت في بعض النصوص الآرامية بلفظ " آثور".[67] في حين ذكرتها النصوص المصرية لأول مرة في القرن الخامس عشر باسم "إسور" خلال عهد الفرعون تحوتمس الثالث, وذكرت أن أميرها أهدى للفرعون كمية من اللازورد والأحجار الكريمة.

ويبدو من التماثيل التي تركها لنا الآشوريون أنهم يتمتعون بمظهر يدل على الشدة, وأجسام مشدودة ولحى كثة وأنوف معقوفة. وقد كانوا يتحدثون باللغة الآكدية التي انقسمت لاحقاً للأشورية والبابلية, وكلا اللغتين قريبة من بعضها البعض.

خضعت آشور للدولة الآكدية, واستمرت حتى بدأت تأخذ شيء من استقلالها بعد سقوط أسرة بابل الأولى, وكانت أولى محاولاتهم لتكوين كيان سياسي مستقل على يد "شمشي أدد" الأول وهو من أصل أموري, حيث مد سيطرته حتى ماري

---

[67] الشرق الأدنى القديم

واتخذ لنفسه عاصمة " شوبات إنليل" تل ليلان اليوم في الجزيرة السورية, إلا أن مملكته انحسرت من بعده.

هادن الآشوريون في البداية كل من البابليين والكاشيين والحوريين, ثم تحالفوا مع الحثيين للقضاء على دولة الحوريين, واستغلوا فرصة هجوم العيلاميين والقضاء على الكاشيين,إلا أنهم وقفوا في وجه تقدمهم, كما استغلوا علاقات المصاهرة مع الأسرة البابلية المالكة وبدئوا بالتدخل في تنصيب الملوك الذين يريدون. وهنا بدأ الطريق ينفسح لبروز المملكة الآشورية على مستوى الشرق الأدنى كله.

وقد برز منهم ملوك مثل (شلمنصر الأول) (1266-1243 ق.م) الذي أحيا اللقب السومري القديم وتلقب به (ملك سومر وآكد) وكذلك ولده (نينورتا الأول), وفي أثناء حكم هذين الملكين بدأت طلائع هجرات سامية جديدة تهدد استقرار ملكهم, فهبوا لمواجهتها في مناطق الفرات.

واستمر توسع الآشوريين وكان من أشهر ملوكهم (شلمنصر الثالث) (858-834 ق.م) الذي وسع حدود المملكة في بلاد الشام حتى أخضع مملكة إسرائيل ولبنان حتى غسل سلاحه في بحر أمورو العظيم (البحر المتوسط) ثم هزم تحالفاً كبيراً في قرقر

شمال حماة, وقد خلد هذا النصر ذي الأهمية الكبيرة –سنعرض له لاحقاً- في نقش من الحجر.

تعززت قوة الإمبراطورية الأشورية تحت حكم كل من (تغلات بيلصر الثالث) ومن بعده (سرجون الثاني) الذي حاصر السامرة وأسر ملكها وسبى سكانها إلى مناطق الخابور وبلاد الميديين وأسكن مكانهم قوم آخرين.

ثم تولى من بعده (سنحريب) (705-681 ق.م) الذي يبدو أنه قاد حملة للاستياء على مصر إلا أنها فشلت, ثم بسط سيطرته على القبائل العربية البدوية في شمال الجزيرة وتسمى بـ (ملك العرب), ثم تولى (أسرحدون) (680–669 ق.م) الذي قام بحملة على مصر, فاستولى عليها ودمر عاصمتها "منف" ونصب عليها حاكماً موالياً له.ومات في طريق العودة إلى مصر لمساعدة الحاكم أمام جيوش الفرعون, فخلفه ابنه (اشوربانيبال) وقد كانت المملكة في أقصى اتساعها, إلا أن المملكة في نهاية عهده الذي امتد لمدة تقارب 40 عاماً تعرضت لصعوبات كبيرة أدت في النهاية إلى سقوطها السريع عقب وفاته بقليل,فقد كانت الحدود الشمالية تئن تحت ضغط قبائل السميريين والسكيثيين والميديين, كما أن الخلافات داخل الاسرة الحاكمة, وازدياد حقد البابليين والكلدانيين بعد الانتقامات العنيفة التي انزلها بهم الآشوريون,

وبروز الكلدان كقوة جديدة. كل هذا أدى إلى السقوط السريع للمملكة الآشورية[68].

تميز الآشوريون بالقوة الضاربة وبعدم التردد في استعمال العنف إلى درجة كبيرة, مثل إحراق المدن وسبي الكثير من الناس من الأمم التي تخضع لهم, فقد أمر مثلاً تيغلات بيلسر الثالث بتهجير أحد و ثلاثين ألفاً وخمسمائة شخص من سكن المنطقة التي تمتد بين حماد وبين البحر إلى مناطق أخرى,ويبدو أنه أحل محلهم سكاناً جلبهم من منطقة اللولو في جبال زاغروس, وهجر في عام آخر عدداً كبيراً من منطقة العبرانيين إلى آشور, وروت نصوصه أنه هجر بأمره أكثر من مئة ألف من أنصار المتنافسين على عرش بابل,وكثيراً ما كانت تماثيل الآلهة تهجر مع الشعوب أو تسبى إلى آشور باعتبار أنها تخلت عن نصرة شعوبها أو باعتبارها أسرى حرب, وقد كان لهذه الممارسات سوابق منذ عهد حمورابي.[69]

وقد كان لسياسة التهجير هذه أهداف متعددة, فهي من جهة تسعى إلى تشريد الخطرين على الاستقرار وتسعى في تهجيرها للأيدي العاملة الوقوف في إمكانية قيام تلك البلدان مرة أخرى.

---

[68] الشرق الأدنى القديم.

[69] المصدر نفسه

كما تسعى لوضع أقليات مستضعفة تعتمد في حمايتها على الحماية الآشورية, عدا عن استعبادهم لكثير من الناس ونقلهم إلى آشور لاستعمالهم في الخدمة بشكل مباشر, وتسخيرهم في أعمال البناء أو الحرب, ومن جهة أخرى سعوا إلى توطين الآشوريين في بعض المدن ليصبحوا سادة منتفعين بخيراتها أو عيوناً للقصر على أي تحركات ثورية مريبة

ورغم هذا فقد كانت الإمبراطورية الآشورية من أشهر الإمبراطوريات القديمة, فهي الأولى التي جمعت السيطرة على بلاد الرافدين والشام ومصر, حتى لو كانت هذه السيطرة لفترة قصيرة, وقد ساهمت بذلك في تلاقح الثقافات والتمهيد لإمبراطوريات أكبر, وأدخلت إلى بلاد الرافدين لأول مرة زراعة القطن والزيتون.



الآراميون (الكلدان) :

ظهر اسم (آرام) في التاريخ منذ القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد, كما ورد ذكرهم في وثائق ماري وأوجاريت منذ الألف الثاني قبل الميلاد, وفي الوثائق الآشورية في القرن الرابع عشر عندما تحدث الملك الآشوري (أريك-دين ايلو) (1306-1317 ق.م) عن انتصاره على الآراميين, وما ذكره (تيجلات-بليسر الأول (1074-1120 ق.م) عن الآراميين الأخلامو الذين جاؤوا من الصحراء ونشروا الفوضى في البلاد[70].

ويبدو أن هذه القبائل السامية استغلت فرص ضعف الدول في بلاد الرافدين فاستغلتها للتقدم, فانتشرت في كثير من مناطق الهلال الخصيب مابين القرنين الرابع عشر والثاني عشر قبل الميلاد, وأقامت عدة مشيخات وإمارات منفصلة بأسماء مثل (بيت فلان) فيما يبدو حسب أسماء الشيوخ الحكام.

وقد كان هؤلاء القوم في بداية عهدهم يؤثرون النظام القبلي البدوي في إدارة شؤونهم, لكنهم بعد أن اختلطوا بالحضارات القائمة قبلهم بدأت قبائلهم بالاستقرار, فانتشرت قبائل السوخي على جوانب الفرات, وقبائل اللاكي جنوب جبل سنجار, في حين

[70] دراسات في تاريخ الشرق القديم

امتدت بعض القبائل حتى وصلت إلى شواطئ دجلة, فبدئوا بتهديد الدولة الأشورية.

استمرت هجرات الآراميون, وذكرتهم النصوص الآشورية بأسماء مثل (الأخلامو) و (السوتو) التي قد يكون معناها يشير إلى البدو, وقد كان تفرق الآراميون في إمارات منفصلة أمر مشجع للآشوريين لهزيمتهم.

وقد انتشر الآراميون في بابل وتغلغلوا فيها, وانتزاع الحكم من سلالة بابل الرابعة, حتى أن الملك الثالث بعد عهد نبوخذ نصر الأول والمسمى (أدو-أبا-ادن) (1067-1046 ق.م) كان من أصل آرامي[71]. وقد حاول البابليون استخدام الآراميين لمهاجمة الآشوريين, فكان أن اكتسح الملك الآشوري (ناصر بال الثاني) القبائل الآرامية الشمالية وذكرت نصوصه أنه هجر 1500 منهم من(بيت زاماني) قرب ديار بكر.

أقام الآراميون العديد من دول المدن, وكانت تدعى بأسماء من قبيل (آرام كذا) كأرام دمشق, وكان أشهرها (آرام-نهرايم) التي تعني آرام النهرين, وقد ورد ذكرها في التوراة, ولعل المقصود بالنهرين هما نهري الفرات ورافده الخابور, وقد سقطت هذه الدولة على يد الآشوريين في القرن التاسع عشر قبل الميلاد.

---

71 مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة

رغـم تعـدد إمـارات ودويـلات الآراميـين إلا أن أشــهرها علــى الإطلاق هـي الدولـة التـي قامـت فـي بابـل, وعرفت باسم العصـر البابلي الحديث أو باسم الدولة الكلدانية.

والكلدانيون ينتمون إلى قبيلة (كلدو) وهي إحدى القبائل الآرامية, والذين تسللوا إلى بابل منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد, حيث كانـت بابـل مدينـة تابعـة للآشـوريين, إلا أنـه لا تلبـث أن تسـتغل ظروف الضعف فتعلن الثورة بين الحين والآخر, وكان أن أعلنت الثورة أثناء حكم آخر الملوك الآشوريين, وهو الملك (سين شـار إشكين).

تـزعم (نبـو بولاصـر) الآرامـي ثـورة البـابليين علـى السـلطة الآشورية عام 627 ق.م, ويبدو أنه كان قبل ذلك حاكمـاً من قبل الآشوريين ثم أعلن عن نفسه ملكـاً علـى بابـل عـام 626 ق.م,وقد أدرك كـل مـن الكلـدانيين والميـديين (المـاذيين) أنهـم لا قبـل لهـم بمواجهة الآشوريين منفردين فكـان أن تحـالفوا وعززوا تحـالفهم بمصـاهرة العـائلتين الحـاكمتين , ثـم تقـدم الميـديون و حاصـروا عاصمة الآشوريين نينوى ودمروها وقتلوا ملكها عام 612 ق.م.

بعـد أن اسـتراح الكلـدان مـن سـيطرة الآشـوريين, طمـع (نبـو بولاصر) بحكم سوريا وفلسطين, ولكن كـان هنـاك من سبقه إلـى ذلك, وهو الفرعون المصري (نخاو) الذي كان يقود حملة ناجحـة

تبسط سيطرة مصر على بلاد الشام, فكان أن انتدب (نبو بولاصر) ولده وولي عهده الشهير (نبوخذ نصر) الذي قاد الحملة العسكرية عام 605 ق.م وواجه الفرعون في كركميش (جرابلس اليوم) وكان النصر حليفاً للكلدان فانسحب الفرعون, وفتحت الشام ذراعيها للفاتح الجديد, وتقدم حتى سيطر على كامل بلاد الشام بما في ذلك السيطرة على مملكة العبرانيين, هذه الحملة التي ما زال يتردد صداها في التوراة.

خلف (نبوخذ نصر) في الحكم ابنه المسمى (أميل-مردوخ) الذي لم يحكم سوى عامين, ولا نعرف عنه سوى ما ذكر عنه في التوراة من أنه عطف على الملك اليهودي الأسير في بابل (يهوياقين), وقد وجدت حديثاً ألواح تسجل الجرايات الخاصة باليهود في بابل كان بينها اسم (يائو-كينا) ولعله هو (يهوياقين) نفسه[72].

ساءت الأحوال الأقتصادية, فعمت بابل الثورة, ونصب الثوار على المدينة ملكاً اسمه (نبونيدس) الذي يبدو أنه أحد كبار رجال الدولة في عهد (نبوخذ نصر), فكان أولى المشاكل التي عليه أن يواجهها هي حل تلك الأزمة الأقتصادية, ومن اجل الحصول على موارد جديدة للدولة, فقد استخلف ابنه (بيلشاصر) على بابل

[72] مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة.

وقاد حملة إلى شمال الجزيرة العربية, فاستولى على (أدومو) وهي دومة الجندل اليوم, وكانت بيد حامية آشورية, ثم استمر في حملته واستولى على تيماء, حيث قتل أميرها واتخذها مركزاً له طوال عشر سنوات, ويبدو من النصوص المكتشفة في حران أنه بسط سيطرته إلى الجنوب أيضاً, فقد ورد اسم (يتريبو) ولعلها يثرب (المدينة), وورد أنه أقام هناك حاميات عسكرية وأسس مستوطنات أسكن فيها جماعات من بلاد الشام ومن بابل ولعل بينهم يهوداً من الأسر البابلي[73]

رغم أن الدولة الكلدانية الآرامية لم تدم طويلاً , إلا أنها كانت دولة مجيدة في التاريخ, وقد كانت آخر عهود العراق المستقل, حيث أصبح بعدها ولاية تابعة إلى إمبراطوريات عالمية جديدة.

ورغم أن الآراميون اعتمدوا على الحضارات التي سبقتهم إلا أن آثارهم الثقافية كانت هائلة, وخصوصاً لغتهم التي انتشرت في كل أرجاء الشرق, فأصبحت اللغة شبه الرسمية في الإمبراطورية الفارسية, وكانت اللغة التي يستعملها اليهود بعد السبي البابلي,ولغة التجارة واللغة التي يتحدث بها الناس في كل بلاد الشام, وهي اللغة التي تحدث بها المسيح عليه السلام, وكتبت بها

[73] مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة

الأناجيل, وقد اخذ بها العرب الشماليون الأنباط أيضاً والكتابة العربية الحديثة إنما هي متطورة عن الخط الآرامي.[74]

ب – بلاد الشام .

ليس من السهولة بمكان أن نفصل تاريخ ما يعرف اليوم ببلاد الشام أو سوريا عن تاريخ بلاد الرافدين, فالحدود بينهما غير واضحة المعالم, بالإضافة إلى أن تأثير الحضارات والدول التي قامت في بلاد الرافدين كان كبيراً جداً على مدن بلاد الشام.

ولعل الدارس لتاريخ بلاد الشام يلاحظ مباشرة أن هذه البلاد رغم أهمية موقعها الجغرافي الكبيرة إلا أنها لم تشهد ظهور إمبراطوريات عالمية كبيرة كما هو الحال في المناطق المجاورة لها. وقد يكون السبب في ذلك هو الموقع ذاته ! فهي من جهة تقع إلى جانب دول بلاد ما بين النهرين من الشرق التي كلما قامت فيها دولة قوية سعت إلى بسط نفوذها على بلاد الشام إلى البحر الكبير (المتوسط) وإلى جانب مصر من الجنوب كذلك خصوصاً بعد قيام الدولة الحديثة التي استمرت في التدخل بشؤون المدن السورية سواء بشكل مباشر أو غير مباشر, حتى غدا الفراعنة

---

[74] المصدر السابق

يجردون الجيوش ويبسطون سيطرتهم على أجزاء كبيرة من بلاد الشام خلال فترات قوتهم.

وإلـى جانـب الحيثيـين مـن الشـمال الـذين تـدخلوا بشـؤون المـدن السورية وخصوصا المدن الشمالية فيما بين حمص وحلب اليوم.

ومن جهة أخرى فإن الطبيعة الجغرافية للبلاد لم تساعد على قيـام مملكـة متحـدة, فالسلاسـل الجبليـة تكـاد تفصـل تمامـاً الأجـزاء الساحلية عن الأجزاء الداخليـة, ووجود أجزاء كبيـرة صـحراوية في الوسط, كل هذا أدى إلـى عدم إمكانيـة قيـام دولـة قويـة موحـدة في بلاد الشام.

وهكذا كانت بلاد الشام مسرحاً وممراً لغزاة الجنوب فـي طـريقهم إلى الشمال ولغزاة الشمال في طـريقهم إلـى الجنـوب, وخيـر مثـال يجسـد هـذا الأمـر هـو موقـع "نهـر الكلـب" فـي لبنـان اليـوم, وهـو الموقع الذي يحتوي على 22 نقشاً تخلد مرور الغزاة من رمسيس الثـاني المصـري مـروراً بأسـرحدون الأشـوري ونبوخـذ نصـر الكلداني وغيرهم الكثير حتى الوصول إلى زمن الجنرال غورو.

ومـن السـخرية أن هـذه المنطقـة نفسـها تعـيش اليـوم فـي أسـوأ عصورها حيث تتصارع على ساحتها قوى الشرق والغرب!

أخيراً فإن تأريخ سوريا يفتقد إلى وفرة المصادر التي شهدناها في بلاد النهرين, وقد يكون السبب في ذلك هو استخدام ورق البـردي

للكتابة, كما أن البحوث الأثرية مازالت في حاجة إلى مزيد من التنقيب لكشف تاريخ هذه البلاد بصورة أفضل.

الأموريين :

لا يعرف على وجه التحقيق الجنس الذي ينتمي إليه سكان سوريا قبل الفترة التاريخية, وهناك من يطلق عليهم "جنس الأسيانيين" أو من "جنس البحر المتوسط"[75] وهناك من يعتبرهم خليطاً من شعوب سامية وغير سامية نظراً لموقعها المتوسط وقياساً على الأحداث والشعوب التي سكنتها خلال المرحلة المعروفة لنا.

أما أولى الهجرات المعروفة لنا في بلاد الشام فقد كانت في الألف الثالث قبل الميلاد وهي هجرة الأموريين الساميين من مناطق ما في شبه الجزيرة العربية, وهي ذات الهجرة التي سبق أن أشرنا لها في حديثنا عن بلاد مابين النهرين, فقد أتى هؤلاء القوم واستقروا في وسط وشمال سوريا وأقاموا بعض الممالك التي اتخذوها قاعدة لهبوطهم إلى بلاد النهرين, حيث اكتسبت البلاد كاملة اسمهم فدعيت باسم بلاد أمورو إلى البحر المتوسط الذي دعي أيضا نسبة لهم باسم "بحر أمورو العظيم" .

---

[75] دراسات التاريخ

حينما جاء الأموريون إلى منطقة بلاد الشام كانوا عبارة عن جماعات بدوية متنقلة لا تعرف سكنى المدن ولا الزراعة كما كانت تصفهم نصوص السومريين, ولكن بعد أن استقروا في هذا الإقليم وأخذوا عن أهله أساليب الحضارة بدئوا بتأسيس دويلات قوية من أهمها تلك التي كانت في حوض الفرات الأوسط وعاصمتها "ماري"[76] ثم أخذوا ينتشرون إلى الشرق حتى خشيتهم مدن بلاد النهرين وبنت الجدار الذي دعي باسمهم (سور أمورو) لصد تقدمهم كما مر معنا.

يمثل استيطان الأموريين في بلاد الشام أولى الهجرات السامية الكبرى في هذه البلاد, وهي الهجرات السامية التي أطلق عليها الباحثون اسم الأقوام السامية الغربية تمييزاً لها عن السامية الشرقية التي تمثلها اللغة الأكدية وفروعها البابلية والأشورية.[77]

كان انتشار الأموريين ونفوذهم السياسي قد شمل مناطق مختلفة من الهلال الخصيب ولكن بعد منتصف الألف الثاني تركزت سيطرتهم بشكل خاص في النواحي الشمالية والوسطى من بلاد الشام. وقد انتشرت مدنهم وممالكهم وتعددت حتى بلغت حداً يستعصي على الحصر, فقد ورد وصف حالة التشرذم هذه في رسالة من حاكم منطقة تدعى "ناحور" إلى "زمري ليم" ملك

[76] معالم حضارات الشرق الأدنى القديم
[77] مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ج2

ماري قوله : (لا يوجد أحد من الملوك عنده قوة كافية من نفسه... هناك عشرة أو خمسة عشر ملكاً أتباع حمورابي ملك بابل... ومثل هذا العدد ممن يتبعون ريم سين ملك لارسا...ومثله ممن يتبعون إيبال-بي-إيل ملك إشنونا, ومثلهم يتبع إيموت-بي-إيل ملك قطنا... وعشرون يتبعون يريم ليم ملك يمحاد)[78]

وهكذا فكثرة ملوك المدن أدت إلى استمرار الضعف العام, وتسابق هؤلاء الملوك إلى كسب ود الملوك الأقوياء في الجوار من خلال التحالف معهم والخضوع لهم, وخصوصاً خلال فترة النزاع بين الإمبراطورية المصرية والإمبراطورية الحثية, فنجد الملك المدعو "عبدي – عشرتا" يتحالف من جهة مع ملك الحثيين ويبدأ بالتوسع على حساب ملوك المدن المتحالفين مع أخناتون, فقد أغتنم هذا الملك فترة ضعف الإمبراطورية المصرية, وبدأ يرسل لها التطمينات بأن توسعاته إنما هي في خدمة الفرعون, لذا لم تجد توسلات الملك الأخر "رب – عبدي" بأخناتون شيئاً لمساعدته, ورغم هذا بقي هذا التوسع محصوراً في منطقة محددة ولم يتحول إلى مملكة إقليمية.

وقد استمرت هذه الإمارات الأمورية في شمال ووسط سوريا قائمة حتى بعد اجتياح شعوب البحر لهم من جهة الشمال.

---

[78] سوريا القديمة

الكنعانيون (الفينيقيون) :

جاء الكنعانيون إلى بلاد الشام في هجرة واحدة مع الأموريين, لذا نجد أن هناك من يسمي الأموريين بالكنعانيين الشرقيين[79],على اعتبار أن الاختلاف الأساسي الذي نشأ بين الأموريين والكنعانيين هو أن كل منهم اتجه صوب جهة مختلفة في طبيعتها من البلاد واستوطن فيها, مما أدى مع تطاول السنين إلى تمايز كل منهم عن الآخر.

ومن الممكن أن الأموررين والكنعانيين ينتمون إلى قبيلة سامية واحدة, فالتشابه الجنسي واللغوي بينهما كبير جداً ويمكن عد اللغتين الأمورية والكنعانية لهجتين من فروع اللغات السامية الغربية,والاختلافات الموجودة بينهما يكون بذلك مرجعها إلى استيطان كل منهما قسم خاص به, فتركز الأموريين في شمال ووسط بلاد الشام أدى إلى تأثرهم الثقافي بحضارات بلاد مابين النهرين, وقد دخلت فيهم عناصر من الحوريين والسومريين.

أما الكنعانيون فإن استيطانهم في سواحل غرب وجنوب بلاد الشام أدى إلى تأثرهم بالحضارة المصرية, كما تأثروا بشعوب محلية أخرى.

---

[79] مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة

أختلف الباحثون في أصل تسمية الكنعانيون بهذا الاسم, فمنهم من ذهب إلى أنه مأخوذ من كلمة "كنع" أو "خنع" بمعنى المنخفض, وذلك لأنهم سكنوا الأراضي المنخفضة الواقعة خلف الجبال الساحلية, ومنهم من يرى أن أصل التسمية هندوأوروبي يعود إلى الكلمة الحورية "كناجي" بمعنى صبغة حمراء, ومنها اشتقت الكلمة الكلدانية "كناخي" أو "كنخي" التي حرفت إلى كنعان أي بلاد الأرجوان لشهرتها بهذه الصبغة, وهذا مقارب للفظ الذي أطلقه الإغريق على الكنعانيين وهو لفظ " الفينيقيين" Phoenicians التي تشير أيضا إلى اللون القرمزي الأرجواني[80]. ويبدو أن الرأي الأول هو الراجح, فلفظ الفينيقيين لم يستعمله إلا الإغريق فقد عرفتهم بلاد مابين النهرين ومصر والتوراة باسم الكنعانيين,بل أنهم هم نفسهم عرفوا أنفسهم بمسمى الكنعانيين, وهناك من الباحثين من يحاول ربط مسمى الفينيقيين بمسمى الحميريين, حيث يشترك اللفظين بمعنى اللون الأحمر, وعلى اعتبار أن الفينيقيين هاجروا من اليمن عن طريق الحجاز إلى بلاد الشام حيث استقروا واحتفظوا بمعنى الاسم دون لفظه,

[80] تاريخ وحضارة الفينيقيين

ولكن لا توجد دلائل تدعم هذا التفسير,كما أن اللفظ أطلق من قبل الإغريق وليس من قبل الكنعانيين أنفسهم.[81]

استخدم اسم بلاد كنعان في البداية للدلالة على الساحل والقسم الغربي من فلسطين ولكن عم استعماله لاحقاً حتى شمل كل فلسطين و قسماً كبيراً من سوريا, و أطلقت التوراة لفظ كنعاني على جميع سكان فلسطين بلا تمييز عرقي, وتدل أسماء العديد من المدن في فلسطين ولبنان اليوم على قدم استيطان الكنعانيين هذه المنطقة, حيث يعود أصل أسماء مثل: أريحا, بيسان, مجدو, عكا, صور, صيدا, جبيل ...إلى الكنعانيين.[82]

وهنا يجب أن نذكر أن التوراة تنسب الكنعانيون إلى ولد حام على خلاف مع المؤرخين الذين يتفقون على أن الكنعانيون من الساميين, ويبدو أن كتبة التوراة كانوا متحيزين جداً في تقسيمهم لسكان العالم بين أولاد نوح فقد استبعدوا الكنعانيين من الساميين وصبوا عليهم اللعنات الأبدية, في حين نسبوا إلى الساميين من هم من غير الساميين كالعيلاميين, فقد ورد في سفر التكوين الإصحاح التاسع :

وكانَ بَنو نُوحٍ الّذينَ خرَجوا مِنَ السَّفينةِ ساماً وحاماً ويافَثَ
وحَامٌ هوَ أبو كنعانَ .١٩ هؤلاءِ الثَّلاثةُ هُم بَنو نُوحٍ
وَمِنهُم انتشَرَ كلُّ سُكَّانِ الأرضِ.

---

[81] المصدر السابق

[82] مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ج2

٢٠ وَكانَ نُوحٌ أوَّلَ فلاَّحٍ غرسَ كرْماً
.٢١ وشربَ نُوحٌ مِنَ الخمرِ، فسَكِرَ وتَعَرَّى في خَيمَتِه
٢٢ فرأى حامٌ أبو كنعانَ عَورَةَ أبيهِ، فأخبَرَ أخَويهِ وهُما خارِجاً
٢٣ فأخَذَ سامٌ ويافَثُ ثوباً وألقَياهُ على
أكتافِهِما .ومَشيا إلى الوراءِ لِيَستُرا عَورَة أبيهِما،
وكانَ وجهاهُما إلى الخَلْفِ، فما أبصَرا عَورَةَ أبيهِما.
٢٤ فلمَّا أفاقَ نُوحٌ مِنْ سُكْرِهِ عَلِمَ بِما فعَلَ بِهِ ابنُهُ الصغير
فقال : مَلعونٌ كنعانُ !عبداً ذليلاً يكونُ لإخوَتِهِ ٢٥ وقالَ
تَبارك الرّبُّ إلهُ سامٍ، ويكونُ كنعانُ عبداً لِسامٍ ٢٦
.٢٧ ويَزيدُ اللهُ يافَثَ، فيسكُنُ في خيامِ سامٍ ويكونُ كنعانُ عبداً لهُ

وهنا واضح أن المقصود هو كنعان, فالذي فعل الخطيئة هو حام, ولكن اللعنة تنزل على ولده كنعان فقط, كما أنها تجعل من كنعان عبداً ذليلاً لنسل سام ويافث أيضاً ! ولا يمكن بأي حال عزل هذا التصنيف عن الظروف التاريخية, ويرى بروكلمن أن العبرانيين قد استبعدوا الكنعانيين من جدول أنساب سام لأسباب دينية وسياسية مع أنهم يعلمون ما بينهم وبين الكنعانيين من صلات عنصرية ولغوية.[83]

يفتتح هيرودوت تاريخه بالقول : (يزعم الفرس وهم أخبر الناس بالتاريخ أن الفينيقيين كانوا المبادرين في المنازعة,فهؤلاء القوم الذي مهدهم في القديم شواطئ البحر الأرثيري (المحيط الهندي والخليج العربي) ثم هاجروا إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط

[83] تاريخ وحضارة الفينيقيين

ليستقروا في البلاد التي يسكنونها الآن,شرعوا حالما استقرت أحوالهم, على ما يقولون, في خوض الرحلات البحرية الطويلة, للمتاجرة بما كانت سفنهم تحمله من بضائع وسلع مصر وآشور) [84] ثم يروي قصة خطف البحارة الفينيقيين لآيو ابنة الملك ايناكوس ثم ابتدأ النزاع ورد الإغريق من كريت بخطف ابنة ملك صور.

ومن هذا القول يتضح أن الكنعانيين كانوا يتمتعون بشهرة كبيرة في الشرق و الغرب, وهذا الأمر يرجع إلى مهارتهم البحرية, التي يعتقد بعض الباحثين أنهم كانوا على دراية بها حتى قبل وصولهم إلى بلاد الشام على اعتبار أنهم سكنوا شواطئ الخليج العربي حيث حذقوا بصناعة السفن والملاحة, في حين يرى آخرون أنهم إنما جاؤوا بدواً رحل واكتسبوا هذه المهارة إما من سكان سابقين أو من شعوب البحر التي جاءت بعدهم.

إن ما سبق وقلناه عن الظروف السياسية الإقليمية التي حالت دون قيام دولة كبرى للأموريين هي ذاتها التي حالت في وجه قيام دولة مشابهه للكنعانيين, ومع ذلك فقد ازدهرت المدن الكنعانية وخصوصاً في الفترة بين 1000-500 ق.م , فكان أول المدن المزدهرة هي مدينة صيدا, لذا نجد أن هوميروس يسمي الفينيقيين

[84] تاريخ هيرودوت

بالصيداويين[85] ,بالإضافة لمدن صور وجبيل (بيبلوس) وأرواد, وكان لكل مدينة أسطولها وعرشها المستقل[86].

وقد اشتهر الفينيقيين بمهارتهم في صناعة السفن والإبحار بها, حتى غدا اسمهم مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالبحر, كذلك برزوا في ممارسة التجارة, وكان لديهم صناع مهرة اشتهروا بصناعة الزجاج, حتى عد المؤرخون الكلاسيكيون أن الفينيقيون هم الذين اكتشفوا الزجاج, كما برعوا بتزيين الجدران بقطع الزجاج الملون أو ما يعرف بالفسيفساء[87].

حكم صور فيما بين (936-980 ق.م) الملك "حيرام" أو "أحيرام" وقد اشتهر هذا الملك بصداقته للنبي سليمان ملك أورشليم, وتقص علينا التوراة في سفر الملوك الأول كيف أرسل حيرام خشب الأرز والصناع المهرة لمساعدة سليمان في بناء الهيكل, كما أن العلاقات توثقت أكثر مع طول المدة فتزوج بعض ملوك اليهود من أميرات فينيقيات, فنجد "أخاب" ملك السامرة وقد تزوج من إيزابيل بنت أنبعل ملك الصيدونيين كما تزوج "يهورام" ملك يهوذا من ابنتها "عتليا" وقد عملت هاتان

---

85 موجز تاريخ الشرق الأدنى.
86 دراسات التاريخ
87 موجز تاريخ الشرق الأدنى

الأميرتـان علـى إدخـال عبـادة الآلهـة الكنعانيـة الوثنيـة إلـى ديانـة العبرانيين[88].



ناووس الملك أحيرام في متحف بيروت

يوجد عليه أحد أقدم النقوش بالحروف الهجائية

وقد استلزم نشـاط الكنعـانيين التجـاري أن يكـون لهـم تـواجـد فـي مختلـف الـدول التـي يتعـاملون معهـا, فنجـدهم وقـد تـواجـدوا فـي البداية في مصر منذ عهد الدولة الوسطى حيث عملوا في المنـاجم والمحـاجر المصرية, وقد احتفظت مناظر مقبرة "خنوم حوتب" بمشـهد قـدوم جماعـة مـن سـبعة وثلاثـين فـرداً بـين رجـال ونسـاء وأطفال هم على الأرجح من الكنعانيين, ليسكنوا في أماكن متفرقة

[88] تاريخ وحضارة الفينيقيين

شرق الدلتا, أما عن طريق البحر فقد كانت جبيل هي الميناء الرئيسي في العلاقات مع مصر فعن طريقها استورد الفراعنة أخشاب الأرز لبناء المعابد من جبال لبنان, وزيت الزيتون وغيره من السلع[89], كذلك فقد ذكر هيرودوت أن الفينيقيين قد استقروا في مصر عن مصبي فرعي رشيد ودمياط, وأقاموا في منف أيضاً حيث كان مستقرهم يسمى معسكر الصوريين, وكان لهم معبد خاص بهم للإلهة "عشتارت", وهذا يدل على أنهم لم يكونوا هناك بأعداد قليلة أو بصورة مؤقتة.

أما في توسع الكنعانيين فيما هو وراء مصر فقد كان عن طريق البحر, وقد كان توسعا تجارياً سلمياً كاد أن يشمل كافة أرجاء سواحل البحر الأبيض المتوسط, وقد سطر هؤلاء البحارة حكاية نشوء أول إمبراطورية تجارية عالمية, فقد امتد تواجدهم في كافة جزر البحر المتوسط وذلك ابتداء من قبرص حيث كان التبادل بينهم سائداً إلى درجة يصعب فيها التمييز بين ما هو كنعاني وما هو قبرصي, حيث كان لهم العديد من الوكالات كان أكبرها "كيتيون" كذلك تم الكشف عن آثار للكنعانيين في كيليكيا ورودوس وكريت بالإضافة إلى تواجدهم في مالطة وسردينيا.

---

[89] سوريا القديمة

أما صقلية فقد كانت بمثابة محطة خصوصاً في طريقهم إلى أعمدة هرقل "جبل طارق" حيث عبروا هذا المضيق ووصلوا إلى سواحل شبه الجزيرة الإيبيرية الغربية, بالإضافة إلى تواجدهم في مدن في شبه الجزيرة مثل برشلونة و قادس و قرطبة التي استولى عليها القرطاجنيون, وهناك من يرجح وصولهم إلى سواحل بريطانيا حيث جلبوا القصدير منها.

أما أشهر مواقع استيطان الكنعانيون فقد كانت في إفريقيا, حيث أسسوا مستوطنات كان أقدمها "عوتيقة" التي تعني المدينة العتيقة,وكذلك في بنزرت وسرت[90].

أما أشهر مدن استيطان الكنعانيين في التاريخ فقد كانت "قرطاجنة" والتي يعني اسمها "قريت حدشت" القرية الحديثة أو المدينة الحديثة, وقد أسسها الصوريون عام 814 ق.م, وتروي أسطورة إنشائها أن أميرة تدعى "إليسا" ابنة ملك مدينة صور قد هربت مع مناصريها من ظلم أخيها "بيجماليون" إلى صقلية ثم إلى تونس حيث اشترت منهم قطعة الأرض التي تأسست عليها مدينة قرطاجنة, واشتهرت الأميرة أيضا باسم أخر هو "ديدون" أي اللاجئة, وقد بقيت مدينة قرطاجنة تعتبر نفسها مدينة تابعة لصور طوال ثلاثة قرون تقريباً حتى بدأت مدينة صور تفقد

[90] دراسات التاريخ

أهميتهـا ويقـل شـأنها بسـبب سـيطرة البـابليين عليهـا, فأخـذ القرطاجنيون يتوسعون من أنفسهم وبنوا عدة مستوطنات وخلال بضـعة قـرون كـان الصـدام بـين مدينـة رومـا الصـاعدة ومدينـة قرطاجنة حتمياً, فابتدأت الحروب البونيـة[91] الأولـى ثم الحـروب البونية الثانية والثالثة التي انتهت في العام 146 ق.م بتدمير مدينة قرطاجنة وحرقها.

لم يكن انتشار الفينيقيون يقتصر على السواحل الجنوبية للبحر المتوسط بل كان لهم تأثير هام في السواحل الشمالية أيضاً خصوصاً لدى الإغريق, ومن يقرأ تاريخ هيرودوت يجد أن ذكرهم يتردد لديه كثيراً, نقتبس منه بعضها,كقوله:

" طـاليس الملطـي الـذي ينتمـي بأصـوله البعيـدة إلـى الفينيقيـين" ص110

"..رأيت هذه المناجم بنفسي وأروعها تلك التي اكتشفها الفينيقيون الذين كانوا مع ثاسوس واستوطنوا الجزيرة التي حملت اسمه منذ ذلك الحين" ص 426

"تعـود أسـرة جيفـراي بأصـولها بحسـب روايـتهم إلـى ارتيريـة ولكنني بحثت واستقصيت في هذه المسألة ووجدت أنهم كانوا من الفينيقيين حقاً, ويتحدرون من أولئك الذين قدموا مع "قدموس"

---

[91] ميز الرومان أهل قرطاجنة باسم البونيون Phoeni تمييزاً لهم عن الفينيقيين Phoenices

إلـى مـا يعـرف الآن باسـم بيوتيـه حيـث خصـوا بمنطقـة تانجـارا لستقروا فيها.

وبعد طرد القدموسيين على يد الآرجوس طرد الجيفراي علـى يـد البيوتيين فالتجأوا إلى أثينا, حيث تم قبلوهم فـي المجتمع بشـروط معينة, استثنتهم من بعض الامتيازات التـي لا مجـال هنـا لـذكرها, وقـد ادخـل الفينيقيـون الـذين جـاؤوا برفقـة قـدموس- ومـن بيـنهم الجيفيراي- إلى بلاد الإغريق, بعد استقرارهم في تلك البلاد عدداً من الفنون, أهمها الكتابة, وهي فن لم يكن, على ما أظـن, معروفـاً لـدى الإغريـق حتـى ذلـك الحـين, وفـي البدايـة اسـتخدموا الأبجديـة التـي يأخـذ بهـا سـائر الفينيقيـين, لكـن بمـرور الـزمن تحولـوا عـن لغتهم, وعن الطريقة التي يرسمون بها شكل الحـروف, وفـي تلـك الفترة كان معظم الإغريـق الـذين يسـكنون هذه المنـاطق أيـونيين, وقد درسوا هذه الحروف على يد الفينيقيين وأخذوا يستعملونها مع تعـديلات طفيفـة, وظلـوا يشـيرون إليهـا علـى أنهـا (الأبجديـة الفينيقية) ولقد أصاب القوم بهذه التسمية " ص 396

ويمثـل قـدموس الـذي يـذكره هيـرودوت عمـق أثـر الفينيقيـين بـالإغريق وبأوربـا كلها,بـل إن أسـم أوروبـا ذاتـه يعـود لهـذه الأسطورة, حيث يـروى أن "أوروبـا" ابنـة "آجنـور" ملـك صـور كانت تمشي قرب الساحل مع وصيفاتها, فأعجب الإلـه الإغريقـي

"زيوس" بها وأراد أن يخطفها, فتحول إلى ثور أليف واقترب منها حتى ركبت على ظهره, فاقتحم البحر وهرب بها إلى جزيرة كريت, فأرسل ملك صور ولده "قدموس" للبحث عن الابنة المخطوفة, فلم يجدها وأقام طويلاً بين ظهرانيي الإغريق, وعلمهم الحضارة والكتابة وإنشاء المدن والفلاحة وصهر المعادن, وبذلك فإن "قدموس" هذه الشخصية الأسطورية إنما ترمز إلى التأثير الشرقي على الثقافة الإغريقية البدائية[92].

ورغم أنه حتى الآن لا توجد دلائل على وجود حقيقي لقدموس إلا أننا نجد أن هناك من يشار لهم أنهم بقايا من قدم مع قدموس كما سبق مع هيرودوت, وكما أشار سترابو في الجغرافيا إلى تواجد بقايا من قدموا مع قدموس في جزيرة ارتيريا اليونانية[93] فالتأثير بذلك لم يكن غير مباشر, وإنما لابد وأنه كان هناك هجرات وانتقال لجماعات من الفينيقيين للاستيطان في اليونان.

مع تقدم الزمن لم يقتصر غزاة بلاد الشام على ملوك بلاد الرافدين ومصر, بل كان أن تقدم الملك الفارسي "قورش" بعد أن بسط سيطرته على بلاد الرافدين, وفي أثناء تمدد الفرس وغزوهم اليونان بدا للفينيقيين أن من مصلحته مساندة الفرس, فكانوا هم القوة الضاربة في الأسطول الفارسي في مواجهة الأسطول

[92] معجم الحضارات السامية
[93] مقدمة في تاريخ فلسطين

الإغريقي, وقد ذكرت المصادر الكلاسيكية حجم مشاركة الفينيقيين الكبيرة في غزوات الفرس المتتالية, ولكن تحالفهم هذا كان بناء على توافق المصالح, فعندما غزا قمبيز مصر, وكان أسطوله أيضاً يعتمد بشكل أساسي على الفينيقيين, كان من ضمن خططه أن يرسل هذا الأسطول للاستيلاء على مدينة قرطاجنة, لكن الفينيقيين رفضوا ذلك رفضاً قاطعاً, فقد كان من العار أن يقاتلون أبناء عمومتهم, ولم يجرؤ قمبيز على إجبارهم على ذلك لاعتماده عليهم, فكان أن تنازل عن هذه الفكرة.[94]

في عام 358 ق.م اتحدت الدويلات الفينيقية الأربع (أرواد وجبيل وصيدا وصور) واتخذت طرابلس عاصمة اتحادية لها تحت اسم (آثار) ولكن الإغريق عرفوها بالاسم الذي اشتهرت به, حيث دعوها (تريبوليس Tripolis) أي المدينة المثلثة أو المدن الثلاث, وفي عام 346 ق.م قام ملك صيدا بالثورة على الفرس وكان أن تقدم الفرس بجيوش جرارة لم يكن الملك قادراً على صدها, فهرب وترك المدينة التي لم تستلم, فقام الصيداويون بحرق السفن واعتصموا في المدينة, التي قام الجيش بحرقها هي

---

94 تاريخ هيرودوت.

وساكنيها, وقيل أن أكثر من أربعين ألفاً قد أكلتهم النيران, وقيل بل عاشوا وتم نقلهم إلى مدينة بابل[95]

كان الكنعانيون شعباً عنيداً قوياً قام ببناء إمبراطورية كبرى حول المتوسط رغم أنهم لم يكونوا بقوة إمبراطوريات الشرق القديم, فهم كما وصفهم "بلوتارك" اليوناني في القرن الميلادي الأول بالقول: شعب مملوء بالصرامة والمشاكسة, لا يتزعزع إذا ما صمم على شيء أو إذا قرر شيئاً, صارم حتى أنه يكره الملاطفة أو الشفقة [96], لذا نجدهم رغم ضعف قوتهم العسكرية لم يخضعوا للفرس دائماً, وقد وقفت صور في وجه الإسكندر الأكبر, وهو الفاتح الكبير, فاستعصت عليه حتى أنه وصل من أجل فتحها اليابسة بالبحر, وقد كانت قبل ذلك جزيرة قريبة من الشاطئ يفصلها الماء عن اليابسة.

والإرث الحضاري الذي تركه الكنعانيون مازال باقياً حتى اليوم, فأول أبجدية عرفت في العالم هي الأبجدية الأوغاريتية, وكما سبق فقد تتلمذ الإغريق على يدي الكنعانيون وتعلموا منهم الكتابة والحضارة, وقد كانوا قبل ذلك شعوباً بدائية, وهكذا كان للفينيقيون الفضل في إيجادهم حلقة الوصل بين ضفتي المتوسط.

---

95 تاريخ وحضارة الفينيقيين.
96 المصدر السابق

الآراميون :

سبق أن تحدثنا عن الآراميون عند حديثنا عن الهجرات في بلاد الرافدين, إلا أن هؤلاء القوم وإن كانوا قد استوطنوا في بلاد الرافدين وأقاموا أسر حاكمة مهمة, إلا أن استيطانهم امتد أيضاً حتى شمل أجزاء كبيرة من بلاد الشام.

فهجرة هؤلاء القوم تمثل الموجة السامية الثالثة, حيث كانوا يستوطنون فيما يبدو قبل قدومهم إلى بلاد الشام في بوادي الجزيرة الشمالية, وكانوا كالعادة في البداية يتسربون بين الحين والآخر إلى المناطق الشمالية في بلاد الرافدين والشام, وقد استوطنوا أخيرا في جهات الفرات الأوسط, حيث نمت لغتهم واكتسبوا هويتهم وثقافتهم الخاصة, وقد اقتبسوا من الأموريين والكنعانيين وممن جاورهم من حضارات بلاد الرافدين والحثيين, إلا أنهم حافظوا على لغتهم الخاصة بهم, التي هي فرع من اللغات السامية الشمالية الغربية.[97]

وقد ورد ذكرهم بأسماء مختلفة "كالسوتو" و "الأخلامو" والذي يعني الرفاق, ويبدو أن الأموريون هم من أطلق عليهم ها اللقب,وقد كانت مناطق انتشارهم فيما بين بلاد الرافدين حتى

[97] مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ج2

جبال لبنـان, ممـا أدى إلـى الصـدام بينـهم وبـين الآشـوريين, وكـان هؤلاء الآراميـون مـن القـوة بحيـث أن "تـيجلات بليسـر" هـاجمهم فيما لا يقل عن ثماني وعشرين حملة عسكرية, امتدت حتى تدمر وجبال لبنان.

ونراهم أيضاً يقاومون فيما بعد ذلك محـاولات العبـرانيين للتوسـع أثنـاء عهد شاؤل وداود (عليه السلام)[98] لأن تأسيس دويلاتـهم كـان يترافق مع تأسيس العبرانيين لـدولتهم فـي فلسـطين.[99]وكـان أشـهر دويلاتـهم في الشام "أرام دمشـق" التـي تأسسـت فـي أواخـر القـرن الحـادي عشـر ق.م, وقـد نمـت وفاقـت جميـع الـدويلات الآراميـة الأخرى, حيث امتدت حـدودها مـن اليرمـوك فـي الجنـوب وجبـال لبنان في الغرب حتى نـهر الفرات فـي الشـمال والشـرق, وقد كـان العداء مسـتفحلاً بـين أراميـي هـذه الدولـة وبـين العبـرانيين طـوال قرنين من الزمان[100].

لا يعـرف علـى وجـه التحديد معنـى اسـم الآراميين, ومـن المحتمـل أن كلمة "إرم" المذكورة في القرآن الكريم مشتقة من اسمهم[101].

شكلت هجرة الآراميين ضغطاً كبيراً على الآشوريين والأموريين والحثيين, إلا أن الكنعانيين لـم يتـأثروا بـهذه الـهجرة كثيـراً لوجـود

---

[98] سوريا القديمة

[99] معجم الحضارات السامية

[100] مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ج2

[101] المصدر السابق

سلاسل الجبال التي تفصل بينهم وبين هذه الأقوام القادمة من تلك البوادي ذاتها.

وكما سيطر الكنعانيون على تجارة البحر, سيطر الآراميون على التجارة البرية, وكما جاء الكنعانيون بالحروف الهجائية ونشروها في كافة أرجاء العالم القديم, جاء الآراميون بلغتهم التي بدأت تنتشر لتغطي أجزاء كبيرة من تلك المنطقة, فقد كانت الحروف الهجائية الكنعانية هي الجناحين الذين طارت بهما اللغة الآرامية.

العبرانيون :

تعتبر كتابة تاريخ العبرانيين (اليهود) من المشاكل الحقيقية لدى أي باحث في التاريخ, فحتى وقت قريب كانت التوراة هي المصدر الرئيسي لكتابة هذا التاريخ, ولكننا خلال القرن الماضي, تحصلنا من خلال البحوث في حضارات العالم القديم في كل من مصر والشام وبلاد الرافدين, على معلومات وضعتنا في معضلة مع الكتابة التاريخية المعتادة التي تستند على التوراة فقط.

فالتوراة كتاب ديني يتمحور حول "الشعب" اليهودي, وهي بذلك تقص علينا سيرة هذا الشعب بشكل درامي في كافة تقلباته بين

الانتصار والانكسار, وتصف لنا بسلاسل الأنساب الطويلة انتماء هذا الشعب وتقسيماته, بشكل تبدو من خلاله الأمور وكأنها رسمت بدقة, على عكس كل ما نعرفه عن أمور الشرق القديم.

أما لعين المؤرخ, فلا يبدو الشعب العبراني إلا أحد الشعوب السامية القديمة التي مرت علينا في سردنا لهجراتها وتقلباتها, و معاركها تارة واختلاطها ببعضها البعض تارة أخرى, إلا أن ما مميز الشعب اليهودي هو دمجه للهوية القومية بالدين, فلا يوجد فصل بين الدين والقومية, فالشعب هو شعب يهوه الوحيد, ويهوه اختار الشعب من بين كل شعوب الأرض ليعطيه الوعد الأبدي.

وقد أجلت الكتابة في هذا الجانب أكثر من مرة لأسباب متعددة, أولها ما سبق ذكره من تداخل الديني والتاريخي, وثانيها الاحتلال الصهيوني الحالي لفلسطين, مما يجعل البحث في هذا الجانب يستلزم محاولة أكثر مشقة لالتزام الموضوعية في بحث تاريخي بغض النظر عن أي ظرف سياسي حالي, وثالثها البحوث المربكة والمرتبكة التي ظهرت مؤخراً من قبل كمال الصليبي (التوراة جاءت من جزيرة العرب) وفاضل الربيعي (فلسطين المتخيلة) وغيرهم من بحوث تتحدى – بل تنسف – الرواية التقليدية عن وجود وانتشار هذا الشعب. لكن كان لابد رغم هذه

العوائق من أن نحاول قدر الإمكان الوصول إلى شيء من الوضوح في هذه الضبابية.

يصنف العبرانيون عموماً على نهم فرع من الشعوب السامية[102], ويبدأ التاريخ العبري المعتاد مع النبي إبراهيم عليه السلام, حيث ولد حوالي العام 1800 ق.م في مدينة أور جنوب بلاد الرافدين حسب الرواية الرسمية, ثم وبدون معرفة الأسباب الحقيقية نجد "تارح"[103] يهاجر مع قومه محاذياً نهر الفرات حتى وصل إلى مدينة حاران[104], واستقر هناك لبعض الوقت حتى تلقى الوحي الإلهي بالهجرة إلى الأرض الموعودة[105], وفعلاً فقد ارتحل من هناك وترك فيما يبدو بعض من أقاربه" كناحور" في حاران حيث بقي ذكرها يتردد في التوراة, كما أن إسحق عندما أراد

---

102 يقسم سفر التكوين أبناء حام فيخرج منهم الكنعانيون ويدخل فيهم الحيثيون ويبدو أن ذلك لأسباب سياسية بحتة بسبب العداء مع الكنعانيين.

103 " أخذ تارح أبرام ابنه ولوطاً بن هاران حفيده وساراي كنته امرأة أبرام ابنه, فخرج معهم من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان, فجاؤوا إلى حاران وأقاموا هناك وكان عمر تارح مئتين وخمس سنين, ومات تارح في حاران " تكوين 11: 31-32
يصرح القرآن أن خلاف إبراهيم وقومه كان دينياً حيث رفض عبادة آلهتهم وكذلك نجد اسم أب إبراهيم "آزر" , وفي سفر التكوين هنا نجد أن الوجهه كانت منذ البداية إلى أرض كنعان حتى قبل أن يوحى إلى إبراهيم بذلك في حاران !

104 يستغرب بعض الباحثين خط سير النبي إبراهيم , فيما يحاول البعض القول أن حاران الواردة في التوراة ما هي إلا حوران التي في جنوب سوريا اليوم.

105 "وقال الرب لأبرام: ارحل من أرضك وعشيرتك وبيت أبيك إلى الأرض التي أريك, فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة, وأبارك مباركيك وألعن لاعنيك ويتبارك بك جميع عشائر الأرض,فرحل أبرام كما قال له الرب, وذهب معه لوطاً وكان أبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران, وأخذ أبرام ساراي امرأته ولوطاً ابن أخيه وكل ما كان يمتلكه هو ولوط والعبيد الذين حصلا عليهم في حاران, خرجوا جميعاً قاصدين أرض كنعان" تكوين 12: 1-5

الزواج أمر إبراهيم كبير خدم بيته بأن يذهب إلى حاران حيث سيجد زوجة صالحة من أقاربه هناك, وكذلك فعل يعقوب عندما هرب من عيسو[106]. على عكس أور التي رغم أنها الوطن الأصلي فقد اختفى ذكرها تماماً, وعندما يتم الحديث في البدايات عن أرض الموطن والعشيرة فإنما المقصود بها حاران !

ويبدو أن أرض كنعان الخصبة التي تفيض لبناً وعسلاً كما يصفها العهد القديم كانت مستعمرة من شعوب قديمة بطبيعة الحال, فاستمر إبراهيم في رحلته "عندما كان الكنعانيون في الأرض... أخذ يرتحل جنوباً إلى صحراء النقب", " وكان جوع في أرض كنعان, فنزل أبرام إلى مصر ليتغرب هناك لأن الجوع كان شديداً"[107] ثم نجده يعود من مصر غنياً كثير الماشية مما اضطر لوط لفراقه ليستقر في شرق الأردن وليسكن إبراهيم غرب الأردن, كان هذا التحول في الحال بسبب حكاية لا يجدر بنا ذكرها. ويبدو أن علاقة العبرانيين مع جيرانهم كانت متذبذة فقد تعرض لوط للآسر ولم ينقذه إلا تدخل إبراهيم وعبيده بالقوة[108], فيما نجد أن ملكي صادق يرحب بإبراهيم ويباركه.

---

[106] كانت زوجات عيسو من الكنعانيين.

[107] تكوين 12:10

[108] " فلما سمع أبرام أن ابن أخيه في الآسر, جمع مواليه المولودين في بيته وعددهم ثلاث مئة وثمانية عشر ..." تكوين 15

ويبدو أن إبراهيم عليه السلام شعر بالضيق لأنه لم يولد له ذرية وقد تقدم بالعمر, فشكا إلى الله همه, وأن وارثه سيكون "أليعازر الدمشقي" فوعده الله بأنه هو الذي أخرجه من أرض الكلدانيين وسيجعل نسله بعدد نجوم السماء ولكنهم "سيكونون غرباء في أرض غير أرضهم"[109]

فولد لإبراهيم في البداية ابنه إسماعيل من هاجر المصرية, وفيما بعد ولد له يعقوب من سارة, ثم أخذ إسماعيل وأمه وتركهم بواد غير ذي زرع حتى ليكاد يختفي ذكرهم من التاريخ العبري تماماً بعد هذه الحادثة وكأنهم ليسوا من نسل إبراهيم.

وفي يعقوب الذي دعي إسرائيل لسبب غير واضح تكون البداية الحقيقية للأسباط الأثني عشر الذين عرفوا بالتاريخ ببني إسرائيل. وهنا أمر لابد من إيضاحه فقد تتداخل التسميات الثلاث ذات المدلول المتقارب, وهي : العبرانيين – بني إسرائيل – اليهود, فأما الأولى فهي الأقدم والتي نرى أنها الأجدر بالاستعمال والأكثر دقة والأكثر شمولية, ولا يعرف على وجه الدقة سبب هذه التسمية وأي عبور يقصد به, فهل هو عبور نهر الفرات أم

---

[109] تكوين 15 : 14

هو عبور نهر الأردن أم هو عبور البحر الأحمر[110], أما الثانية فقد بينا معناها المحدد بأبناء يعقوب عليه السلام, وأما الأخيرة فهي متأخرة جداً لما بعد سقوط المملكة الشمالية عندما ساد سبط يهوذا على الأسباط التي اختفت.

ونحن سنستعمل التسمية الأولى على اعتبار أنها لا تشمل أبناء يعقوب فقط, ولا أبناء إبراهيم فقط بل تشمل كل من انضم إليهم ومن قدم معهم أو دخل في العهد معهم[111].

توفيت سارة وحزن عليها إبراهيم وعندما أراد دفنها قال للحثيين الذين كان بينهم :" أنا غريب ونزيل بينكم دعوني أملك قبراً عندكم لأدفن فيه ميتي من أمامي, فأجابه بنو حث: اسمع لنا يا سيدي, الله جعلك رفيع المقام فيما بيننا, فادفن ميتك في أفضل قبورنا, لا أحد منا يمنع قبره عنك لتدفن فيه ميتك"[112] فاختار إبراهيم أرض معينة واشتراها فكانت هي المدفن العائلي وهي المعروفة حتى اليوم باسم مغارة المكفيلة, ولعل هذه المغارة

---

110 يربط البعض كلمة عبري بكلمة "خابيرو" التي ترد في بعض نصوص استنجاد بعض الأمراء في فلسطين بالمصريين لنجدتهم من غزوات هؤلاء في نفس فترة ظهور العبرانيين.

111 " وقال الله لإبراهيم : أحفظ عهدي, أنت ونسلك من بعدك جيلاً بعد جيل, وهذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك, أن يختن كل ذكر منكم, فتختنون الغلفة من أبدانكم ويكون ذلك علامة عهد بيني وبينكم, كل ذكر منكم ابن ثمانية أيام تختتونه مدى أجيالكم, ومنهم المولودون في بيوتكم أو المقتنون بمال وهم غرباء عن نسلكم, فيختن المولودون في بيوتكم والمقتنون بمالكم ليكون عهدي في أبدانكم عهداً مؤبداً, وأي ذكر لا يختن يقطع من شعبه لأنه نقض عهدي" تكوين 17: 9-14

112 تكوين : 23

والأرض المحيطة بها هي أول قطعة من الأرض يمتلكها أحد من هؤلاء الغرباء القادمين من أرض غريبة. ثم توفي إبراهيم ودفن كذلك إلى جانب زوجته في نفس المغارة.

ولد لاحقا لإسحق يعقوب وعيسو, وبسبب خلاف ما هرب يعقوب من وجه عيسو إلى حاران حيث قضى عدة سنوات وعاد بعد أن اشتد الخلاف بينه وبين أقاربه حيث تزوج هناك وكثر ماله. وبعد عودته تروى حكاية عن تزويج ابنته دينه إلى أحد أمراء الكنعانيين بعد اشتراط أبناء يعقوب عليهم أن يختتن جميع الذكور ثم يتم قتلهم لاحقاً, ويبدو لي من هذا أن جماعة العبرانيين وكما ورد في نص العهد السابق في سفر التكوين لم تكن جماعة مغلقة, بل كانت مفتوحة لانضمام عناصر خارجية في هذا العهد.

ولد ليعقوب الأبناء الأثني عشر ومنهم يوسف الذي باعه إخوانه إلى قافلة من "الإسماعيليين"[113] حيث أصبح هناك وزيراً لفرعون, وحدث جوع في أرض كنعان فلم يكن لهم ملجأ كالعادة إلا أرض نيل الخير مصر, فتوجه أبناء يعقوب مثل غيرهم إلى مصر ليجلبوا منها ما يقيم صلبهم وكما هي القصة الشهيرة

[113] ترد هذه التسمية في العهد القديم وهي توحي بان الإسماعيليين لم يكونوا قلة رغم قرب العهد بإسماعيل !

تعرف عليهم ثم هاجروا جميعاً إلى أرض مصر[114] وبقوا هناك في منطقة شرق الدلتا, ولا ندري مدى تداخلهم مع المصريين, فبعض النصوص توحي بانعزالهم وبعضها الآخر توحي بوجود نوع من التعايش, فيرد ذكر رجل أمه إسرائيلية وأبوه مصري[115] كذلك فقد ذكر أن يوسف تزوج ابنة كاهن أمون, كذلك يذكر أن كلاً من يعقوب ويوسف قد تم تحنيطهم على طريقة المصريين.

استمر حال العبرانيين كذلك حتى تولى الحكم فرعوناً " لم يعرف يوسف"[116] فاضطهدهم فأرسل الله لهم موسى نبياً لينقذهم مما هم فيه[117], وكذلك كان, فخرجوا من مصر وبقوا يتنقلون في أنحاء صحراء سيناء لمدة أربعين سنة.

---

[114] "وقال يوسف لإخوته ولأهل بيت أبيه: أنا ذاهب إلى فرعون لأقول له: إخوتي وأهل بيت أبي الذين كانوا في أرض كنعان جاؤوا إلي, وهم رعاة غنم وأصحاب ماشية وأتوا بغنمهم وبقرهم وجميع ماهو لهم, فإذا استدعاكم فرعون وقال لكم : ما حرفتكم؟ فقولوا كنا يا سيدي أصحاب ماشية من صغرنا إلى الآن نحن وأباؤنا جميعاً, وهكذا يمكنكم أن تقيموا بأرض جاسان لأن كل راعي غنم ممقوت عند المصريين" تكوين 46:31-34
ولا ندري حقيقة هل هذا العداء كان بسبب معاناة المصريين من دخول الرعاة الهكسوس أم أنه العداء الأبدي بين الرعاة والمزارعين. يرجح طه باقر أن دخولهم كان في زمن الهكسوس وأن اضطهادهم بدأ في عهد رمسيس الثاني بعد خروج الهكسوس من مصر, وقد يكون ذلك صحيحاً إذا تحالفوا مع الهكسوس لذا نجد في سفر الخروج قولاً منسوباً لفرعون: "تعالوا نحكم القبضة عليهم لئلا يكثروا,فإذا وقعت حرب ينضمون إلى خصومنا ويحاربوننا ويسيطرون على أرضنا" خروج 1

[115] سفر اللاويين 24:10

[116] سفر الخروج

[117] " فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين وأخرجهم من تلك الأرض إلى أرض رحبة تدر لبناً وعسلاً , إلى موطن الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين" خروج 3:8

ولا يفوتنا هنا أن ننبه أن الباحثين لم يعثروا حتى الآن في المدونات المصرية ما يدل على دخول العبرانيين إلى مصر أو استيطانهم فيها واضطهادهم وخروجهم منها, لذا ينكر بعضهم هذه الأحداث جملة وتفصيلاً, وإن أول ذكر وجد حتى الآن في تلك الآثار هو كلمة " إسرائيل" عند حديث الفرعون "منفتاح" في مسلة تسرد انتصاراته حوالي العام 1220 ق.م حيث يصرح بأنه دمر إسرائيل بشكل كامل ولم يعد لها وجود[118].

بعد أن خرج العبرانيون مع موسى إلى سيناء, ولا يعرف على وجه الدقة الطريق الذي سلكوه في تنقلاتهم,ويروى في سفر الخروج أن عدد الرجال منهم فقط عدا عن النساء والأطفال كان ست مئة ألف ![119] وهو عدد ضخم جداً ومن غير المعقول أبداً أن يصل عددهم إلى هذا الرقم خلال الفترة التي قضوها في مصر.

وتعد الفترة التي قضاها العبرانيون في صحراء سيناء حاسمة في تاريخهم, فقد جاؤوا إليها بعد أن استوطنوا في أرض مصر واعتادوا الخضوع وممارسة الأعمال اليدوية كالزراعة في حين أنهم في سيناء تحولوا إلى بدو رحل يتنقلون في خيامهم, حتى

---

[118] ورد النص: " لقد غلب الملك وقالوا سلاماً, وخربت تحينو, وهدئت أرض الحيثيين, وانتهت كنعان وحلت بها كل الشرور, وخربت إسرائيل ولم يعد لأبنائها وجود, وأضحت فلسطين أرملة لمصر, وضمت كل البلاد وهدئت, وكل من كان ثائراً قيده الملك منفتاح"

[119] "ورحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت بنحو ست مئة ألف راجل ما عدا النساء والأطفال , وخرج أيضاً معهم كثير من الأغراب وغنم وبقر ومواش كثيرة... وكانت مدة إقامة بني إسرائيل بمصر أربع مئة وثلاثين سنة " خروج 12

أنهم نصبوا قرب منازلهم "خيمة للرب" يأخذونها معهم حيثما ارتحلوا, وفي سيناء تلقى موسى الوصايا العشر وكثير من فروض التضحيات والشرائع, وفيها أيضا عبدوا العجل الذهبي, ويبدو أنهم انقسموا فيما بينهم إلى درجة الاقتتال[120].

ثم وبعد انتهاء سنوات التيه,وبعد أن شاخ موسى وظهرت أجيال شابة جديدة تتوق لدخول الأرض التي خرجوا منها إلى مصر, بدئوا بالتقدم بعد أن أرسل موسى جواسيس ليستطلعوا حال الأرض التي يريدون دخولها, لكن هؤلاء الجواسيس عادوا بمعلومات مثبطة, فقالوا أن المدن هناك حصينة والشعوب قوية ومقاتلة[121], فكان جوابهم هذا صادماً ما جعل الشعب يبكي ويتذمر من موسى وهارون, فما الذي أخرجنا من مصر إن كنا سنتعرض للإذلال والقتل هنا أيضاَ, لقد أوذينا من قبل أن تأتوننا ومن بعد ما جئتمونا.

---

120 سفر الخروج 32

121 " ثم كلم الرب موسى قائلاً: أرسل رجالاً ليتجسسوا أرض كنعان التي أنا معطيها لبني إسرائيل ...فصعدوا وتجسسوا الأرض... وقالوا : قد ذهبنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها وحقاً إنها تفيض لبناً وعسلاً, وهذا ثمرها, غير أن الشعب الساكن في الأرض معتز, والمدن حصينة عظيمة جداً, وأيضا قد رأينا بني عناق هناك, العمالقة ساكنون في أرض الجنوب والحثيون واليبوسيون والأموريون ساكنون في الجبل, والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب الأردن " العدد 13

فأرسل موسى في البداية إلى ملك أدوم يطلب منه أن يسمح لهم بالمرور من أراضيه فقط, ولكنه رفض ذلك رفضاً قاطعاً[122], فاضطروا للدوران حول مملكة أدوم, وهناك مات هارون, ولما اقتربوا من مملكة " عيراد" حاربوهم وسبوا العديد منهم, وكذلك فعل سيحون وعوج الأموريين, لكن التوراة تروي أنهم هزموا أمام العبرانيين المتعطشين الذين لا يرون خلفهم إلا الصحراء.

وهناك بدئوا بالتقدم شمالاً حيث وجدوا أقاربهم من قوم لوط الذين لم يخرجوا إلى مصر, ويبدوا أنهم بدئوا في شرق الأردن بالاختلاط بالأقوام الساكنة هناك, فنجد التوراة تنعي عليهم تزاوجهم مع بنات موآب وعبادتهم لآلهتها [123], وهناك بعد أن اجتاحوا تلك الممالك الصغيرة, توفي موسى وخلفه يشوع في قيادة العبرانيين.

كان يشوع قائداً عسكرياً, فبدأ مباشرة بالتحضير لعبور النهر بمن معه من العبرانيين, وأمهلهم ثلاثة أيام للتحضير للدخول بجميع من معه بعد أن أعطى مناطق من شرق الأردن لكل من بني

---

[122] " وأرسل موسى رسلاً من قادش إلى ملك أدوم (هكذا يقول أخوك إسرائيل : قد عرفت كل المشقة التي أصابتنا...دعنا نمر في أرضك, لا نمر في حقل ولا في كرم ولا نشرب ماء بئر , في طريق الملك نمشي لا نميل يميناً ولا يساراً حتى نتجاوز تخومك, فقال له أدوم: لا تمر بي لئلا أخرج للقائك بالسيف" العدد 20

[123] العدد 25

رأوبين وبني جاد ونصف عشيرة منسى, إلا أنه طلب من الرجال من هذه القبائل مساعدته في غزو غرب الأردن[124]

فكانت أول المدن التي تواجههم بعد عبور النهر هي مدينة أريحا, فكان أن أرسل جواسيس في البداية ثم اجتاحوها عسكرياً حيث يروى أن تهدم بعض أسوارها إما بخيانة داخلية أو في منطقة ضعيفة فكانت بذلك أولى المدن التي تسقط في أيدي هؤلاء الغزاة.ثم أرسل يشوع قوة ليست كبيرة لغزو مدينة عاي, وقد كلفهم هذا الاستخفاف هزيمة منكرة, إلا أن العبرانيين تمكنوا من إسقاط عاي بعد أن وضعوا كل قوتهم العسكرية في مواجهة هذه المدينة الصغيرة وقتلوا جميع من فيها من رجال ونساء[125]

خاف سكان بعض المدن القريبة من عاي فتحالفوا مع العبرانيين, إلا أن بعض الملوك الأقوياء لما سمعوا بقدوم هؤلاء القوم قاموا بعقد تحالف مضاد, " فاجتمع ملوك الأموريين الخمسة وهم ملك أورشليم وملك حبرون وملك يرموت وملك لخيش وملك عجلون وتقدموا بجيوشهم وأحاطوا بجبعون وهاجموها"[126] فاستنجد هؤلاء بحليفهم يشوع وجنوده, فكان النصر حليفهم, وكان لتلك المعركة نتائج هامة حيث فتحت الأرض غرب الأردن كلها

---

[124] يشوع 1 :12-14

[125] " وكان عدد القتلى في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفاً وهم جميع أهل عاي" يشوع 8. وهذا الرقم مبالغ فيه كثيراً بدون شك

[126] يشوع 10

للاستيطان العبراني, حيث تقاسمت القبائل العبرانية الأرض على ضفتي النهر, و عاد المقاتلين من القبائل التي سكنت شرق الأردن إلى أراضيهم و بنوا لأنفسهم مذبح خاص مما زرع بذور الشقاق الأولى و أثار غضب بقية القبائل عليهم.

ولم تتمكن قبائل العبرانيون من إجلاء السكان السابقين[127] من الأرض كما قد يتبادر إلى الذهن, بل سكنوا بينهم و استعملوا كثير منهم في أعمال السخرة في المرحلة الأولى, لذا كانت وصية يشوع الأخيرة قبل موته هي أن لا يختلطوا بهذه الأمم وأن لا يحلفوا بآلهتهم ولا يسجدوا لها أو يعبدوها[128], لكن يشوع لم يترك خليفة قوي يجمع كلمة العبرانيين, كما أن الشعور بالخطر الذي كان له أثر كبير في توحيدهم قد بدأ يضعف بعد الاستقرار, لذا فقد تلا يشوع فترة عرفت في تاريخهم باسم عصر القضاة, وهي مرحلة لا يعرف على وجه التحديد كم امتدت فيقدرها البعض ما بين قرنين إلى أربع قرون أو أكثر. وهي فترة انتشرت فيها الفوضى على نطاق واسع, فنجد أن العبرانيين اختلطوا مع السكان السابقين اختلاطاً كبيراً ولم يسمعوا دائماً وصية يشوع على فراش الموت, فقد تزاوجوا بالشعوب الأخرى وعبدوا آلهتها وكثيراً ما انتصر عليهم ملوك غرباء وأخضعوهم

---

[127] القضاة 1 : 27-36

[128] يشوع 23

لحكمهم[129],حتى تراجعوا إلى المناطق الجبلية في بعض المراحل وسكنوا الكهوف والمغاور[130], ثم في مراحل أخرى يحكمهم بعض "القضاة" الذين ينادون بنبذ الآلهة الغريبة وعبادة يهوه وحده ويقودونهم في معاركهم ويحققون بعض الانتصارات كما في حرب دبورة وباراق مع الكنعانيين, وكما انتشر سبط دان بعيداً في الشمال في منطقة لايش[131].

و لم تكن حروب العبرانيين في هذه المرحلة مع الأقوام الغريبة فقط, بل كانت هناك حروب أهلية بين العبرانيين أنفسهم, فقد حدثت حرب بسبب التنافس على الأرض بين بني جاد وبين بني أفرايم شرق الأردن[132], وكذلك نجد الحديث عن تجمع القبائل كافة في مواجهة سبط بنيامين حتى كادوا يفنوهم عن بكرة أبيهم[133].

ويبدو أن هذه المرحلة الفوضوية في تاريخ العبرانيين جعلتهم يوقنون تماماً بضرورة المُلك, وهو أمر كانوا يفرون منه كثيراً ولا يحبذونه, وسيبقون على كراهيتهم للملك حتى مراحل متأخرة في عصر سليمان. فقد كان في نهاية عصر القضاة أن حكمهم

[129] تارة ينتصر عليهم الأراميين وتارة المديانيين وتارة الفلسطينيين
[130] القضاة 6
[131] القضاة 18
[132] العبرانيون وبني إسرائيل في العصور القديمة
[133] القضاة 20

قاض اسمه "صموئيل" وفي أثناء حكمه هزم العبرانيين من قبل الفلسطينيين و استحوذوا على تابوت العهد وبقي لديهم مدة سبعة أشهر حتى أعادوه سلمياً, وما حكاية شمشون ودليلة إلا تعبيراً عن تلك الحال, فلما رأى العبرانيون الحال التي وصلوا عليها من التشتت والهوان"وفي تلك الأيام لم يكن لإسرائيل ملك فكان كل رجل يعمل ما يشاء"[134] جاءوا إلى صموئيل وقالوا له : " اجعل لنا ملكاً يقضي لنا كسائر الشعوب" فعدد لهم مساوئ الملك بغية ثنيهم عن ذلك لكنهم أصروا على طلبهم, فتوج عليهم "شاؤل" فكان أول ملوك العبرانيين.

كانت المشكلة الأولى التي واجهها شاؤل هي تقدم الفلسطينيين عليهم بالسلاح فقد كانوا يصنعون أسلحتهم من الحديد وهو معدن لم يكن معروفاً للعبرانيين فكانوا يضطرون إلى أخذ أسلحتهم من الفلسطينيين [135], وفي تلك الأثناء التي كان يحاول شاؤل بها أن يثبت ملكه برز له منافس قوي هو داوود, ويبدو أنه كان في البداية أحد القادة لدى شاؤل لكن وبسبب تخوف كل منهما من الآخر فقد خاف داوود على نفسه ولجأ مع بعض مناصريه القلائل إلى مناطق سيطرة الفلسطينيين, وبقيت الحال هكذا حتى

[134] القضاة 17

[135] "ولم يكن في كل أرض إسرائيل حداد لأن الفلسسطينيين ما أرادوا أن يصنع العبرانيون سيفاً أو رمحاً, فكان على كل واحد من بني إسرائيل أن ينزل إلى الفلسطينيين ليحدد سكينته أو منجله أو فأسه أو معوله" صموئيل1 : 13

هزم جيش شاؤل هزيمة منكرة أمام الفلسطينيين فقتل في المعركة أو انتحر كما يروى, فملك عليهم داوود وبه بدأ عصر العبرانيين الذهبي القصير, فبعد أن رسخ دعائم ملكه من الداخل بدأ حروبه ففتح مدينة أورشليم وجلب تابوت العهد إليها لتكون عاصمة للملك, و بنا فيها قصر الملك, ويبدو أنه كان متحالفاً مع ممالك أخرى فقد أرسل له ملك صور معونة في بناء القصر, ويقال بأنه أحصى جميع العبرانيين فوجدهم 800 ألف رجل حامل للسلاح منهم 500 ألف من قبيلة يهوذا.

ورغم قوة حكم داوود إلا أنه واجه بعض الثورات الداخلية وقضى عليها, فكانت أولى هذه الثورات من ابنه أبشالوم, الذي بلغ من خطورة الوضع أن اضطر داوود إلى الهرب من أورشليم لتجميع قواته والعودة إليها[136] وبعد أن قضى على هذه الثورة اشتعلت ثورة أخرى, فقد نادى أحد رجال بني بنيامين اسمه "شبع" بالقبائل أن داوود يقرب أبناء سبطه فقط " ليس لنا قسم في داوود ولا نصيب في ابن يسى, كل رجل إلى خيمته يا إسرائيل"[137] فانحازت كل القبائل له ولم يبق مع داوود إلا سبط يهوذا, ولكنهم كانوا الأكثرية بطبيعة الحال فتغلبوا عليهم وتم القضاء على هذه الثورة أيضاً.

---

[136] يرى بعض الباحثين أنه لجأ إلى الجزيرة العربية

[137] صموئيل الثاني 20

خلف داوود على العرش ابنه سليمان الحكيم الذي بلغت في عهده المملكة ذروة مجدها, فأقام الهيكل الشهير بمساعدة من حيرام ملك صور ووضع فيه تابوت العهد, وقد كان عهد سليمان عهداً ذهبياً بما تعنيه الكلمة, وكان أكثر استقراراً من عهد والده فلم يشهد ثورات داخلية إلا ثورة صغيرة قام بها رجل يدعى يربعام ثم فر إلى مصر.

فلما توفي سليمان خلفه ابنه رحبعام, لكن انقساماً حاداً حدث آنذاك, ويبدو أن هذا الانقسام كانت بذوره قديمة, فلم يتبع رحبعام إلا سبطي يهوذا وبنيامين ومنهم تكونت المملكة الجنوبية التي عرفت باسم مملكة يهوذا منذ ذلك الحين, أما الأسباط العشر الأخرى فقد تجمعت فيما عرف باسم مملكة إسرائيل وعاصمتها السامرة, وتبع هذا الانقسام السياسي انقسام ديني فقد صنع البعض عجولاً ذهبية وعبدوها حتى لا يضطروا إلى الذهاب إلى أورشليم العاصمة الدينية ومنها بدأ الانقسام يزداد حدة وتعددت العبادات والفرق, فكان ذلك مؤذناً بالضعف والانحطاط فكان أول حدث هو غزو الفرعون الليبي شيشنق الذي دفع له العبرانيون كل كنوز سليمان وكل ما في الهيكل لكي يعود أدراجه.

أما المملكة الشمالية فقد كانت تحت تهديد أكبر فقد بدأت في ذلك الحين مملكة الآشوريين في عهد تجلات بلاسر بالتوسع وشكلت

تهديداً حقيقيا لمملكة إسرائيل, إلا أنه لم يأت الاجتياح الكامل إلا في عهد الملك الآشوري سرجون حوالي سنة 720 ق.م فقد اسقط هذه المملكة ودمرها تدميراً كاملاً وقام بسبي غالبية السكان إلى مناطق آشور وأسكن مكانهم أقوام أخرى جاء بهم من هناك.

ولم يكن حظ المملكة الجنوبية أفضل من حظ شقيقتها الشمالية ولكن كان ذلك بعد قرنين تقريباً حيث سقطت حوالي عام 590 ق.م على يد الملك البابلي نبوخذ نصر الذي سبى الملك يهوياكين وعشرة آلاف معه ثم عين على يهوذا ملك يدعى صدقيا وعاد أدراجه إلى بابل, إلا أن هذا الملك تمرد على البابليين بتحريض من فرعون مصر, فما كان من نبوخذ نصر إلا أن عاد وقتل أولاد صدقيا أمام عينيه ثم فقع عينيه وسباه إلى بابل هو وغالبية العبرانيين في يهوذا, وهذا هو الذي عرف بالتاريخ باسم السبي البابلي.

وصل العبرانيون إلى بابل وهي عاصمة العالم القديم آنذاك بسحرها وشهرتها فلم يلبثوا غرباء طويلاً بل اختلطوا مع الأقوام التي هناك ومنهم من استمر في الانتشار باتجاه الشرق والشمال إلى مناطق إيران وبحر قزوين[138], واستمروا على تلك الحال حتى عام 536 ق.م عندما اجتاح الملك الفارسي قورش الكبير

---

[138] سفر إستير 20

بابل, فاصدر مرسوماً يسمح لمن سبي من العبرانيين بالعودة إلى مناطقهم الأصلية, فلم يتحمس الكثير لهذه الفكرة خصوصاَ وأنهم استوطنوا وعملوا في عاصمة كبيرة كبابل, فقد ورد ذكر مصرف "أولاد مراشو" في نفر حوالي عام 400 ق.م وكان أصحابه على الأرجح عائلة يهودية, وكذلك ورد ذكر عائلة "بيت أيكبي" التي من المرجح أيضاً أن تكون عائلة يهودية[139]. هذا بالإضافة إلى أن أرض فلسطين كانت قد سكنت من أقوام أخرى, فلم يرجع وفق ما يروي عزرا الذي قادهم في مسيرة العودة سوى ما يقارب 30 ألفاً[140] , وفعلاً فهم عند وصولهم لم يجدوا ترحيباً من السكان هناك, بل إنهم كانوا يحملون أسلحتهم معهم وهم يبنون[141] إلا أنهم استمروا في التواجد إلى مرحلة متأخرة عندما بسط الرومان سيطرتهم على حوض المتوسط فثار العبرانيون عليهم فبطش بهم الرومان بطشة لم تبق في تلك البقعة منهم أحداً, فانتشروا وعادوا غرباء كما بدئوا .

---

139 مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة

140 عزرا 1

141 " ولما سمع سنبلط الحوروني وطوبيا العبد العموني وجشم العربي هزئوا بنا واحتقرونا " سفر نحميا

ج – مصر .

يعتبر تاريخ مصر أقل تقلباً على صعيد السكان, فقد كان شعبها متجانساً بشكل أكبر نسبياً, حيث لم تشهد هجرات ضخمة أو اجتياحات من شعوب وقبائل أخرى.فقد كانت أكثر هدوءاً رغم أن التاريخ كله لا يعرف الهدوء.

فكما سبق وأسلفنا فقد كانت أرض مصر خلال عصور ما قبل التاريخ سهوباً ثم أصبحت صحاري خلال العصور الدافئة باستثناء المناطق القريبة من نهر النيل, لكن وبسبب عنف تدفق النهر وكثرة الفيضانات وعدم انتظامها أدى إلى صعوبة الاستيطان البشري, فكان أكبر مراكز الاستيطان البشري في العصر الحجري الحديث على الطرف الغربي من دلتا النيل قرب ميريمدة (بني سلامة الحالية) حيث كان اعتماد السكان على الصيد في أول الأمر ثم الزراعة لاحقاً.[142]

أما المنطقة الأكثر خصوبة في مصر وهي الدلتا فقد كانت في العصور المتقدمة غير صالحة للاستيطان وذلك لأنها كانت في البداية أشبه ما تكون بخليج كبير يصب فيه نهر النيل, ثم أصبحت

---

[142] موجز تاريخ الشرق

بسبب الطمي الذي يحمله النهر أرض مليئة بالمستنقعات حتى قبيل العصور التاريخية, وقد لاحظ هيرودوت حداثة تكون الدلتا من خلال طبيعة تربة المنطقة,فقال ساخراً : "الدلتا هي أرض نشأت عن الطمي, ولم تظهر كأرض يابسة من الماء إذا جاز القول إلا في وقت متأخر, وإذا كانوا قوماً بلا موطن فعلام إذن يشغلون أنفسهم إلى هذا الحد بالنظرية التي تقول أنهم أعرق أقوام الأرض " [143]

ونحن لا نريد هنا الدخول في النقاش الطويل الدائر حول أقدم الحضارات بين الرافدين والنيل, لأنه نقاش ينتهي غالباً بلا نتيجة, لأن التاريخ لا يمكن قياسه بالمسطرة.

وقد وصف مانيتون[144] وهو المؤرخ المصري الأول إن صح التعبير الحضارة المصرية بأنها ولدت مع مولد الزمان, بل أنه حتى هيرودوت نفسه بعد أن يعدد الأجيال والملوك الذين حكموا مصر بناء على الرواية التي سمعها من الكهنة يقول أن ذلك يعني أن هذه الحضارة تعود إلى ما قبل أحد عشر ألف وثلاثمائة وأربعين سنة ! وهو رقم كبير جداً إلى درجة أنه غير معقول.

---

[143] تاريخ هيرودوت

[144] مؤرخ وكاهن مصري أثناء حكم بطليموس حوالي 280ق.م اشتهر بعمله الذي قسم به الأسر الحاكمة في مصر إلى ثلاثين أسرة حاكمة وهو التقسيم الذي تابعه به بقية المؤرخين.

أما حول نشوء الدولة المصرية فيبدو أنه بعد أن تم الاستيطان في الدلتا وفي مصر العليا, فقد بدأت تتكون دويلات مدن تحكم المدينة الصغيرة وما حولها, وقد وصل عدد هذه الدويلات التي تدعى بالمصرية بالسيباط إلى 42 دولة, حيث يحكم كل دولة منها أمير ولها إله خاص بها, إلى أن بدأت لاحقاً هذه الدويلات تتجمع وتتوحد مع بعض حتى نشأت الدولتان الكبيرتان وهما: دولة مصر العليا (جنوباً في وادي النيل) ورمزها الأفعى والتاج الأحمر, ودولة مصر السفلى (شمالاً في الدلتا)[145] ورمزها النحلة والتاج الأبيض, لذا نجد أن الملوك اللاحقين للمملكة الموحدة توجوا بالتاجين معاً.

وقد روى هيرودوت عن الكهنة أن أول ملك لمصر هو "مينا" الذي كانت البلاد في عهده كلها عدا المنطقة حول طيبة (الأقصر) في أيامه سبخة, فلا يظهر شيء من الأرض أسفل بحيرة مويريس[146], وينسب لمينا هذا أنه هو أول حاكم للمملكة الموحدة حيث كان ملك على المملكة الجنوبية قبل أن يوحد المملكتين حوالي عام 3000 ق.م , وهو من الناحية التاريخية غير معروف تماماً ويخلطه بعض الباحثين مع اسم آخر هو الملك "نعرمر" في حين يعتبره البعض الشخص نفسه.

---

[145] موجز تاريخ الشرق الأدنى
[146] بحيرة قارون في محافظة الفيوم

من الناحية السكانية يرى طه باقر أنه من الظاهر أن سكان المملكة الشمالية في الدلتا كانوا خليطاً من الساميين الذين هاجروا إلى مصر ما قبل التاريخ خلال الألف الرابع قبل الميلاد والليبيين, وأنها كانت أكثر تقدماً من الناحية الحضارية على المملكة الجنوبية, وهذا الاختلاف تسبب في عدم استقرار هذه الوحدة حيث ظل التنازع مستمراً فيما بين الجنوب والشمال[147].

أما في العصور التاريخية فتبدو لنا مصر بأهراماتها العظيمة وحضارتها المتقدمة وكأنها قد وجدت مرة واحدة, انبثقت من تحت رمال الصحراء أو هبطت من السماء, ورغم أن الأرض المصرية تحيط بها الصحاري والبحار من كل الجهات, إلا أن هذا الواقع لم يعزلها عن الحضارات المحيطة, بل على العكس تماماً فقد كانت على صلة وثيقة بآسيا عن طريق شبه جزيرة سيناء التي لم تشكل عائقاً أمام المهاجرين أو الغزاة, كما لم يشكل البحر المتوسط عقبة أمام التواصل مع أوروبا التي كانت في ذاك الحين ترى مصر وكأنها عالم سحري, كذلك فقد عمل نهر النيل

[147] مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة

والبحر الأحمر على تسهيل التواصل مع الجنوب وبالذات مع البلاد التي عرفت باسم بلاد بونت[148]

لذا فقد كانت العلاقات المصرية مع بلاد الشام وطيدة, فقد وجدت جاليات مصرية في "جبيل" التي كانت بمثابة الميناء التجاري مع مصر كما يدل وجود معبد مصري فيها[149].كذلك نجد عمق هذه العلاقات والاختلاط المتبادل بين المصريين وسكان بلاد الشام من خلال قصة "سنوهي" الذي هرب من مصر خوفاً من مؤامرة في قصر الملك, ويتضح من هذه القصة وجود العديد من المصريين في بلاد الشام, حتى أن سنوهي نفسه عندما كبر قرر العودة وترك أبناءه خلفه, كذلك من خلال قصة "ونأمون" الكاهن الذي أرسله الفرعون لشراء بعض الأخشاب, حيث تطوح به الحظوظ السيئة, وفي لقاءه بأمير تلك المنطقة وجد أن ساقي الملك كان مصرياً وكاتبه كذلك, وفي القصر مغنية مصرية, بل حتى الأمير نفسه كان يتحدث بالمصرية[150]. من جهة أخرى نجد من خلال النقوش السينائية أن بعض أهل بلاد الشام كانوا يعملون في مصر إما كأسرى أو كعمال بالأجرة[151] ويبدو أن عدد هؤلاء لم يكن قليلاً فقد استغل أمير سوري اسمه "إيرسو" حالة فوضى

---

148 قد تكون الصومال أو جيبوتي الحالية ويرى بعض الباحثين أنها اليمن.
149 مقدمة في تاريخ الحضارات
150 دراسات في تاريخ الشرق القديم.
151 المصدر نفسه

كانت تمر بها البلاد ومن خلال الاعتماد على العبيد والمرتزقة من أصل آسيوي حتى تمكن من السيطرة على العرش المصري لبعض الوقت.

كذلك من الجهة الغربية كانت مصر مفتوحة على أقوام أخرى من الليبيين الذين قاموا في البداية ببعض الحملات العسكرية للسيطرة على مصر ولكنها لاقت المقاومة والفشل, فأخذ الكثير من الليبيون بالهجرة السلمية إلى مصر حيث بدؤوا يعملون بالزراعة والتجارة واستوطنوا في الأجزاء الغربية الوسطى والشمالية, وتمصروا وازدادت أعدادهم واخذوا يتطوعون في الجيش المصري كجنود مرتزقة حتى كثر عددهم وقوي نفوذهم واستولوا على المناصب العليا, وكونوا طبقة عسكرية لا تنافسها بالقوة إلا طبقة الكهنة, فما أن حل منتصف القرن العاشر قبل الميلاد حتى تمكن آحد القادة العسكريين من أصل ليبي يدعى "شيشونق" من الاستيلاء على العرش وتأسيس سلالة حاكمة هي الأسرة الثانية والعشرين, ثم ضيق الخناق على الكهنة واضطرهم إلى الهجرة إلى الصحراء, وحاول تعزيز مكانة مصر في بلاد الشام من خلال دعم الثورات في المملكة اليهودية, ثم قاد بنفسه حملة إلى أورشليم وعاد منها بكنوز سليمان, واستمر خلفاءه في

الأسرتين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين الذين كانوا من أصل ليبي كذلك[152]

أما من الناحية الشمالية فقد كانت علاقة مصر مع اليونان وثيقة, ويبدو أنها كانت تشهد بعض التنقلات بحسب الظروف السياسية,فيروي هيرودوت أن القلقيز بلا شك من المصريين, حيث تخلفوا من حملة قادها الفرعون سنوسرت, كما يقول إن الزعماء الدوريين هم من المصريين الأقحاح, وهذه الرواية يجمع عليها الإغريق بشأن سلسلة نسب العائلة المالكة في إسبارطة[153].

أما الشعوب الواقعة جنوب مصر, فتروي الأساطير المصرية أن المصريين ينتمون إلى أتباع حور, وأن هؤلاء الأتباع جاؤوا من الجنوب والشرق وعلموا المصريين الحضارة واخضعوا البلاد لسلطانهم, وقد ترمز هذه الأساطير لعلاقة قوية مع البلدان الواقعة في الجنوب والشرق في مراحل ما قبل التاريخ. من جهة أخرى كان الفراعنة يشنون بعض الحملات العسكرية إلى الجنوب ليعودوا ومعهم آلاف الأسرى.

---

152 موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم

153 تاريخ هيرودوت

الهكسوس

لم تعرف مصر طوال تاريخها اجتياحا كاملاً كالذي قام به من عرفوا لاحقاً بالتاريخ باسم "الهكسوس" , في حين عرفهم المصريون باسم "حقاو خاسوت" بمعنى الملوك الرعاة أو الملوك الغرباء.

ويرجع أكثر ما نعرفه عن هؤلاء الهكسوس إلى المؤرخ المصري "مانيتو" الذي يذكر أنهم استولوا على مصر بغير حرب وبدون مقاومة, وارجع السبب إلى حالة الفوضى التي كانت تعيشها البلاد أثناء دخول الهكسوس بالإضافة إلى تفوقهم العسكري ومهارتهم في استعمال العربات, ويقدر أن دخولهم لمصر كان حوالي عام 1800 ق.م, ويربط بعض الباحثين دخول الهكسوس إلى مصر مع هجرات و تحركات بشرية كبرى حدثت في الفترة نفسها, حيث دخل الكاشيون الذين سبق الحديث عنهم إلى بلاد الرافدين, وكذلك دخول الحثيين إلى بلاد الأناضول, والحوريين إلى بلاد الشام.

ويبدو أن دخول الهكسوس لم يكن بشكل مفاجئ مرة واحدة, وإنما سبقت ذلك حركة هجرة على شكل أفراد للتسلل والعمل هناك, فنجد في مقبرة خنوم – حوتب تصويراً لقدوم بعض الآسيويين, هم وأطفالهم وأمتعتهم على ظهور الحمير, أطلق عليهم تسمية

"العامو" يتزعمهم رجل يدعى "أبشا" ولقبه "حقا خاست" وهي نفس التسمية التي أطلقت على الهكسوس لاحقاً[154].



الرسم من مقبرة خنوم حوتب

استوطن الهكسوس منطقة الدلتا, واتخذوا لنفسهم عاصمة على الضفة الشرقية للدلتا, أطلق عليها المصريون اسم "حت وعرة" وعرفها الإغريق باسم "أفاريس" وقد حصنها الهكسوس تحصينا قوياً لخوفهم من المصريين, حيث لم تصل سيطرتهم إلى ممفيس إلا بعد أربعة عقود, وقد بقي الفراعنة يشنون الحملات ضدهم حتى تمكنوا في النهاية من هزيمتهم بعد أن امتدت سيطرتهم على مصر لمدة قرن ونصف القرن وكان منهم ملوك الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة, وقد كان طردهم على يد أحمس

[154] دراسات في تاريخ الشرق القديم

الأول مؤسس الأسرة الثامنة عشرة, وقد تنبه وخلفاؤه من بعده إلى أهمية بسط سيطرتهم على بلاد الشام إن أرادوا تأمين حدود مصر, لذا قاموا بحملات حتى وصل تحوتمس الأول إلى نهر الفرات حيث خلد انتصاره بلوحة تذكارية.

لا يمكننا الجزم عن أصل هؤلاء الهكسوس, هل هم من الشعوب الهندو-أوربية التي اندفعت خلال تلك الفترة إلى المنطقة, أو أنهم من الساميين الذين يقطنون شرق مصر, وكل ما يمكن قوله هو أنهم دخلوا مصر من جهة الشرق ولم يندمجوا مع نسيجها الاجتماعي, حيث بقوا غرباء عن المصريين, إلا إن كان هناك من تسلل منهم في أوقات سابقة, كما تظهر لملوكهم بعض الأسماء الكنعانية و الأمورية[155] , وهو أمر لا يمكننا البناء عليه للوصول إلى حقيقة انتماء هؤلاء القوم.

يظهر لنا مما سبق أن الشعب المصري تاريخياً كان نتيجة اختلاط الشعوب التي تقطن جنوب مصر مع الشعوب التي تقطن في شمالها, حتى ظهر الشعب المصري وتميز بتكوينه الخاص, لذا نجد أن بعض المؤرخين يقول بأنه لم يوجد مصري على

---

[155] سوريا القديمة

الإطلاق وإنما كان هناك دائماً مصريون[156], فهذا الاختلاط مع الشعوب الأخرى والاعتماد على المرتزقة لمواجهة الإمبراطوريات المنافسة أدى إلى هذا التنوع الإيجابي من جهة والسلبي من جهة أخرى, فقد كان دخول قمبيز لمصر بسبب خيانة بعض اليونانيين المرتزقة في الجيش المصري.

د – آسيا الصغرى

تتصل منطقة آسيا الصغرى أو الأناضول بالمناطق المحيطة بها جغرافياً اتصالاً وثيقاً, لذا لا يمكن أن تكون في معزل عما يحدث في تلك المناطق من تحركات بشرية وارتفاع أو سقوط دول.

وقد سبق لنا الحديث عن وجود آثار استيطان بشري قديم جداً في مناطق مثل "شاتال هيوك" وكذلك في "هاسيلار" التي ترجع إلى الألف السابع قبل الميلاد[157], أما من الناحية التاريخية فقد وردنا من نصوص الآكاديين – كما سبقت الإشارة – ما يفيد بوجود و استقرار بعض العناصر السامية في مدن وموانئ في آسيا

---

[156] معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم
[157] تاريخ وحضارة الحيثيون.

الصغرى. أما أولى وأهم وأكبر الحركات البشرية في تاريخ تلك البقعة من العالم فقد كانت من الحيثيين.

الحيثيون:

يصنف الحيثيون من الناحية العرقية على أنهم جزء من الكل المسمى الشعوب الهندو-أوروبية, فهم في تحركهم يعتبرون إحدى الموجات من ذلك الطوفان الذي غمر مناطق الشرق الأدنى, فعلى ما يبدو أنهم قدموا في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد من أواسط آسيا واستوطنوا في البداية المناطق شرق البحر الأسود, ثم تمددوا حتى سيطروا على المناطق التي تقع جنوب البحر الأسود إلى نهر الهاليس في قلب الأناضول, فيما يرى آخرون أنهم إنما التفوا حول البحر الأسود وعبروا إلى آسيا الصغرى عن طريق البوسفور والدردنيل, واستمروا في تمددهم حتى نجدهم وقد وصلوا إلى المناطق المحيطة بمنابع دجلة والفرات حوالي عام 1800 ق.م. حيث بدئوا في تأسيس عاصمتهم "خاتوسا" أو "حاتوشاه" ليس بعيداً عن مدينة أنقرة الحالية . ويبدو أن الحيثيون لم يعرفوا بهذا الاسم إلا بعد أن استوطنوا تلك المناطق فأخذوا اسمهم منها أو من قوم كانوا يسكنونها من قبلهم.

أسس الحيثيون دولتهم القديمة وكانت تسيطر على أجزاء كبيرة من آسيا الصغرى وكان من أشهر ملوكها "تابرنا" الذي حكم حوالي العام 1650 ق.م وتلقب بلقب "خاتوشيلي الأول" واستمر في حملاته التوسعية حتى حاصر حلب (يمخد) ولكنه لم يستطع الإطاحة بها, حتى جاء خلفه "مورشيلي الأول" فاستولى على حلب, وقام بشن حملة على بابل, فقضى على المملكة البابلية حوالي عام 1590 ق.م ولكنه لم يقم هناك فعاد أدراجه وترك بابل إلى الفوضى, وليس واضحاً إلى الآن ما الذي دعا هذا الملك لهذا الفعل.

دامت الحال هكذا ومرت المملكة لاحقاً بفترة ضعف إذ هاجمها الميتيان حتى تولى العرش "شوبيلوليوما" حوالي عام 1368 ق.م فقام بإعادة أمجاد المملكة الحيثية و استولى على كافة المناطق في شمال سوريا وهو يعبر بذلك مؤسس الإمبراطورية الحيثية الحديثة, وقد كان أن يحكم مصر عندما استنجدت به الأميرة المصرية "عنخ سام آمون" زوجة "توت عنخ آمون" بعد أن توفي زوجها طالبة منه أن يرسل إليها أحد أبناءه ليتزوجها ويحكم معها مصر, ولكن الأمير "زانانزاش" لم يصل إلى مصر أبداً حيث قتل في الطريق ويرجح أن يكون مقتله بتدبير

بعض المتنفذين المصريين الذين لم يريدوا أن يحكم مصر رجل غريب.

توفي "شوبيلوليوما" حوالي 1335 ق.م وخلفه ابنه "مورشيلي الثاني" الذي حاول تعزيز فتوحات والده, ثم خلفه ابنه "مواتالي" الذي اصطدم مع المصريين في عهد الفرعون الشهير "رمسيس الثاني" في معركة قادش المشهورة عام 1299 ق.م. ونجد من النصوص في الفراعنة والحيثيين أن كل منهم يدعي أن النصر كان حليفاً له, ولكن يبدو من التطورات اللاحقة أنه لم يكن هناك نصر حاسم لكل منهما, فقد أحس كل منهما بازدياد خطر الآشوريين, فكان أن عقدا معاهدة للصلح سجلت بنودها على جدران معبد الكرنك, كما نجدها بالآكدية في أرشيف "حاتوشا" ومن أجل تعزيز هذا السلام فقد زار الملك "حاتوشيلي الثالث" مصر ومعه إحدى بناته التي زفها عروساً للفرعون رمسيس الثاني في عام 1267ق.م.

لم تستمر الأمور طويلاً كما يشتهي ملوك الحيثيون فقد زاد التهديد الآشوري في الشرق, ولكن الانهيار التام لم يأت علي يد الآشوريون ولا على يد المصريون بل على يد شعوب متنوعة وشبه مجهولة عرفت بالتاريخ باسم "شعوب البحر".

كـان الحيثيـون مجهـولين تمامـاً باسـتثناء بعـض الإشـارات التـي وردت فـي التـوراة[158], حيـث تـذكرهم هـذه النصـوص علـى أنهـم جزء مـن الشـعوب التـي تسكن فـي بعض أجزاء فلسطين, وهذا الانتشار يعود إلى زمن إبراهيم عليـه السـلام, فقد اشـترى مغـارة المكفيلة من عفرون الحثي لتكون قبراً لعائلته. ويبدو أن الاختلاط بين العبرانين والحيثيين كان وثيقاً, لـذا نجد ويل ديورانـت ينسـب "الأنـف اليهـودي الأقنـى" إلـى الحيثيـين ويعتبـر أن اليهـود إنمـا اكتسبوه منهم.

كـذلك كـان للحيثيـون دور مهـم فـي تشـكيل صـلة وصـل بـين حضارات الشرق الأدنى القديمة وبين البلاد التـي ستزدهر لاحقاً فـي اليونـان, وينسـب كثيـر مـن البـاحثين لهـم الفضـل فـي تطـوير الصناعة حيث أنهم أول من عرف صناعة الحديد, بالإضـافة إلـى مـا عرفـوا بـه مـن تطـوير العربـات الحربيـة, ورغـم سـقوط الإمبراطورية الحيثية أمام تدفق شعوب البحر إلا أن ممالك حيثية جديـدة قامـت بعـد ذلـك فـي شـمال سـوريا وازدهـرت إلـى جانـب جيرانها الآراميون ما يقارب الخمسة قرون بعد سقوط حاتوشـاه,

158 نحتاج إلى مزيد من البحث للتأكد أن الحيثيين الذين تتحدث عنهم التوراة هم فعلاً الحيثيون الذين بنوا إمبراطوريتهم في آسيا الصغرى.

حيث استمرت النصوص الآشورية بالحديث عن شمال سوريا باسم أرض حاتي, وتتحدث عن ملوك يحملون أسماء حيثية.[159]

شعوب البحر :

أصبح من المؤكد أن انهيار الإمبراطورية الحيثية كان بسبب مجموعات كبيرة من الغرباء الذين عرفوا بالتاريخ باسم "شعوب البحر" وهذه التسمية في الواقع مأخوذة من النصوص المصرية التي دونت عن تلك الفترة, وهي تسمية كما يبدو من ظاهرها أنها عامة ولا تفيد في شيء عن تعريف هؤلاء القوم أو مكانهم الأصلي الذي قدموا منه, ولكن ومن خلال دراسة الكثير من النصوص التي تحدثت عن اجتياح هذه الشعوب لأجزاء كبيرة من الشرق الأدنى يبدو أنها تتألف من خليط من الأقوام الهندو – أوربية قدموا من مناطق أرخبيل بحر إيجة والبلقان وربما قبرص واليونان أيضاً, ومن المحتمل أن يكون قد انضمت لهم شعوب

---

[159] الحيثيين.

أخرى من التي اجتاحوا أراضيها في آسيا الصغرى والشام, ولا يعرف السبب الحقيقي وراء هجرة ضخمة وتحرك بشري بهذا الحجم, فقد يكون السبب القحط الذي أصاب مناطقهم الأصلية, أو هجرة شعوب أخرى أجبرتهم على ترك أراضيهم بالقوة.

قامت "شعوب البحر" بالقضاء النهائي على الحيثيين وعاصمتهم حاتوشاه رغم محاولة المصريين المساعدة في صد هذا السيل البشري الجارف ولكن محاولتهم لم تجد نفعاً, ولم يتوقف الأثر التدميري لهجرات هذه الشعوب, فاستمروا في طريقهم ودخلوا بلاد الشام فدمروا في طريقهم كركميش وأوغاريت وصيدا وصور واستمروا حتى وصلوا إلى حدود مصر ولم يردهم عنها إلا الجيش المصري الذي كان بقيادة الفرعون رعمسيس الثالث (1198 – 1166 ق.م).

لم تتألف شعوب البحر من نسيج متجانس, بل كانت تشمل العديد من الشعوب والقبائل, فقد وردت أسماء مثل: الفريجيون والليسيون والبلست والتجكير والشاكلاش والشردان واللوكيون. قام بعض هذه القبائل بسلوك الطريق البري بعد تدمير حاتوشاه

في حين اخذ الآخرون الطريق البحري, فانطلق بعضهم من كريت فدمروا قبرص وجعلوا من جزيرة أرواد قاعدة لهجماتهم.

ويبدو أن انتشارهم شمل أجزاء واسعة من آسيا الصغرى والمناطق الساحلية في بلاد الشام, إلى درجة أن الفرعون رعمسيس الثالث عندما يئس من الاستمرار في دفعهم فقد سمح لهم باستيطان تلك الأجزاء.

ويرى بعض الباحثين أن هذه الشعوب انتشرت في بقعة واسعة للغاية واختلطت مع الشعوب السابقة وطبعت تلك البلدان بطابعها, فشعب البلست اختلط مع الكنعانين ودعيت البلاد باسمهم "فلسطين" والشردان سكنوا الجزيرة التي دعيت باسمهم "سردينيا" أما الشاكلاش فقد استوطنوا جزيرة "صقلية" التي اشتق اسمها كذلك من اسمهم, بينما ذهب الإتروسكان إلى شبه الجزيرة الإيطالية[160].

كان الأثر الأولي لهجرات قبائل شعوب البحر تدميرياً كما يظهر من طبقات الآثار التي تمت دراساتها, إلا أنهم بعد أن استقروا في مناطقهم الجديدة اندمجوا مع السكان السابقين وكون بعضهم دول جديدة وكان لهم شأن كبير, كما فعل الفريجيون في آسيا الصغرى.

---

160 المعلومات المتوفرة عن شعوب البحر قليلة نسبياً ومازالت الأبحاث غير واضحة في النتائج التي وصلت إليها

هـ ــ فارس

سبق أن وجدنا أثناء سردنا لتاريخ تنقلات الجماعات البشرية في بلاد مابين النهرين, أن المناطق التي كانت تجاورهم إلى جهة الشرق تدعى "عيلام", ولا يعرف على وجه التحقيق أصول الشعب الذي كان يسكن تلك المنطقة, ويصنفهم بعض الباحثين على أنهم من الشعوب الآسيانية, ويربط بعض الباحثين بينهم وبين الكاشيون والجوتيون واللولبيون من سكان المناطق الجبلية المجاورة, إلا أنه من المؤكد أن لغة هؤلاء العيلاميين لم تكن تندرج تحت اللغات السامية ولا تحت اللغات الهندو- أوربية.

ورغم قرب عيلام إلى مناطق جنوب بلاد الرافدين إلا أنها بقيت مختلفة وأقل تحضراً من تلك البلاد, وكثيراً ما كانت مصدر تهديد في حالات الضعف التي تعتري دول الرافدين, أما البلاد الواقعة خلف جبال زاغروس فقد كان الكتاب البابليون يعتبرونها بلدان متخلفة وهمجية.

كانت منطقة عيلام تمتد في المناطق السهلية فيما بين جبال زاغروس إلى ساحل الخليج العربي وعاصمتها "سوسة", وهي بذلك تطابق تقريبا المنطقة المعروفة اليوم بعربستان أو الأحواز.

بدأت العلاقة بين عيلام وبلاد الرافدين تترسخ خلال حكم الملك الآكدي "نرام-سين" الذي وصل بفتوحاته إلى شاطئ الخليج, ثم عين حاكماً عيلامياً من قبله على تلك البلاد, مما جعلهم لاحقاً يستخدمون اللغة والكتابة الآكدية في تعاملاتهم, ثم قاموا لاحقاً أثناء فترة ضعف بلاد الرافدين بغزوها وتأسيس مدينة عيلامية هي مدينة لارسا ووصلت فتوحهم إلى بابل نفسها, ولم يردهم عنها لاحقاً إلا حمورابي.[161]

لا يعرف على وجه التحديد متى وفدت الأقوام التي أسست الممالك اللاحقة في تلك المنطقة, وإن كان على الأرجح حسب رأي الكثير من الباحثين أن كلاً من الميديين (أو الماذيون) والفرس ينحدرون من الشعوب الهندو – أوروبية, حيث تقدموا من السهول الأوراسية جنوب روسيا في وقت ما من الألف الثاني قبل الميلاد, ليستقر الميديون في الأجزاء الشمالية الغربية من إيران الحالية, فيما استقر الفرس في الأجزاء الجنوبية إلى الشرق من مناطق العيلاميون[162].

هذا وقد أدى ضعف الدولة العيلامية في المراحل اللاحقة إلى تمكين الفرس من تعزيز وجودهم ودورهم السياسي, ولكن على

---

161 دراسات التاريخ

162 يبدو أن هناك موجة انشقت من نفس المجموعة وتوجهت إلى أوروبا, حيث يقول هيرودوت أن السيجناي الذين يقطنون شمال الدانوب يزعمون أنهم من الميديين وأنهم يرتدون الزي الميدي رغم أنه استصعب تصديق هذا الإدعاء. (تاريخ هيرودوت)

الرغم من ذلك فقد كان قصب السبق في تأسيس الدولة للميديين, حيث يروي لنا هيرودوت أن الميديون كانوا يعيشون في قرى متباعدة حتى سعى أحد وجهاء تلك القرى واسمه ديوسيس إلى تزعم تلك القرى وأسس مدينة أكبتانا (همدان) التي أصبحت عاصمة الميديين حيث أقام له قصراً مهيباً ومنع الناس من رؤيته. أتت الفرصة المناسبة للميديين بالتوسع بعد أن اسقط الأشوريون دولة عيلام عام 644 ق.م[163] لكن دولة آشور بقيت شوكة في طريق الميديين للمزيد من الاتساع, فبدئوا إرسال الغارات على آشور, لكن هجمات السكيث التي ضربت مناطق الشرق الأدنى وهم ألد أعداء الميديين أدت إلى انحسار توسعهم حتى حين, فكان أن تحالفوا لاحقاً مع البابليين ونجحوا أخيراً في إسقاط آشور سنة 609 ق.م واستولوا على كافة ممتلكاتها الشمالية إلى حدود مملكة ليديا في آسيا الصغرى.

على الجهة الأخرى كان أقارب الميديين من الفرس يتابعون ما يحصل بعين الإعجاب ويطمحون أن يشكلوا أيضاً مملكتهم الخاصة فكان أن تزعم الفرس قائد يدعى "هاخمانيش" وهو مؤسس الأسرة الأخمينية, ثم خلفه ابنه "قورش الأول" فاستقل عن الميديين لبعض الوقت لكنه عاد فخضع لهم أثناء حكم الملك

[163] الشرق الأدنى القديم

الميدي القوي " كي-أخسار" الذي تحالف مع البابليين واسقطوا الدولة الآشورية كما سبق. ثم جاء بعده ابنه المسمى "قمبيز الأول" الذي تزوج ابنة "أستياجز" خليفة "كي-أخسار" مما عزز التقارب بين البيتين الحاكمين. فكان نتيجة هذا الزواج أن جاء "قورش الثاني" الذي عرف بالتاريخ باسم "قورش الأكبر" (558-530 ق.م) فما أن تولى الحكم حتى عزم على إزالة حكم الميديين, فثار على جده لأمه وحاربه حتى أسقط عاصمتهم "أكبتانا" واستولى عليها و به ابتدأ مجد الفرس وإمبراطوريتهم[164].

لما اخضع قورش البلاد لسلطته فقد تطلع إلى مد حدود مملكته إلى نطاق أكبر فغزا مملكة "ليديا" في آسيا الصغرى وانتصر على ملكها "كرويسس" المشهور بغناه الفاحش, ثم نصب عليها حكاماً من الفرس, ثم ألتفت إلى الشرق واخضع تلك المناطق لحكمه حتى نهر السند,ثم ألتفت إلى جارته وجوهرة الشرق "بابل" فدخلها عام 539ق.م وعامل سكانها معاملة حسنة واحترم آلهتهم ونصب ابنه قمبيز ملكاً على بابل. واستمر قورش بعملياته العسكرية حتى قتل في إحدى معاركه مع الماسجيتاي الذي يقطنون شرق بلاد فارس كما يروي لنا هيرودوت.

---

[164] مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة.

استمر خلفاء قورش في الفتوحات كذلك فوصل قمبيز إلى مصر وارسل بعض البعثات إلى أثيوبيا, ولكنه لم يتمتع بتسامح أبيه فاصطدم بآلهة المصريين وسخر منهم, وانتهت حياته بشكل مأساوي في الطريق أثناء عودته إلى فارس بعد أن سمع أن هناك ثورة قامت ضده, ويروى أن وصيته قبل موته كانت للأخمينيين أن لا يسترد الميديون الحكم. ثم تولى الحكم بعد ذلك داريوس بعد بعض القلاقل التي حدثت بينهم وبين المجوس الذين حاولوا الاستيلاء على السلطة عن طريق المكر والخداع فانتهت بمذبحة كادت أن تقضي على جميع المجوس.

يروي هيرودوت أن داريوس هذا قد شن حملة ضد السكيث فعبر إلى أوروبا ومن هناك بدأ مطاردة هؤلاء القوم البدو الرحل ولكنه لم يتمكن من ملاقاتهم فكاد أن يهلك جيشه لولا أنه عاد ببعض هذا الجيش وترك بعضه الآخر خلفه, وقد كانت هذه الحملة هي سبب العداوة مع الإغريق, ليكمل خليفته أحشويرش تلك الحملات المشهورة ضد أثينا التي انتهت بالفشل وتدمير الأسطول الفارسي.

لقد سيطر هؤلاء الملوك الفرس أراض واسعة تتوزع في ثلاث قارات, فكان هذا الأمر سبباً في سهولة انتقال الناس بين مناطق حكمهم, كما إنهم استمروا على ذات الممارسات الآشورية في نقل

الشعوب التي كان يخشى عصيانها إلى مناطق أخرى وإسكان شعوب تلك المناطق الموالية مكانهم, فنجد أنه قد ازدادت ظاهرة الاستيطان في بابل وبالذات من قبل الكهنة المجوس, كما سمح بعودة الجماعات العبرانية التي سباها البابليون.

كذلك نجد هيرودوت يتحدث عن قتل وتهجير للملطيين والإيرتيريين إلى مناطق قريبة من العاصمة, ثم تهجير الكاريين مكانهم. كذلك يتحدث عن تهجير لشعب البايون من أوروبا إلى آسيا. ويبدو أن هذه الممارسات كانت شائعة فعندما حاول القائد اليوناني إثارة مخاوف الأيونيون من الفرس فقد أخبرهم أن داريوس ينوي تهجيرهم إلى بلاد الفينيقيين وتهجير الفينيقيون مكانهم .عدا عن كل ذلك فقد أصبح الجيش الفارسي يضم عناصر مختلفة من كافة أنحاء الإمبراطورية.

استمر الحال هكذا حتى جاء الإسكندر الأكبر وخلفاءه السلوقيون, ثم جاءت من بعدهم الدولة الإشكانية التي قامت على قبائل إيرانية عرفوا باسم بارني Pharni كانت هذه القبائل تتنقل بين منطقة وأخرى إلى أن استقرت في جنوب شرق بحر قزوين في المنطقة المعروفة بخراسان, ويرجح كثير من المؤرخين أنهم ربما يعودون في أصولهم إلى قبيلة داهي من السكيث, حيث أن اسمهم يعني بلغتهم "المنفي" ويرى البعض أنهم هاجروا من مناطق

السكيث في مراحل سابقة أو أنهم تأثروا بهم كثيراً لقربهم من أراض السكيث.وقد كان أول حكامهم المدعو أرشاق الذي أسس سلالة حاكمة واستمر هؤلاء بالحكم لخمسة قرون وعرفوا لدى العرب باسم ملوك الطوائف.

ح – الإغريق

يبدو أن البحر الأبيض المتوسط لم يكن في الأزمنة القديمة يشكل ذلك الحاجز الكبير الذي كنا نظنه, فقد ساهم مساهمة فعالة في نقل الأفكار والأشياء والناس بين بلاد اليونان وبين بقية العالم القديم وبالذات مع مصر من خلال كريت.

لذا نجد اليونانيون يطلقون على البحر المتوسط اسم HO PONTHOS أي الممر أو الطريق, كذلك فإن قرب بلاد اليونان من آسيا الصغرى جعلها على اتصال وثيق ودائم فيما يحدث في القارة الآسيوية, فكانت بوابة القارة الأوروبية, بشكل مشابه لموقع مصر من خلال صحراء سيناء كما مر بنا.

ويبدو أن هذه التواصل يعود إلى أزمنة بعيدة ترجع إلى الألف الرابع قبل الميلاد, وخاصة مع مصر وليبيا وبلاد مابين النهرين والشام, حيث وجدت في بعض الجزر اليونانية وخاصة ناكسوس

بعض المخلفات الأثرية المصرية التي تعود إلى مرحلة ما قبل الأسرات وبعض المخلفات التي تعود إلى عهد حمورابي.[165]

أما الاتصال بين كريت ومصر فقد كان وثيقاً جداً, وقد بلغ التشابه بين الثقافتين في أول عهديهما حداً أوحى لبعض العلماء أن هناك موجة من الهجرة قد حدثت من مصر إلى كريت في ظروف الاضطرابات أثناء حكم مينا. وقد أثبتت الأبحاث الأثرية أن اللغة التي كانت سائدة هي أقرب ما تكون إلى لغات الشرق الأدنى كالمصرية والقبرصية والحيثية.[166]

يبدو أن أولى الشعوب التي دخلت إلى بلاد اليونان هم من عرفوا باسم البلاسيجيون, حيث استقروا هناك في الأزمنة القديمة قبل التاريخية ويعتقد أنهم دخلوا من آسيا الصغرى. وإن كنا لا نملك المعلومات الكافية عن هذا الشعب إلا أننا نعرف أنه ليس من الأقوام الإغريقية, فقد أسسوا ما عرف باسم الحضارة الميسينية.

ازدهرت مدينة ميسيني (مدينة أجاممنون) في الفترة الواقعة بين القرنين الخامس عشر والثاني عشر قبل الميلاد,حيث يرجح بعض الباحثون – كالسير وليم ردجواي- أن حضارة البلاسجة الميسينيون تبددت بسبب تقدم شعب أشقر من أوروبا الوسطى, عرف باسم الآخيين حيث جاؤوا معهم بعبادة زيوس واستمروا

[165] دراسات في تاريخ الإغريق.
[166] قصة الحضارة,حياة اليونان.

بالتقدم حتى بلغوا البيلوبونيز حيث اتخذوا اللغة وأساليب الحياة اليونانية, ويربطون هذا التقدم بتقدم الشعوب السابقة التي عرفت باسم شعوب البحر في الأناضول والشام ومصر على اعتبار أن هذا الغزو القادم من الشمال إنما هو تحرك بشري واحد, أو أنه شمل عدة تيارات.

في حين يرى آخرون - كويل ديورانت – أن الآخيون ليسوا إلا قبيلة من القبائل اليونانية, وأنهم إنما انتشروا بسبب الزيادة الطبيعية, فسادوا البلاد من القرن الرابع عشر قبل الميلاد, واختلطوا بالبلاسجة السابقين حتى اصبحوا يشكلون الطبقة الحاكمة حوالي عام 1250 ق.م.

إلا أن الاجتياح الأكبر لبلاد اليونان من الشمال يأتي حوالي عام 1104 ق.م حيث هاجرت قبائل الدوريون, وهم شعب ذو روح حربية, طوال القامات, كانوا لا يزالون يعيشون في مرحلة الرعي والصيد, ومعدومي الصلة بالأدب[167].

عرف هذا التحرك لدى المؤرخين باسم الغزو الدوري, أما موطنهم الأصلي فليس معروفاً على وجه التحقيق, كما أننا لا

---

[167] قصة الحضارة, حياة اليونان.

نملك تفاصيل دقيقة حول الطريق الذي سلكوه, ويرجح بعض الباحثين أن هجرتهم إنما كانت على دفعتين[168].

بعد أن وفدت هذه الشعوب الشمالية إلى بلاد اليونان بقرون, وفي منتصف القرن الثامن قبل الميلاد, بدأ ما يعرف لدى المؤرخين باسم العصر اليوناني الكلاسيكي, حيث بدأت تظهر مدن الدول, وبدأ ظهور بعض الشخصيات الأدبية كالشاعر هوميروس.

ثم ابتدأت منذ ذلك الوقت الهجرة الإغريقية الكبرى, فقد نزحت في البداية الشعوب الإغريقية السابقة أمام التقدم الدوري, فذهبت الموجة الأولى إلى الجزء الشمالي من الساحل القريب في آسيا الصغرى وعرفوا باسم الأيوليون, ثم أتت بعد ذلك الموجة الثانية التي نزحت إلى مناطق جنوب من سبقهم من أقاربهم وعرفوا هناك باسم الأيونيون, وقد لعب هؤلاء دور مهماً في الحرب الفارسية اليونانية التي حدثت بعد عدة قرون من هذه الهجرة.

تبع ذلك موجات أخرى من الهجرة, كانت تشبه إلى حد ما الأسلوب الذي شهدناه عند الفينيقيين, حيث يتم تأسيس دول مدن تشبه تلك التي قدم منها هؤلاء المهاجرون, فقد استخدموا البحر المتوسط كوسيلة سريعة للتنقل, فركبوا السفن وانتشروا في الجهات الأربعة, فقد استوطنوا في بعض شواطئ افريقيا فأسسوا

---

[168] تاريخ اليونان وعلاقته بالوطن العربي.

مدينة نقراطيس في مصر ومدينة قوريني في ليبيا,وانتشروا في كافة جزر البحر المتوسط كقبرص وصقلية ومالطا وغيرها, ووصلوا إلى جنوب فرنسا واسبانيا, بل أنهم عبروا جبل طارق إلى السواحل الغربية للقارة, أما استيطانهم في جنوب ايطاليا فقد كان كثيفاً حتى دعيت تلك المنطقة باسم بلاد الإغريق الكبرى, كما أنهم وصلوا شمالاً إلى سواحل البحر الأسود. وقد كانت كلمة "هيلاس" عندما تطلق فإنها تعني كل هذه البقعة الجغرافية غير محددة المعالم, التي يجتمع سكانها بثقافة ولغة وتقاليد واحدة وإنما متفرقين في مناطق جغرافية متعددة.[169]

أدت حركة الهجرة إلى نمو التجارة, كما أدى نمو التجارة إلى تعزيز حركة الهجرة, وقد كانت الثقافة الإغريقية تحض على الهجرة من خلال بعض النبوءات عن تأسيس مدن جديدة في مناطق بعيدة أو من خلال سن بعض القوانين التي تفرض الهجرة بعقوبات قد تصل إلى الموت أحياناً, مما أدى إلى انتشار هذه المستعمرات بشكل كبير حتى بلغ عددها 200 مستعمرة خلال مئتي سنة بين 750-550 ق.م [170], وهذا ما دعا أفلاطون إلى القول: (لقد نزلنا في شواطئ هذا البحر كما تنزل الضفادع حول بركة الماء)

[169] دراسات في تاريخ الإغريق.
[170] تاريخ اليونان القديمة.

الفصل الثالث

الهجرة في عالم أوسع

العالم الهيليني

لم تسفر الحروب التي شنها الفرس على الإغريق عن نتيجة واضحة, وبقيت الأمور على ما هي عليه من تشتت وفرقة, فمدن الدول الإغريقية لم تكن لتتوحد فيما بينها إلا إذا أحست بقرب الخطر حتى إذا زال عادت إلى سابق عهدها من التنافس والعداوة.

على الشمال من هذه المدن كان يقطن شعب هم في أصلهم من الإغريق ولكنهم لم يصبحوا هلينيين أي أنهم لم يكونوا مواطنين في مدن – دول ومن ثم ظلوا غرباء بالنسبة إلى أسلوب الحياة الذي أعتاده الناس في المدينة – الدولة[171]. فقد كانوا يخضعون لملك قوي طموح اسمه فيليب, فقد قرر هذا الملك مدفوعاً

---

[171] تاريخ البشرية – توينبي.

بطموحه أنه لكي يستقر العالم الإغريقي فيجب عليه أن يغزو الفرس في بلادهم, فبدأ يعد العدة لهذه المهمة من خلال بسط سيطرته على المدن القريبة منه, ولكنه اغتيل بشكل مفاجئ وترك خلفه ابناً صغيراً يقارب العشرين من عمره, فاستخفت به المدن التي خضعت لوالده وبدأت تعلن تمردها واحدة تلو أخرى, لكن هذا الشاب لم يكن شاباً عادياُ فقد كتب له القدر أن يكون أحد أعظم الفاتحين في التاريخ, فبدأ مباشرة وبالقوة إعادة سيطرة المقدونيين على بلاد اليونان وما هي إلا سنوات حتى انطلق بقوة صغيرة عابراً الدردنيل متجهاً إلى آسيا لتحقيق الحلم الذي طالماً حلم فيه والده, فخاض بعض المعارك في أسيا الصغرى والشام واستمر حتى وصل إلى مصر حيث أسس المدينة المشهورة باسمه ويبدو أن ذلك كان بناء على نصيحة من اليونانيون المقيمون في نقراطيس, حيث أن مكانها يخدم تجارتهم بشكل أفضل, وقد رسم مخطط المدينة بما في ذلك مواضع هياكل العبادة المصرية واليونانية بنفسه[172], ثم انطلق إلى الشرق حيث واجه الملك الفارسي دارا الثالث الذي انهزم أمامه وبذلك سقطت الإمبراطورية الفارسية وفتح الشرق أبوابه للإسكندر الأكبر الذي لم يكتف بذلك بل استمر حتى وصل الهند ولم يرجع إلا تحت

---

[172] قصة الحضارة

ضغط جنوده الذين أعياهم التعب وبعد المشقة. فعاد واستقر في جوهرة الشرق بابل, فتوحد العالم القديم للمرة الأولى في ثلاث قارات تحت حكم دولة واحدة.

كان الإسكندر قد درس على يد الفيلسوف الشهير أرسطو, وكان مما علمه إياه أنه يجب أن يعامل اليونان معاملة الأحرار وأن يعامل بقية الشعوب من البرابرة المتوحشين معاملة العبيد, ولكنه دهش لما وجد أشراف الفرس يتمتعون بمستوى من الحضارة والرقي وحسن الخلق مما لم يجده لدى اليونان, فأعجب بهم كثيراً بدأ بتقليدهم بالمظاهر والثياب والتصرفات بل أنه لم يكتف بذلك فتزوج ابنة دارا وابنة ارتحششتر وحض ضباط جيشه على متابعته في ذلك فلم يمانعوا كثيراً خصوصاً وأنهم كانوا بعيدين عن زوجاتهم لسنوات, فتزوج في ليلة واحدة ثمانين من كبار قادته من فارسيات وتبعهم بعد ذلك الآلاف [173], كان الإسكندر يسعى من خلال هذا التزاوج إلى إيجاد تزاوج ثقافي بين الحضارتين, ويبدو أنه كان مطمئناً إلى أن نتيجة هذا المزيج سيكون هيلينياً[174] , ولم يكتف بهذا بل أنه أرسل رسالة إلى كل الدول يطالب فيها بالاعتراف به ابناً للإله الإغريقي زيوس وكان أحياناً أخرى يزين رأسه بقرني الإله المصري آمون.

---

[173] نفس المصدر.
[174] تاريخ البشرية.

لقد عاجل الموت الإسكندر في بابل ولم يمهله حتى يرى نتيجة هذه المحاولة التي تشكل بحق العمل الأكثر شجاعة حتى من تلك المعارك التي خاضها وجرح وكاد أن يقتل فيها عدة مرات.

لقد حكم الإسكندر نظام المدن – الدول وأنشأ نظاماً أوسع رقعة, وحطم الحواجز القائمة بين اليونان و"البرابرة" ومهد السبيل لعالمية العصر الهليني وفتح آسيا أمام الاستعمار الإغريقي, وجمع عالم البحر المتوسط في نظام تجاري واسع النطاق ونقل الآداب والفلسفة اليونانية إلى آسيا.[175]

كانت وفاة الإسكندر العاجلة بدون خليفة يأتي بعده بمثابة ضربة لمشروع حضارة عالمية, فاشتعل التنافس بين قادة جيشه على خلافته, فتوصلوا إلى تقاسم الإمبراطورية إلى ثلاث أقسام فكان الشرق بين اثنين مصر لبطليموس الذي أسس أسرة حاكمة هناك, والعراق وفارس وجزء من آسيا الصغرى والشام لسلوقس. لكن هذا التقسيم لم يقض على مشروع الإسكندر بل استمرت السلطة في تلك المناطق بيد اليونان.

صحيح أن اليونان كانوا يتواجدون في الإمبراطورية الفارسية ويتولون مناصب عليا في بعض الأحيان ولكن استعمارهم لتلك المناطق لم يفتح على مصراعيه إلى في زمن الإسكندر ومن تلاه,

---

[175] قصة الحضارة

فتوفرت لهم الفرص السياسية والتجارية التي اجتذبت سيلاً بمئات الآلاف من المهاجرين المستعمرين والكتبة والجند المرتزقة والتجار والأطباء والعلماء والسراري والرقاصات, الذي انتشروا في كافة الأرجاء حتى وصلوا إلى ولاية بكتريا والهند في الشرق[176].

لقد تحول العالم إلى عالم مختلط مفتوح فنجد أن السلوقيين أصبحوا يطلقون أسماء المدن اليونانية على الولايات في مملكتهم, ونجد أن عاصمتهم سلوقية التي بنوها قرب مدينة بابل كانت عامرة بما يقارب 600 ألف من مختلف الأجناس تسيطر عليهم أقلية يونانية, وقد كان سكان الإسكندرية حوالي عام 200 ق.م ما بين 400-500 ألف من المقدونيين واليونان والمصريين واليهود والفرس وأهل الأناضول والعرب والزنوج, ولم يقتصر هذا الاختلاط على سكن مدن الشرق فقد أحصى دمتريوس الفالرومي سكان أثينة حوالي عام 310 ق.م فوجد فيها 21 ألفاً من المواطنين 10 آلاف من الغرباء المستوطنين و400 ألف من العبيد الأرقاء, فأما العدد الأخير فيبدو كبيراً جداُ لكن ليس لدينا ما ينقضه[177]

[176] المصدر نفسه
[177] قصة الحضارة

لقد كان مهد الحضارة الهليلنية التي نشأت إثر فتوحات الإسكندر في حوض بجر إيجة ولكن الشاطئ الشرقي لم يكن يقل أهمية في اعتباره جزءاً من هيلاس عن الشاطئ الغربي

لقد كان لتوحيد شقي العالم القديم الغربي والشرقي أهمية كبيرة في تسهيل حركة الناس فيما بين هذه المقاطعات فكانت الهجرات الفردية أمر شائع من الغرب إلى الشرق أو العكس,وهو أمر سيستمر لاحقاً في الأمبراطوريات العالمية التي ستأتي بعد إمبراطورية الإسكندر وخلفاءه .

الرومان

كان البحر المتوسط حوالي منتصف الألفية الأولى قبل الميلاد في نزاع بين الفينيقيين و قرطاجة من جهة والإغريق من جهة أخرى, ثم لاحقاً برز طرف جديد في هذا الصراع ألا وهو مدينة روما ذات القوة الصاعدة التي ستهزم الجميع وتبسط سيطرتها على العالم القديم في القارات الثلاث.

يعود الرومان بتأسيس مدينتهم إلى تاريخ محدد أسطورياً بدقة إلى 21 أبريل عام 753 ق.م حيث ينسب تأسيسها إلى روموس ورومولوس الذين أرضعتهم أنثى الذئب ليشكلوا سلسلة مجهولة من الملوك.

ولكن التاريخ الروماني لم يكن ذا شأن حتى بدأت روما في بسط سيطرتها على شبه الجزيرة الإيطالية.

ينسب الرومان إلى المجموعة الهندو-أوروبية, وهم في تكوينهم الأقرب ينتسبون إلى القبائل اللاتينية التي جاءت وسكنت في إقليم لاتيوم قرب نهر التيبر, ويرى البعض أنهم خليط من المهاجرين اللاتين ومن بعض المهاجرين السابقين في العصر الحجري[178]

كان على الرومان لبسط سيطرتهم على إيطاليا أن يصارعوا القوى المحلية التي تتمثل في الجنوب بالمستعمرات الكثيفة للإغريق التي سبق أن أشرنا لها, وكان عليهم أن يُخضعوا الإتروسكان في الشمال.

فالغريق فقد سبق وتعرفنا عليهم, أما الإتروسكان فهم شعب لا نعرف عنه الكثير من المعلومات نظراً لأن لغتهم ما تزال مجهولة إلا أن هناك شبه إجماع على أنها ليست من اللغات الهندية – الأوروبية, وكتابتهم من اليمين إلى اليسار.

كان الإتروسكان أو التوسكان يسكنون شمال إيطاليا في 13 مدينة أهمها مدينة توسكاني اليوم, والتي اشتق اسمها منهم, كما اشتق اسم البحر التيراني من تسميتهم التي كان يسمونهم بها الإغريق.

---

[178] الرومان, حسين الشيخ

أما حول أصل الإتروسكان فهناك عدة افتراضات, فيرى بعض الباحثين أنهم قدموا من الساحل الشرقي لآسيا الصغرى من غير تحديد تماماً, فيما يربطهم البعض الآخر بالتدمير الأسطوري لطروادة, في حين اعتبرهم المؤرخ الكبير ارنولد توينبي ممثلين للفينيقيين والحثيين[179].

حاول الإتروسكان بسط سيطرتهم على إيطاليا كلها وقد كانوا هم القوة الأكبر قبل بروز روما لكنهم فقدوا كل مستعمراتهم في الفترة الواقعة بين 450- 350 ق.م لأنهم لم يكونوا تحت قيادة واحدة ولبدء صعود نجم روما التي ستمسح ذكرهم من التاريخ حتى لا نكاد اليوم نجد لهم ذكراً إلا في بعض المقابر والنقوش التي تركوها وبعض الجينات التي وجد بعض الباحثين أنها مميزة في منطقة توسكاني اليوم.

عقدت روما في عام 493 ق.م مع القبائل اللاتينية معاهدة كاسيوس لتقوية موقفها في مواجهة الإتروسكان وبعض القبائل الأخرى وقد تم لها بسط سيطرتها بعد معارك طويلة الأمد معهم. ثم تطلعت لما هو أبعد من ذلك فاصطدمت الصدام الشهير مع قرطاجة ومعاركها مع هنيبعل الذي كاد أن يقضي على روما إلى الأبد لكنه هزم في النهاية ودمرت قرطاجة وبدأ من حينها عصر

---

179 تاريخ الحضارة الهلينية

صعود روما الذي سيتكرس في عصر يوليوس قيصر وغيره من القادة في بسط سيطرتهم على داخل القارة الأوروبية, ثم لتبدأ بعد ذلك الإمبراطورية في عهد أغسطس في بسط سيطرتها على مصر ثم اليونان وآسيا الصغرى والشام, حيث أكمل العالم الهليني الذي بدأ في زمن الإسكندر حياته تحت سيادة الرومان, فنجد أن ذاك العالم كان موحداً مفتوحاً للحركة البشرية, فالإمبراطور الشهير ماركوس أوروليوس ولد في أسبانيا والمؤرخ أميانوس ماركلينوس ولد في أنطاكية والشاعر كلوديان ولد في الإسكندرية وفيليب العربي ولد قرب دمشق, والإمبراطور كاركلا الذي منح الجنسية الرومانية لجميع رعايا الإمبراطورية هو ابن سبتيموس سيفروس البونيقي الذي ولد في ليبيا ووالدته من مدينة حمص السورية, في هذا العالم الموحد نجد الطاغية كاليوغلا يكاد ينقل العاصمة من روما إلى الإسكندرية قبيل اغتياله, ونجد المدارس الفلسفية الإغريقية تتزاوج من الديانة المسيحية الوليدة, لقد كان الجميع يسبحون في فضاء واحد, فعلا فلم يكن جوهر الهلينية جغرافياً ولا لغوياً إنما هو اجتماعي وثقافي [180].

---

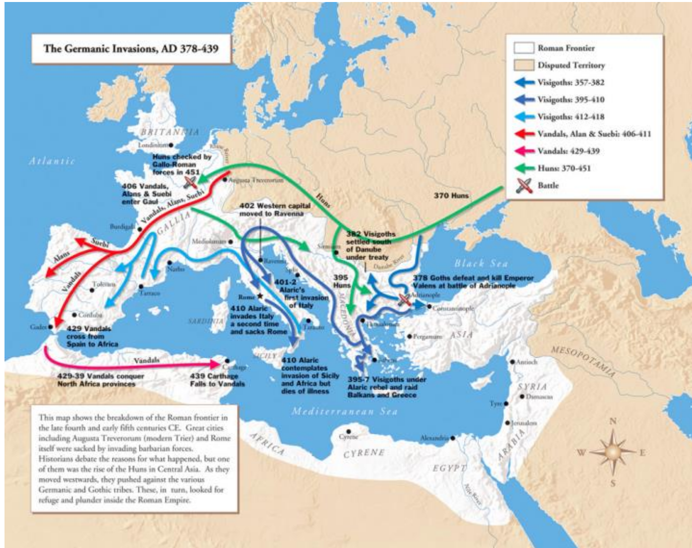
[180] تاريخ الحضارة الهلينية



الأباطرة سبتيموس سيفروس (يمين) وابنه كاركلا (يسار)



الإمبراطورية الرومانية عام 400م



الهجرات في الإمبراطورية الرومانية

الفصل الرابع
عصر البرابرة

تمهيد

كانت روما والإمبراطورية الرومانية عموماً تنتمي إلى البحر المتوسط أكثر مما تنتمي للقارة الأوروبية, فأما فتوحات روما في الشمال فلم تمتد كثيراً حتى الدانوب وكانت أكثر حروبهم هناك في بلاد الغال التي تعرف اليوم بفرنسا, حيث كرس يوليوس قيصر السيطرة الرومانية هناك بعد معارك عديدة.

أما المناطق الواقعة شمالاً فهم لم يهتموا كثيراً بها وكان كل ما يريدونه هو إبقاء الشعوب والقبائل البربرية بعيدة عن روما ومناطق سيطرة الإمبراطورية, إلا أن هذه الشعوب نصف المتنقلة كانت تشكل خطراً دائماً على الإمبراطورية, فلما بدأت علامات الضعف تبدو في جسد الإدارة الرومانية بدأت علامات الخطر القادم من الشمال تزداد بشكل أكبر.

وكان أن حدثاً مهماً بدأ هنا في التأثير مباشرة على الأوضاع التي كانت سائدة سابقاً وحرك المياه الساكنة ودفع القبائل التي تسكن

في الشمال إلى هجرة قسرية باتجاه الجنوب, وقد كان هذا الحدث هو تقدم قبائل الهان من أواسط آسيا وشمال البحر الأسود مما دفع بكل القبائل التي أمامهم إلى الهرب باتجاه مناطق سيطرة روما للبحث عن أرض جديدة يستوطنون بها, عدا عن تحركات بشرية أخرى حدثت في الشمال الغربي من القبائل المعروفة بالقبائل الجرمانية التي ستشكل تحركاتها عالماً جديداً تماماً هو عالمنا الذي نعرفه اليوم بمسمياته وحدوده .

ولكثرة ما حدث من تغيرات وهجرات في تلك الفترة في العصور الوسطى فقد اصطلح على تسميتها ب "عصر الهجرات" والذي يمتد ما بين القرنين الرابع والثامن, حيث كانت تتجول في قلب أوروبا, الذي تحده أنهار الفيستولا والدانوب والراين العديد من القبائل التي قدر لها أن تغير خريطة أوروبا وتبدل أسماء أممها, مثل : القوط و الوندال و اللومبارد والفرنجة والسويفي والألماني والجبديين والانجلوساكسون... وغيرهم الكثير.[181]

ونجد أن السماح لبعض هؤلاء بالهجرة السلمية إلى داخل الإمبراطورية الرومانية قد ابتدأ في عهد مبكر منذ أيام أغسطس, حيث استخدمهم الرومان في الجيش, ولتعمير بعض المناطق. بل إننا نجد مثلاً أن ثيودسيوس عندما زحف إلى روما فقد كان جيشه

---

[181] قصة الحضارة

يتألف من كثير من الهون والقوط وأهل القوقاز وأيبيريا, بل أن كبار القادة كانوا من المهاجرين مثل جيناس وألريك القوطيين, واستلكو الوندالي.

ولم تتوقف هذه الحركات البشرية منذ البداية فقد كان عدد الغاليين في الإمبراطورية عشرين مليوناً أو يزيدون من أصل سكانها البالغ عددهم سبعين مليوناً, في حين لم يزد عدد الإيطاليين عن ستة ملايين, أما البقية الباقية فقد كانت كثرتها من الشرقيين الذين يتكلمون اليونانية, وقد استحالت روما نفسها منذ بداية القرن الثاني الميلادي إلى مدينة شرقية من حيث الأجناس التي تسكنها[182]

ورغم الإصلاحات التي قام بها دقلديانوس إلا أن الحرب الأهلية اللاحقة ونقل العاصمة من روما إلى القسطنطينية ساهم في إضعاف إيطاليا أكثر. فما أن كاد ينتهي القرن الرابع حتى أصبح أغلبية السكان في بلاد البلقان والغال هم من هؤلاء الغرباء, وحتى مناصب الدولة الكبرى أصبحت في أيدي بعضهم كم مر.

وإن كنا نتحدث في البداية عن محاولات هؤلاء البرابرة من الدخول في المجتمع الروماني الأرقى عنهم , فإننا نجد في نهاية القرن الرابع أن الرومان بدأوا يقلدون هؤلاء البرابرة في طريقة

---

[182] قصة الحضارة

لبسـهم ومظهـرهم, وهـو أمـر اسـتثار غضـب الأبـاطرة الـذين أصدروا مراسيم في تحريم هذه الثياب بين (397-416 م)

أما الجرمان أو التيتون فقد كانوا يسكونون في البداية فـي حـوض بحـر البلطيـق واسكندنافيا, ويبـدو أن الرومـان أخـذوا الاسـم مـن سكان الغال الـذين كـانوا يـدعونهم "جرمـان" التـي تعنـي الغربـاء, وقد أخذ هؤلاء الجرمان ينشترون من القرن الأول والثـاني ولكـن فـي القـرن الرابـع بـدأ انتشـارهم يأخـذ منحـى أكثـر حـدة نتيجـة للضغوط والظروف التي تعرضوا لهـا, وقد كـانوا وثنـين يعبـدون مظـاهر الطبيعـة , لكـنهم وبعـد هجـرتهم ودخـولهم إلـى الأراضـي الإمبراطورية فقد بدئوا يعتنقون المسيحية.

وقد كان لهذه الهجرات دور مهم في القضـاء علـى أوروبـا القديمـة وبروز صـورة أوروبـا العصـور الوسطى والحديثـة التـي نعرفهـا اليوم. فقد أدت إلى دخول دم ألماني غزيـر فـي إيطاليـا, ودم غـالي في إسبانيا, ودم آسيوي فـي روسـيا والبلقـان ودول المجـر. وهكذا انمحت الإمبراطورية الغربية لكن دول أوروبا الحديثة ولدت.

وسنتنـاول بعض هذه التحركات بشـيء من التفصيل.

الكلت:

قبل أن نبدأ بالتعريف بتلك الشعوب والقبائل الجرمانية والآسيوية يجدر بنا أولاً التعريف بأقرب الجيران لروما, وهم "الكلتيون" Celts والذين دعاهم الرومان باسم "الغاليون" ودعوا بلادهم التي تعرف اليوم بفرنسا تقريباً باسم "بلاد الغال"[183] وكثير مما نعرفه من معلومات عنهم جاءت من خلال روايات يوليوس قيصر الذي قاد هناك حملات عسكرية لبسط سيطرة روما, إن كان لنا أن نصدق رواية المنتصر, أما الإغريق فقد دعوهم باسم "الغلاطيون" وقد ورد أقدم ذكر لهم على لسان هيرودوت الذي قال أن الدانوب ينبع من بلادهم.

وكان الكلت في العصور المبكرة يستوطنون الغابات الواقعة شمال أوروبا ثم قاموا بحركة توسعية وهجرات كبرى حتى هددوا في حينها جمهورية روما الناشئة بالزوال, إذ تدفقوا عبر جبال الألب واحتلوا شمال ايطاليا بعد أن طردوا الإيتروسكيين, واتخذوا مدينة ميلانو مركزاً لهم, ثم زحفوا نحو روما وهزموا الجيش الروماني في معركة آليا عام 387 ق.م واحتلوا روما ونهبوها ولكنهم رحلوا عنها مقابل فدية, ثم في عام 225ق.م

---

[183] تاريخ أوروبا في العصور الوسطى, سعيد عاشور

هزموا وانسحبوا من ميلانو أيضاً والمناطق في شمال ايطاليا التي أطلق عليها الرومان اسم "غاليا القريبة" أصبحت منذ ذلك الحين ولاية رومانية.

أما غاليا البعيدة أو بلاد الغال فقد كانت إحدى أشهر مناطقهم, وجاء استيطانهم لها عبر موجات متلاحقة من الهجرات حتى وصلوا إلى مناطق جنوب فرنسا اليوم واسبانيا وعبروا إلى شبه الجزيرة الإيبيرية حيث اختلطوا بالشعوب الساكنة هناك وكونوا ما عرف باسم الإيبيريين الكلتيين.

ولم يقتصر انتشارهم على هذه المناطق فقط بل أنهم انتشروا شرقاً وهاجموا البلقان وبلاد اليونان واحتلوا مقدونية عام 279ق.م وعبروا الدردنيل إلى آسيا الصغرى حيث اصطدموا هناك بالملك السلوقي انطيخوس الأول الذي هزمهم عام 275ق.م فأطلق عليه الإغريق لقب "سوتير" أو المنقذ, لكن يبدو أنه لم يتمكن من القضاء عليهم بشكل تام فسمح لهم بالاستيطان هناك في منطقة عرفت باسمهم "غلاطية" وهي التي زارها بولس الرسول وكتب الرسالة الشهيرة إلى أهلها يدعوهم بها إلى اعتناق المسيحية, كذلك فقد زارها القديس هيرونيموس في القرن الخامس وسمع أهلها يتكلمون باللغة الكلتية.[184]

---

[184] الموسوعة العربية

أما فـي الغـرب فقد انتشـروا حتـى وصـلوا إلـى الجـزر البريطانيـة حيـث بـدئوا بالاسـتيطان هنـاك منـذ القـرن الخـامس قبـل المـيلاد واسـتمرت التعزيـزات تـأتيهم عـن طريـق هجـرات لاحقـة حتـى أصـبحت هـذه الجـزر أهـم معاقـل الكلتيـة الباقيـة حتـى يومنـا هـذا فبالرغم من سيطرة الرومان على أجزاء مـن الجزيـرة البريطانيـة إلا أن إيرلندا بقيت خارج سيطرتهم كما أن سيطرتهم في المناطق التي احتلوها كانت اضعف وذلك لبعدها عن روما.

وأمام هذا الانتشـار الواسـع فـإن بسـط سيطرة رومـا كـان لابـد أن يكـون علـى حسـاب الكلتيين, فبعد أن طـردهم الرومـان مـن شـمال ايطاليا واحتلوا اسبانيا كذلك فقد سعوا لبسط سيطرتهم علـى بـلاد الغال نفسها فاستغلوا دعوة من حلفائهم الإغريـق فـي مرسـيليا فـي عام 125ق.م واحتلوا جنوب فرنسـا وجعلـوا منـه ولايـة رومانيـة, وفـي عـام 59 ق.م أصـبح يوليـوس قيصـر واليـاً عليهـا لمـدة عشـر سنوات فاسـتغل تهديـد القبائـل الجرمانيـة واجتـاح المنـاطق الباقيـة وبسـط سـيطرته عليهـا, ولكـن الكلتيـين قـاموا بـالثورة عليـه تحـت قيـادة زعـيمهم فيرسـنغيتركس ولكـنهم هزمـوا واستسـلموا واعـدم زعيمهم الثائر في روما عام 52ق.م

أما اليوم فإننا نجد أهم الأثار الباقيـة للكلتيين فـي الجانـب اللغـوي حيـث تمثـل اللغـات الايرلنديـة والاسـكتلندية والويلزيـة أحـد أهـم

اللغـات الكلتيــة الباقيــة. وفــي الجانــب الأدبــي والأسـطوري فــي قصص الملك أرثر والملكة بوديكا.



تمثال لفيرسنغيتركس نصب في موقع معركة إليسيا في فرنسا

الهون

يعتبر الزيونج نـو Hsiung – nu أو الهيـونج نـو Hung-nu أو الذين اشتهروا بـالهون[185] من القبائل الأسيوية التركيـة المغوليـة, ويعتقد أن مـوطنهم الأصـلي شـرقي سيبيريا أو صـحراء جـوبي,

[185] قصة الحضارة

ويبدو أنهم كانوا يميلون للغزو والنهب لذا يعتبر البعض أن غزواتهم في الجانب الشرقي كانت السبب الرئيسي لبناء سور الصين العظيم لصدهم عن التقدم وتهديد الإمبراطورية الصينية حوالي العام 200 ق.م , ويبدو أنه وبسبب الظروف المناخية من جهة وتمكن الملوك الصينيين الأقوياء من صدهم من جهة أخرى فقد يمموا وجههم شطر أوروبا والإمبراطورية الرومانية في منتصف القرن الرابع الميلادي, فاندفعوا بشدة في السهول الواقعة بين بحر قزوين وجبال أوروبا فانقضوا على كل من وقع في طريقهم من القوط الذين تراجعوا أمامهم حتى عبروا الدانوب, والسلاف الذين وقعوا بين الهون من اليمين والجرمان من اليسار فتعرضوا لكثير من المتاعب والحروب والأسر حتى اشتق اسم عبد Slave من اسمهم[186]

كان هؤلاء الهون يتخذون الحرب صناعة لهم ورعاية الماشية رياضتهم وبلادهم كما ورد في أمثالهم هي ظهور خيلهم, فانطلقوا مسلحين بالأقواس والسهام وسحنتهم التي بدت لسكان تلك المناطق بأنها مرعبة, فعبروا الفولجا سنة 372م وانقضوا على القوط الشرقيين الذين قاوموهم بشدة لكنهم هزموا فاستسلم بعضهم واندمجوا معاً, وفي عام 447م دخلوا إلى تراقية وتساليا

[186] تاريخ أوروبا في العصور الوسطى

وسكوذيا ونهبوا الكثير من المدن وساقوا الآلاف من السبايا, فنشأ من ذلك جيل اختلطت فيه دماء الفاتحين والمغلوبين بشكل ترك أثاره في الملامح المغولية في الأقاليم الممتدة من الشرق حتى بافاريا[187]

تباطأ بعد ذلك سير الهون في تلك المناطق فكانت هجرة على مهل حيث استقروا في بلاد المجر واخضعوا لحكمهم العديد من القبائل الجرمانية. وفي عام 433م مات ملكهم المدعو روا ليورث العرش لابني أخيه أتيلا وبليدا, ثم ما لبث أتيلا الهوني أن قتل أخيه واستأثر بالحكم لوحده لتبدأ به إحدى أكثر الشخصيات رعباً في العصور الوسطى, وإحدى أشهر قصص الاجتياح السريع لقبائل متنقلة لعالم مستقر.

انطلق أتيلا في عام 447م فحاصر القسطنطينية التي كانت عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية فلم يمنعه عنها سوى فدية دفعها الإمبراطور ثيودوسيوس, فتركها واتجه صوب الشق الغربي من الإمبراطورية فلما رفض الإمبراطور فالنتيان دفع الفدية ادعى أتيلا أن شقيقة الإمبراطور قد أرسلت وعرضت عليه الزوج فعبر الراين عام 450م ومعه نصف مليون مقاتل, مما جعل الرومان و القوط يتحالفون لرد هذا الخطر الداهم

---

[187] قصة الحضارة

فصدوه عن روما في عام 451م في معركة من أشد معارك التاريخ هولاً,جرت فيها دماء القتلى انهاراً, حتى ليقال بأنه قتل فيها 162 ألف رجل من بينهم ملك القوط, لكن النصر لم يكن حاسماً فأعاد أتيلا الكرة في العام اللاحق ولم يصده عن روما بعد أن اقتحم شمال ايطاليا سوى مهابة البابا ليو الكبير الذي أعطاه فدية ووعده بإتمام الزواج من شقيقة الإمبراطور في وقت لاحق[188], لكنه وفي عام 453م وفي ليلة زواجه من عروس جرمانية توفي أتيلا تاركاً خلفية أمبراطورية متداعية لم تقم له بعدها قائمة فسرعان ما تمزق الهون وزال خطرهم بعد أن كانوا أقوى قوة في أوروبا يدفع لها أباطرة الإمبراطورية الشرقية والغربية الجزية, ليبرز خطر قبائل جديدة لتهدد روما بدورها بعد أن كانت تقف في صفها, وفي مقدمة هؤلاء القوط.

القوط

يدعي القوط أن موطنهم الأصلي كان في جنوبي السويد و جزائرها الصغرى, لكنهم انطلقوا من هناك باتجاه الجنوب والشرق حتى وصلوا إلى مناطق البحر الأسود حيث انقسموا إلى قوط شرقيين استوطنوا شمال البحر الأسود, وقوط غربيين إلى

---

188 قصة الحضارة

غرب وجنوب البحر الأسود قرب الدانوب, وبدأ يظهر خطرهم على الإمبراطورية الرومانية منذ عهد كراكلا (217-211م) حيث هاجموا إقليم داشيا وبقوا خمسين سنة يعيثون فساداً في تلك المناطق حتى هزمهم كلوديوس الثاني حوالي عام 270 م

لكن الرومان اختاروا في هذا العهد محاولة تجنب الصدام مع القوط منذ عهد الإمبراطور أورليان (275-270م) فسحبوا الموظفين والجيش الروماني من إقليم داشيا للسماح للقوط بالاستقرار فيه, وفعلا بدئوا بالاستقرار هناك والتأثر بالتيارات الحضارية الرومانية والابتعاد عن حياة السلب والغزو, واعتنقوا الديانة المسيحية في مذهبها الأريوسي عن طريق مبشر اسمه "ولفلاس" (361-311م) وكان اعتناق هذا المذهب المخالف لمذهب الإمبراطورية أثر بعيد في الأحداث اللاحقة وتأثر بقية الجرمان به وعلى رأسهم الوندال.

لكن ضغط قبائل الهون الأسيوية على القوط الغربيين دفعهم بقوة إلى حدود الإمبراطورية, وطلبوا من الإمبراطور فالنس السماح لهم بعبور الدانوب لتجنب هجوم الهون, فسمح لهم بذلك عام 376م حيث عبر ما يقارب المليون من الرجال والنساء والأطفال النهر, ولكنهم أصيبوا هناك بالمجاعة فاضطروا أن يبيعوا أطفالهم رقيقا لينجوا من الهلاك جوعاً, فتمردوا على الرومان

وبدئوا بأعمال تخريبية مما جعل الإمبراطور فالنس ينطلق لملاقاتهم بقوة صغيرة في معركة أدريانوبل عام 378م حيث هزم وقتل ضمن من ثلثي الجيش الروماني في أشنع هزيمة حلت بالرومان.

كان الإمبراطور ثيودسيوس قد استمال القوط بدفع معونة سنوية مالية تحت على اعتبارهم حلفاء للإمبراطورية لكنه لما مات قام خلفه بقطع هذه المعونة مما أدى سنة 395م بالقوط إلى التمرد تحت قيادة زعيمهم الشهير "ألريك" الذي قال لهم أنه لا يعرف كيف يرضى القوط الشجعان بحياة الخضوع للرومان الضعفاء على حين أنه يمكنهم اقتطاع ما شاءوا مملكة لهم من أرض الإمبراطورية.

فزحف بهم إلى بلاد اليونان, وذبحوا كل من لاقوه في طريقهم حتى خربوا البلوبونيز وقابلهم القائد الجرماني للجيوش الرومانية استلكو, ثم ما لبثوا في عام 401م أن تقدموا باتجاه روما فصدهم استلكو مرة ثانية لكنه لم يقض على خطرهم بل إنهم تحصلوا على فديه ضخمة من الإمبراطور هنريوس .

لكن هذا الإمبراطور المتردد استجاب لبعض المؤامرات التي كانت تحاك وتتهم قائده الجرماني المقتدر بالعمالة للقبائل الجرمانية فقام بقتله, ثم قتل كثير من قادة جنده, فلما سمع ألريك

بذلك استغل الفرصة السانحة وانطلق غازياً إيطاليا متذرعاً بحجة عدم استلامه للجزية المتفق عليها فاقتحم روما واستباحها في العام 410م لكنه توفي بعد ذلك ليتسلم قيادة القوط من بعده صهره "أدلف" Adolf الذي رضي بأن يسحب قواته من إيطاليا على شريطة أن يتزوج أخت بلاسيديا الإمبراطور الروماني وأن يعطى جنوب بلاد الغال ليؤسس مملكته هناك, فاتخذ من طولوشة "تولوز" عاصمة له في العام 418م حيث استقر القوط وأسسوا مملكتهم التي استمرت حتى الفتح العربي لتلك المناطق.

الوندال (الفاندال)

كان الوندال يسكنون الأجزاء الوسطى والشرقية من روسيا الحالية, وقبيل حكم قسطنطين زحفوا جنوباً إلى بلاد المجر لكن القوط الغربيون بددوا شملهم في إحدى المعارك الحربية, فطلبوا من الرومان السماح لهم بعبور الدانوب فتم لهم ذلك. وبقوا يتكاثرون في تلك الأنحاء لما يقارب سبعين سنة, فلما سحبت الإمبراطورية قواتها في بلاد الغال لمواجهة ألريك, اغتنم هؤلاء الفرصة عام 406م وعبروا الراين واستمروا يخربون ويضربون يمنة ويسرة لمدة ثلاث سنوات, حتى إذا حل عام 409م دخلوا

إلى إسبانيا وكان عددهم وقتئذ حوالي مئة ألف, ونظراً لأهمية ولاية إسبانيا للإمبراطورية الرومانية ولعجز قواتها عن استعادتها فقد أغرى الإمبراطور القوط الذين منحهم أرض في جنوب بلاد الغال كما مر بمحاربة الوندال, فاندفعوا يضغطون عليهم من الشمال, فتراجع الوندال إلى جنوب شبة الجزيرة الإيبرية إلى المناطق التي عرفت منذ ذلك الحين باسمهم "بلاد الأندلس" .[189]

ثم وفي عام 429م عبروا إلى الساحل الأفريقي بقيادة ملكهم جيسيريك ومعه ما يقارب ثمانين ألفاً من الرجال والنساء والأطفال[190], ويقال أن عبورهم هذا كان بدعوة من الحاكم الروماني هناك لما أحس ببعض المؤامرات التي تحاك ضده في روما, وأي يكن الحال فقد اكتسح هؤلاء شمال أفريقيا, وبقوا هناك يتحيونون الفرص لاحتلال قرطاجة وهي أهم مدن الإمبراطورية بعد روما, فلما كان العام 439م سقطت بيدهم وتم لهم الاستيلاء على أهم مناطق شمال أفريقيا حيث حكموها حكم استبدادي واضطهدوا السكان الذين يدينون بالكاثوليكية لأن الوندال كانوا أريوسيي المذهب, حتى أصبح لفظ الوندالية

---

[189] قصة الحضارة

[190] تاريخ أوروبا في العصور الوسطى.

Vandalism مرادفـاً فـي اللغـات الأوروبيـة الحديثـة للهمجيـة والوحشية.

وانطلقوا مـن قرطـاج حيـث أسسـوا لهـم أسـطولاً قويـاً بغـزوات استهدفت سواحل المتوسط في إيطاليا وأسبانيا واليونـان وصـقلية, ثم وفي عام 455م هاجموا روما ونهبوها نهباً تامـاً وأخـذوا معهـم الإمبراطورة وبناتها, حيث تـزوج هنريـك ابـن جيسـيريك بإحـدى البنـات وأرسـلت البقيـة إلـى القسـطنطينية, وكانـت هـذه الضـربة قاضية لروما حيث مرت بفترة من الفوضـى لمدة عشـرين سـنة لتنتهي سلسلة الأباطرة في الغرب في عام 476م.

لم يبق من قوة قادرة علـى هزيمـة الونـدال سـوى الإمبراطوريـة الشرقية, فعزم الإمبراطور فـي القسـطنطينية علـى القضـاء علـيهم فأرسـل لهـم أسـطولاً ضـخماً لكنـه منـي بهزيمـة قـرب سـواحل قرطاجـة, ثـم كـرروا المحاولـة مـرة أخـرى سـنة 534م علـى يـد بلزاريوس قائد جيوش الإمبراطور جستنيان, فهزم الوندال وأسـر ملكهم وأرسل ليعدم فـي القسـطنطينية لتنتهـي بـذلك مملكتـهم التـي استمرت ما يقارب القرن من الزمان .

اللومبارد

ينتمي اللومبارد إلى قبيلة كانت تسمى في البداية قبيلة " وينيلي" من الشعوب الجرمانية التي تسكن الساحل الجنوبي لشبه جزيرة اسكندناوة, هاجروا خلال القرن الأول والثاني الميلادي إلى ضفاف نهر الإلبه, ثم غادروه بعد فترة نهائياً إلى مناطق وسط الدانوب.

عرف عن اللومبارد قلة عددهم بالنسبة لبقية الجرمان, وشراستهم حتى مقارنة في القبائل الأكثر عدداً, حيث اصطدموا في بداية وصولهم إلى مناطق الدانوب مع الوندال الذين يكثرونهم عدداً, فلم يفت ذلك في عضدهم ولم يتراجعوا بل إنهم هزموا الوندال, ثم تحالفوا لاحقاً مع الآفار ضد قبائل الجيبداي فهزموها واستوطنوا إقليم بانونيا في أوروبا الوسطى, لكنهم لم يلبثوا به طويلاً لعدة أسباب, فمن جهة تخوفهم من الآفار جيرانهم وحلفائهم السابقين الذين يكثرونهم عدداً, ومن جهة أخرى فإن وضع إيطاليا المفكك كان يغريهم بغزوها, كما أن ميلهم الفطري للتجوال مازال مشتعلاً فيهم. وهنا لابد من الأشارة أن اسمهم تغير من الونيلي إلى اللومبارد التي يعتقد أن أصلها هو "لونغبارد" بمعنى أصحاب اللحى الطويلة Longbardi

وما أن حلت سنة 566 م حتى تولى حكمهم ملك طموح اسمه "ألبوين", فتنازل للآفار عن أقليم بانونيا شريطة أن يعيدوه له في حال عودته من إيطاليا صفر اليدين, فانطلق هو وقومه من رجال ونساء وعبيد وأطفال ومعهم متاعهم وماشيتهم ولفيف مختلط من قبائل أخرى مثل الجيبيداي والبلغاريين والبافاريين والسامارتيين وعشرون ألف سكسوني مع زوجاتهم وأطفالهم ويقدر العدد الإجمالي لهم بما يقارب مئة ألف مهاجر. كان غالبيتهم يعتنقون المسيحية على المذهب الآريوسي المخالف للمذهب الكاثوليكي السائد في إيطاليا في حين احتفظ البعض الآخر بوثنيته.

عبر ألبوين ومن معه جبال الألب الشرقية وانحدروا إلى إيطاليا المنهكة من اجتياحات الجرمان السابقة والتي تخضع لسلطة ضعيفة من الإمبراطورية البيزنطية, فبدأت تسقط في يده المدن تباعاً الواحدة تلو الأخرى ولم يجد مقاومة تذكر سوى من مدينة بافيا التي استمر حصارها لمدة ثلاث سنوات, حتى استسلمت عام 572م فعفا ألبوين عن سكانها بعد أن توعدهم بالقتل الشامل, واتخذها عاصمة له, واتخذ لقب "سيد إيطاليا" ومنذ ذلك الحين أصبح ذلك الإقليم يسمى "لومبارديا" حتى اليوم.

لم يعش "ألبوين" بعد ذلك طويلاً حيث تعرض للإغتيال على يد زوجته ابنة ملك الجيبيديين الذين سبق أن هزمهم وأتخذ من

جمجمة ملكهم كأساً لشرابه, فلما دعا زوجته للشرب بتلك الكأس بعد سنوات قررت الأنتقام بمساعدة احد الحراس الشخصيين, فقتلوه وهربوا إلى مناطق سيطرة البيزنطيين حيث قتلا نفسهما.

تولى ملك اللومبارد "كيف" بعد ألبوين ,واستمر اللومبارد في فتح المدن فتوجهوا إلى توسكاني جنوباً, ثم إلى بقية إيطاليا حتى لم يبق في يد البيزنطيين سوى مدينتي روما و رافينا يربطهما ممر ضيق. واصبح عدد الدوقيات في إيطاليا 35 دوقية لومباردية.

لم يطل حكم "كيف" أكثر من ثمانية عشر شهراُ حيث تعرض هو الآخر للاغتيال, فاجتمع دوقات اللومبارد لتعيين خليفة له لكنهم لم يتفقوا على أحد, فاستقل كل منهم بدوقيته, وعرفت هذه الفترة في تاريخهم باسم فترة الشغور, استمرت لمدة عشر سنوات من عام 574م حتى 584م. ومما زاد الأمر سوءاً وضعفاً أن المهاجرين السكسون الذين رافقوا ألبوين وكان عددهم يقارب عشرين ألفاً قد اختاروا العودة إلى وطنهم للحفاظ على تقاليدهم, فوافق لهم ملك الفرنجة على المرور بمملكته للعبور إلى جرمانيا.

لما شعر اللومبارد بالضعف و بالخطر المتزايد لمملكة الفرنجة التي وجدت الدعم والتحفيز من الإمبراطورية البيزنطية لتحرير

إيطاليا من قبضة اللومبارد. نصبوا " أوتاري" ابن "كيف" ملكاً عليهم.استمر حكمه حتى 591م ثم خلفه بعض الملوك الضعاف الذين أنهكتهم الصراعات الداخلية حتى تولى في عام 712م الحكم "ليوتبراند" فوسع حدود المملكة وبلغت في عهده أقصى اتساعها.

في عام 772م حاول ديسيديروس ملك اللومبارد دخول روما للمرة الأولى فنجح في ذلك, فما كان من البابا سوى الاستنجاد بملك الفرنجة القوي "شارلمان" الذي هب لنجدته يحدوه الأمل بتوسيع حدود مملكته فنجح في إسقاط عاصمة اللومبارد عام 774م واتخذ منذ ذلك الحين لقب :ملك الفرنجة و اللومبارد".

تميز اللومبارد عن غيرهم من الجرمان بأنهم لم يحتكوا كثيراً بالحضارة الرومانية قبل دخولهم إلى ايطاليا, فاستمر الرومان بالنظر إليهم على أنهم غرباء همجيين, أضف إلى ذلك أن إتباعهم للمذهب الأريوسي قد زاد الفجوة بينهم وبين السكان الذي يكثرونهم عدداً بأضعاف مضاعفة. لذا فلم تجر سنة إتباع المغلوب للغالب في حالة اللومبارد فلم يتبع الرومان سننهم في الملبس واللغة والثقافة بل أن اللومبارد هم الذين ترومنوا حتى أصبحت ثياب الأجداد تعتبر شيئاً غريباً حتى قامت الملكة

ثيوديلينا برسم صور لتلك الثياب والاشكال على جدران قصرها عام 600م.

لم يتخل اللومبارد عن ثيابهم فقط بل إنهم ومن خلال الاختلاط والمصاهرة مع الرومان فقد أجبروا على تعلم اللغة اللاتينية حتى اضمحلت لغتهم, كذلك فقد ظل اللومبارد يتبعون المذهب الأريوسي حتى أعتلى كرسي البابوية البابا جريجوري العظيم (590-604م) الذي أرسل إلى جميع أساقفة ايطاليا يحضهم على أن يبذلوا كل جهدهم لتحويل اللومبارد إلى الكاثوليكية و هدايتهم إلى الدين القويم, فاستمر اللومبارد بالتحول إلى الكاثوليكية حتى حل عهد ملكهم كونبرت الذي عقد في عام 698م مؤتمراً كنسياً اعترف بمقتضاه أن الحكومة اللومباردية اعتمدت المذهب الكاثوليكي كمذهبها الرسمي .

منذ ذلك الحين وبعد سقوط دولتهم ذاب اللومبارد في النسيج الإيطالي وما زال اسمهم خالداً حتى اليوم في الإقليم المدعو لومبارديا.[191]

---

[191] اللومبارديون في التاريخ والحضارة.

الفرنجة

يعتبر الفرنجة Francs من القبائل الجرمانية الهندو أوروبية أيضاً, ويبدو أنهم كانوا تجمعاً من قبائل متعددة خرجت عن سيطرة الإمبراطورية الرومانية, فكلمة فرنجة مشتقة في أصلها من المعنى الرجال الأحرار Free man

وقد كان أول من سمح لهم بعبور نهر الراين في عهد الإمبراطور يوليان (363-361م) حيث سمح لهم بعبور النهر والاستقرار في حوض الراين الأدنى في المنطقة المعروفة اليوم ببلجيكا, في ظل التزامهم ببعض الواجبات العسكرية المفروضة عليهم للإمبراطورية .

ومما تميز به الفرنجة عن غيرهم من الجرمان أنهم لم يهاجروا إلى أراضي الإمبراطورية على شكل هجرة عامة أو غزو كالقوط والوندال وغيرهم, بل أنهم تسربوا وانتشروا ببطء انطلاقاً من أرضهم الأم التي لم يقطعوا الصلة بها تماماً فاحتفظوا بكثير من مميزاتهم. وقد كانت غايتهم استيطان الأراضي القريبة منهم في ولاية بلاد الغال, فاستمروا باستهدافها ابتداء من القرن الثالث, ولما كان أن سقطت الإمبراطورية الغربية عام 476م, اغتنم الفرجة هذه الفرصة ودخلوا بلاد الغال واستخلصوها لأنفسهم

وأسسوا فيها مملكة خاصة, باسم مملكة الفرنجة, وهكذا اختفى اسم بلاد الغال من التاريخ.

يعتبر "كلوفيس" (486-511 م) المؤسس الحقيقي لدولة الفرنجة, حيث تمكن من توحيد بلاد الغال كلها تحت حكمه الموحد, كما وحدة قبائل الفرنجة المتفرقة في شعب واحد, وتخلص من القيادات التي تشكل خطراً عليه وعلى هذه الوحدة. ثم كان أن تخلى عن وثنيته و اعتنق الديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكي الموافق لمذهب سكان الإمبراطورية ومخالفاُ بذلك المذهب الأريوسي الذي اعتنقه بقية البرابرة, فاكتسب الفرنجة بذلك ميزة إضافية عدا عما سبق ذكره, حيث وقف إلى جانبه البابا ورجال الدين الكاثوليكي, وأصبح الفرنجة هم المدافعين عن الكنسية, لذا نجدهم في عهد أشهر ملوكهم "شارلمان" يحاربون اللومبارد لإنقاذ إيطاليا ويضمونها تحت حكمهم, ليقوم البابا بنفسه عام 800 م بتنصيب شارلمان إمبراطوراً جديداً بعد سقوط آخر الأباطرة لما يقارب 300 سنة, وهكذا بسط الفرنجة سلطتهم على كافة جنوب غرب أوروبا باستثناء إسبانيا التي كانت تحت سيطرة المسلمين. وهكذا تحول اسم بلاد الغال إلى فرنسا التي اشتق اسمها من اسم الفرنجة.

الأنجلو-ساكسون

كان الرومان يحكمون الجزيرة البريطانية منذ قرون, ولكنهم لما أحسوا بالتهديد في عقر دارهم في روما في القرن الرابع, فقد قاموا بسحب جيوشهم وتركوا الجزيرة تواجه مصيرها بنفسها.

ولما كانت القبائل الجرمانية تضرب في عرض القارة والأوروبية وطولها, فقد اتجهت بعض القبائل إلى بريطانيا لتكون موطنها الجديد, وكان أهم هذه القبائل هي قبائل الأنجلو وقبائل السكسون.

فقد بدئوا منذ منتصف القرن الخامس الميلادي يغيرون على بريطانيا حتى استولوا عليها في مطلع القرن السابع الميلادي, حيث أسسوا في الجزء الشرقي والأوسط سبع ممالك هي : كنت Kent و سسكس Sussex و وسكس Wesex وإسكس Essex وأنغليا Anglia ونورثمبيا Northumbia وميرسيا Mercia وقد عرفت بريطانيا في تلك الفترة باسم بلاد السبع ممالك.

ولم يكن فتح الجرمان لبريطانيا سلمياً بالطبع, فقد واجهوا مقاومة من السكان الكلت السابقين, الذين استمروا في التراجع إلى الأطراف وإلى المنطقة المعروفة اليوم باسم ويلز, وهي كلمة من

جـذور جرمانيـة تعنـى الغربـاء أو الأجانـب ! وكـان يقصـد بهـا الجرمان السكان السابقين من الكلت, ودعوا أرضهم ب "ويلاش" و ابتـداء مـن القـرن السـابع أخـذ هـؤلاء الأنجلوساكسـون بـالتحول إلـى الديانـة المسـيحية, ثـم وبعـد حـروب أهليـة طويلـة بـين هـذه الممالـك, فقـد تمكـن الملـك إيغبـرت (839-802م) وبمسـاعدة التهديد الذي أحسوا بـه مـن البـر الأوروبـي أن يوحـد هـذه الممالـك في مملكـة واحـدة, وهكـذا ولـدت المملكـة الإنجليزيـة, لكـن التهـديد الذي ابتدأ من القارة سيكون له أثر بعيد بعد حين مـن الزمـان, فقـد كـان النورمـان يتحفـزون لعبـور هـذا الفاصـل البحـري الصـغير للحصول على هذه الأرض الخصبة.

النورمان

النورمـان أو رجـال الشـمال North Man مـن السـكان القـدماء لاسـكندنافيا, لمـا أحسـوا بضـعف مملكـة الفرنجـة بـدئوا بالإغـارة عليهـا فـي حكـم ملوكهـا الضـعاف "شـارل الطيـب" و "شـارل البدين" , وقد كانوا تحت قيادة رجل نرويجـي عمـلاق لدرجـة أنـه لم يجد حصاناً يحمله, اسمه رولو Rollo , ولما يئس الفرنجة من صدهم فقد التقى بهم الملك الفرنسـي وأعطـاهم الأرض فيمـا بـين

النهر[192] والبحر, شريطة أن يكونوا تابعين للملك الفرنسي, وأن يعملوا على صد هجمات الفايكنج القادمين من الشمال.

وهناك هذب الدفء نفوسهم فتزوجوا من السكان المحليين وهجروا لغتهم الإسكندنافية وهجروا دين الأجداد واعتنقوا المسيحية[193], وهكذا استوطنوا تلك المنطقة في شمال فرنسا التي ما زالت تعرف حتى اليوم باسمهم "نورماندي"

ورغم استقرارهم إلا رغبتهم بالغزو لم تهدأ, فلما توفي الملك الإنجليزي إدوارد المعترف, أعلن وليام دوق نورماندي أن الملك قد وعده بأنه سيكون خليفته قبل أن يموت, لكن الإنجليز لم يستمعوا له ونصبوا "هارولد" ملكاً عليهم, فكان أن جهز وليام جيشه ويمم وجهه شطر الجزيرة الإنجليزية.

وفي العام 1066م – وهو العام الأشهر في التاريخ الإنجليزي- وصل وليام إلى إنجلترا حيث هزم هارولد وقتله في معركة "هاستغنز" وبدأ بالتقدم وبسط سيطرته على ممالك الأنجلوساكسون, واستمر في التقدم واجتياح كل ما هو أمامه من مقاومة حتى وصل إلى يورك في الشمال.

وفي عام 1087 م وعلى فراش الموت أعلن وليام الفاتح ندمه على ما فعله من قسوة وعنف بسكان تلك الجزيرة ولكن النتيجة

---

192 نهر السين

193 اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها.

كانت وبسبب من الحرب والمجاعة فقد قتل ومات مئات الألوف من السكان الذين حل محلهم النورمان, وبهذا انتهى حكم الأنجلوساكسون وحلت محلهم ثقافة النورمان الذين سيشيدون في بريطانية أجمل الكنائس و القلاع التي كان من بينها برج لندن.

ولم يكتف النورمان بهذا القدر بل وصل بعضهم إلى صقلية حيث استردوها من المسلمين بعد حكم امتد لقرنين من الزمان, وكذلك شاركوا بحماس منقطع النظير في الحروب الصليبية .

الفصل الخامس

العرب

تمهيد

قبل أن نبدأ بسرد تحركات العرب وتوسعهم في العصور الوسطى يستحسن بنا توضيح أمرين هامين, أولهما مدلول لفظة "العرب" وأصلها, وثانيهما علاقة العرب بالساميين وبالهجرات السامية القديمة التي سبق أن تحدثنا عنها.

أما لفظ "العرب" فهو لفظ مشكل, وعند البحث عن أقدم ذكر موثق وصل إلينا فإننا نجد أن "نرام سين" الأكادي قد ذكر حوالي عام 2250ق.م أنه قد استولى على الأرض التي سكانها العرب (Arabu) (Aribu) والتي يبدو أنها تعني بعض الإمارات أو المشيخات التي كونها بعض البدو غرب الفرات, وهي تشبه بذلك إمارة الحيرة التي أسست لاحقاً[194]

كذلك فقد ورد نص مشابه يرجع للملك الأشوري شملنصر الثالث الذي انتصر في العام 853 ق.م في حماة على تحالف من الأمراء, كان من بينهم أمير يدعى "جنديبو" العربي.

---

[194] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام

ونجد في التوراة أيضا أنهم كانوا يعانون من غزوات يشنها عليهم بعض البدو الذين كالجراد كثرتهم, حيث يغزونهم على الجمال وينهبون كل ما يقع أمامهم.

لذا يبدو أن لفظ "عرب" لم يكن يدل على "عرق" بقدر ما يدل على نظام حياة, وهو لفظ يرادف لفظ "البدو" بغض النظر عن أصل اشتقاق الكلمة, ويبدو أنه كان يستخدم غالباً للدلالة على القبائل المتجولة في شمال شبه الجزيرة وبادية العراق والشام حتى سيناء, بل أننا وفي وقت لاحق نجد هيرودوت يطلق لفظ العرب على كل من يقع شرق وادي النيل, وبالذات على منطقة سيناء, حيث ينسب لأمير هؤلاء البدو الفضل في تمكين الفرس من غزو مصر, لأن قطع الصحراء كان متعذراً على الجيش الفارسي لولا مساعدة هؤلاء البدو وتأمين الماء اللازم حتى يصلوا إلى مصر.

ويبدو أن دلالة الكلمة تطورت لاحقاً لتشمل سكان شبه الجزيرة عموماً بغض النظر عن كونهم أهل مدن أم من البدو في أزمان لاحقة, فالنصوص العبرانية كانت تشير في البداية إلى سكان وادي "العربة" بين البحر الميت وخليج العقبة باسم "عرب" إلا أنه و حوالي القرن الثالث قبل الميلاد فإننا نجدهم يطلقون لفظ

العرب على سكان شبه الجزيرة العربية كافة, بدوهم وحضرهم على السواء[195].

ولأن العرب أمة أمية بدوية فإنه من العسير علينا تتبع أصل اللفظ لديهم عن أنفسهم, ويبدو أن النظام القبلي السائد كان يشكل عائقاً كبيراً أمام أي أحساس عام بالهوية لدى هذه القبائل المختلفة والمتحاربة في كثير من الأحيان, حتى نصل إلى بداية ظهور الإسلام حيث تشكلت الهوية العربية بشكل أوضح.

أما الحديث عن الهجرات السامية القديمة وأصل التسمية فقد أشرنا لها سابقاً عن الحديث عن الهجرات في بلاد ما بين النهرين في العصور القديمة, إلا أنه ما ينبغي الإشارة له أن بعض الباحثين يربط بين تلك الهجرات وبين الهجرات اللاحقة التي سنتحدث عنها الآن على اعتبار أنها جميعا تشكل سلسلة واحدة, باتجاه واحد من المركز في شبه الجزيرة العربية باتجاه الأطراف في الشمال في العراق والشام. وإن صحت هذه الفكرة فيجب التساؤل عن السبب الذي يدفع هذه المجاميع للهجرات الجماعية خلال فترات متباعدة, وعن السبب في تكاثر الناس بشكل أكبر

---

195 تاريخ العرب القديم.

في بيئة لا تساعد كثيراً على الإنجاب والتكاثر من حيث قلة مواردها.

فإن صحت هذه النظرية فلا يمكننا إلا ربطها مع الروايات التي تتحدث عن غنى الجزيرة العربية وازدهارها في عهود قديمة, فقد ذكر هيرودوت أن هناك نهراً عظيما اسمه "كورس" يجري في الجزيرة العربية ويصب في البحر الأحمر. و ذكر بطليموس أن هناك نهراً أخر اسمه "لار" ينبع من منطقة نجران ويسير شرقاً و شمالاً مخترقاً وسط الجزيرة العربية ليصب في خليج العرب, ووجود الأنهار في العالم القديم يعني وجود الحضارة ولا شك فكل الحضارات المجاورة نشأت في أودية الأنهار, وإن كان البشر انتشروا من أفريقيا إلى العالم عن طريق العبور من هذه المنطقة, فمن يدري قد تكون تلك هي جنة عدن, وقد يكون هناك مدناً كاملة مدفونة تحت الرمال.

الأنباط

سكن الأنباط البتراء واتخذوها عاصمة لهم, واسمها مأخوذ من المسمى الروماني Arabia Petraea الذي يعني العربية الصخرية, نظراً لطبيعة المكان, أما الأنباط فسموها " سلع" التي تعني أيضا الصخر بلغة الآدوميين, وسماها العرب بالرقيم .

وقد قدم الأنباط إليها حوالي العام 500 ق.م وهم عرب رحل من شمال الحجاز أو أواسط شبه الجزيرة, وهناك تغلبوا على السكان السابقين من الآدوميين واندمجوا معهم خلال قرنين من الزمان وتعلموا منهم الحرف اليدوية والزراعة, وهي مهن كان وما زال العرب الرحل يزدرون من يعمل بها.

لم يتطرق المؤرخين العرب للأنباط, وجل المعلومات التي لدينا عنهم مأخوذة من مصادر يونانية و رومانية, وليس لدينا تسلسل محكم عن ملوكهم إلا أنه قد وردت في تلك المصادر بعض الأسماء, بالإضافة إلى وجود بعضها على النقوش الباقية حتى اليوم في المدينة المنحوتة على الصخر في البتراء في الأردن وكذلك في مدائن صالح في السعودية.

وقد تكرر كثيراً لديهم اسم الحارث, واشتهر منهم الحارث الرابع.

لما سكن الأنباط البتراء وتعلموا من أهلها السابقين الزراعة وتخزين مياه الأمطار ثم وبسبب الموقع الهام أصبحوا تجار مهرة, يبادلون السلع على الطريق القادم من الجزيرة العربية واليمن إلى الشام وأوروبا عن طريق ميناء غزة, الذين كان هاماً جداً في ذلك الوقت, فكونوا ثورات كبيرة, فطمع حكام المناطق المجاورة من خلفاء الإسكندر السلوقيين بسط سيطرتهم عليها, فأرسل لهم أنطيخوس حملة عسكرية قوامها أربعة آلاف جندي وستمائة فارس, فوصل إلى المدينة في حين لم يكن فيها الرجال المقاتلون, فاجتاحها وقتل من قتل ونهب ما فيها وعاد أدراجه مستعجلاً لعلمه بخطورة الطريق, ولم يعلم أن الأنباط علموا بذلك فتبعوه وباغتوه ليلاً, فكانت مذبحة الجيش المتعب, حيث لم ينجو منهم سوى خمسين فارس.

ونظراً للموقع الحصين للبتراء, فهي في منطقة جبلية حصينة وصعبة الوصول, ولكونها في فم الصحراء التي كان يخشاها الغرباء من اليونان والرومان بشكل كبير, فهي موت محقق لمن لا يعرف طرقها معرفة جيدة. فقد كانت صعبة الخضوع لتلك السلطات الإمبراطورية.

ولما ضعفت قبضة السلوقيين في مناطق الشام تطلع الأنباط لبسط سيطرتهم على المناطق المجاورة, فتمددوا وحكموا دمشق

مرتين. ووصلوا في الجنوب إلى مناطق الحجاز, ولكن لسوء حظهم فقد كانت الإمبراطورية الرومانية تعيش بداية مجدها, حيث بسطت سيطرتها على تلك المناطق, فخضع لهم الملوك الأنباط في البداية وبقوا حكاماً للبتراء, حتى إذا كان العام 106 م قضى تراجان على استقلالها تماماً وألحقها بسورية باسم "الكورة العربية" ونقل عاصمتها من البتراء إلى بصرى .وكان أخر ملوك الأنباط "ملكو الثالث"

ومنذ ذلك الحين بدأ يخبو نجم البتراء ويهجرها سكانها خصوصاً بعد بعض الزلازل التي تعرضت لها, وكان أول من زارها من الغربيين المستشرق بيركهارت عام 1812 م . ويقال أن قبيلة الحويطات الموجودة في الأردن اليوم هم من بقايا الأنباط.

وأخيراً فقد لعب الأنباط دوراً ثقافياً مهماً وهو أخذهم للخط الأرامي وتطويره, وهو الخط الذي تطور لاحقاً إلى الكتابة العربية التي نستعملها اليوم.



تـرك الأنبـاط مبـاني ومـدافن فائقـة الجمـال, مـزج فيـه الأسـلوب الروماني والأسلوب المصري . الصورة من البتراء.

المناذرة

لا شـك لـدى البـاحثين أن المنـاذرة مـن العـرب, ويطلـق علـيهم الإخباريون العديد من الألقاب مثل "المناذرة" و "آل لخم" و "آل تنوخ" وغيرها. ونسبهم بعض المؤرخين إلى عرب الجنوب, حيث قالوا أنهم يرجعون في نسبهم إلى كهلان, وإنما كان قدومهم

لمنطقة بلاد الرافدين كان بسبب تهدم سد مأرب. حيث نزحوا في البداية إلى منطقة ساحل الخليج العربي , ثم انتقلوا إلى الحيرة .

فيما نسبهم بعض الباحثين إلى القبائل العربية التي كانت تتجول في الشمال. والرأي الراجح أنهم قبائل عديدة فيها من القحطانية وفيها من العدنانية. ويروي الطبري أن بعض القبائل نزحت من تهامة إلى البحرين حيث وجدت أمامها من سبقهم من قبيلة الأزد, فاجتمعوا وتحالفوا وتعاقدوا وهكذا ضمهم اسم واحد هو "تنوخ".

ولما كنت الدولة الفارسية تعاني بعض الضعف, تقدم المتحالفون باتجاه الشمال حتى اقتربوا من ضفة الفرات اليسرى حيث نصبوا خيامهم في تلك البقعة, ويرجح أنه كانت هناك مدينة قديمة أخذ اسمها من الكلمة السيريانية "حرتا" التي تعني المخيم أو المعسكر, وهكذا نشأت الحيرة.

وكان سكانها بالإضافة لهؤلاء القادمين الجدد, بعض السكان السابقين اطلقوا عليهم اسم "العباد", كما جاء لاحقاً بعض "الحلفاء" لتنوخ, وفيها بعض "النبط" من العراقيين القدماء.

وهكذا فقد قامت تلك الإمارة التي أصبح لها صيت شائع جداً لدى القبائل العربية في الجاهلية, حيث كان الشعراء يتوافدون إلى بلاط أمير الحيرة لكتابة قصائد المديح والحصول على الجوائز

الثمينة, وكان هذا البلاط يضرب به المثل لقوته ومنعته, رغم أنه في واقع الأمر لم يكن كذلك.

ليس هناك تأريخ واضح عمن أسس الحيرة وعن ملكها الأول, وقد أوردت المصادر العربية أسماء متعددة غير مؤكدة . مثل نصر بن ربيعة بن لخم بن عدي من عرب الجنوب, و مالك بن فهم من تنوخ. لكن الاسم الذي يطمئن له المؤرخين أكثر لوروده كثيراً هو "جذيمة الأبرش" , ثم لاحقاً "أمرؤ القيس بن عمرو" (288-328 م) الذي وسع سلطانه على القبائل العربية في بادية الشام وشبه الحزيرة العربية, الذي وجد على شاهدة قبره نقش يقول : "هذا قبر امرؤ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي تقلد التاج, وأخضع قبيلتي أسد ونزار, وهزم مذجح, وقد الظفر إلى أسوار نجران مدينة شمر, وأخضع معداً واستعمل بنيه على القبائل وأنابهم لدى الفرس والروم,فلم يبلغ ملك مبلغه إلى اليوم".

وفي عهده بدأت قبائل عربية أخرى تدخل إلى بلاد الرافدين على رأسها قبيلتي إياد وتميم, فحاول الملك الفارسي "سابور" مواجهتهم والتنكيل بهم ولكن ذلك لم يجد نفعاً فحاول استمالتهم لمواجهة الروم.

استمرت سلسلة من الأمراء تحكم الحيرة تحالف الفرس في وجه الغساسنة وحلفائهم الروم, واستمرت الحرب بينهم بين كر وفر,

وكـان لـبعض هـؤلاء الأمـراء ذكـر كبيـر مثـل " عمـرو بـن هنـد" (554-574 م) و "النعمــان بــن المنــذر" (580- 605 م) الــذي حدثت بعد حكمه معركـة ذي قـار , ثـم حكم الفرس إمـارة الحيـرة حكماً مباشرة حتى جاء الإسلام وأزاحهم.



نقش النمارة, شاهدة قبر امرؤ القيس بن عمرو

الغساسنة

ينسب الإخباريون الغساسنة إلى الأزد من عرب الجنوب, حيث يقولون أنهم هاجروا بعد انهيار سد مأرب إلى الشمال ضمن الهجرة التي نقلت غيرهم فانقسموا في الحجاز حيث انطلق بعضهم إلى عمان وسموا "أزد عمان" و البعض الأخر توجه شرقاً وشمالاً ومنهم قبائل تنوخ سابقة الذكر.

أما الغساسنة فيقال أن جدهم الأعلى عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء, قد نزلوا في سهل تهامة على بئر يسمى "غسان" وهناك أصبح اسمهم الغساسنة نسبة إلى ذلك البئر. ومن هناك انطلقوا شمالاً حتى وصولوا إلى مناطق حوران في جنوب سوريا اليوم حيث وجدوا قبائل عربية تسمى " الضجاغمة" فاصطدموا بهم وحاربوهم حتى غلبوهم على أرضهم وشتتوهم . ثم اتخذوا بصرى عاصمة لهم, فأقرهم الرومان على ذلك واتخذوهم حلفاء لهم في مواجهة المناذرة حلفاء الفرس. وهكذا أصبحت الحرب بين المناذرة و الغساسنة تتجدد بالوكالة عن الإمبراطوريات الكبرى, حتى هلك في بعضها كثير من العرب, كمعركة يوم حليمة المشهورة .

واشتهر من ملوك الغساسنة الحارث بن جبلة (529-569 م) الذي زار بلاط الإمبراطور جستنيان سنة 563 م فأعطاه لقب "فيلارك" بمعنى رئيس قبيلة, واعتبره العرب بمعنى ملك. ووصلت الإمارة في حكمه إلى أقصى اتساعها من البتراء جنوباً إلى شمال تدمر. وخلفه المنذر بن الحارث (569 – 581 م) الذي كان مسيحياً يعتنق مذهب الطبيعة الواحدة المخالف لمذهب الإمبراطورية, فولد هذا الأمر جفاء بينهم حتى وصل الأمر إلى القبض على المنذر ونفيه هو وزوجته و أولاده إلى صقلية حيث مات هناك.

وكان أخر ملوك الغساسنة "جبلة بن الأيهم " وهو الذي قاتل جيوش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد إلى جانب الروم, لكنه أسلم بعد انتصار المسلمين, وسكن المدينة حيث يروى أن إعرابياً داس طرف إزاره فلطمه, فلم يقبل حكم الخليفة عمر بن الخطاب في الاقتصاص منه, فارتد وهرب إلى القسطنطينية حتى مات فيها. ويروي ابن خلدون في رواية غريبة أن بعض الغساسنة أقاموا في القسطنطينية ومن هناك هاجروا إلى مناطق الشركس, حيث مازال ينتسب بعضهم في تلك الأيام إلى الغساسنة .[196]

---

[196] تاريخ ابن خلدون ج2

بمجرد النظر إلى الخريطة يتبين لنا مدى ارتباط شبه الجزيرة العربية بالعراق والشام, فلا توجد حدود واضحة تفصل بينهما, كما أن هذه المناطق الخصبة في شمال شبه الجزيرة تشكل مكان مغري للانتقال والعيش هناك بالنسبة للقبائل البدوية التي تبحث عن الماء والكلأ لقطعانها, وخصوصاً في سنوات الجدب.



كذلك فإن من يقرأ التاريخ يعرف تماماً أن هذه الحركة كانت مستمرة بشكل دائم, فتارة تكون شديدة لبعض العوامل الاجتماعية والاقتصادية وتارة تكون أقل حدة.

لذا فإننا نجد أن الفاتحين المسلمين عندما توجهوا إلى العراق والشام وجدوا أمامهم كثير من القبائل العربية التي سبقتهم في التوجه إلى تلك المناطق حتى بلغت منابع دجلة والفرات في وسط الأناضول.

وقد بدأت هجرات هذه القبائل المتأخرة نسبياً و التي لم تكون دول أو إمارات مستقلة في القرن الثالث الميلادي بسبب الصراع القاسي بين قبائل إياد وربيعة ومضر, مما أدى ببعض قبائل إياد إلى الهجرة من سهل تهامة شمالاً إلى جنوب العراق, ثم اتجهوا بعد حين ليستقروا في المناطق الوسطى حول تكريت, فيما استمر بعضهم بالتقدم شمالاً إلى الموصل حيث وجدوا أبناء عمومتهم من بكر بن وائل قد سبقوهم إلى هناك[197].

وقد وردت أنباء هذه الهجرة في كتب التاريخ والأدب العربي بشكل مفصل, إلا أن تمكن هذه القبائل من تلك المناطق لم يعجب الفرس الساسانيين الذين كانوا يبسطون سيطرتهم على العراق, فلما تولى سابور الذي أطلق عليه العرب "سابور ذي الأكتاف"

---

[197] الجزيرة الفراتية وديارها العربية

لخلعه أكتاف شيوخ بعض القبائل, قام بشن الحرب على قبيلة إياد فقتل كثير من أفرادها وهاجر بعضهم ودخل إلى بلاد الروم البيزنطيين في حين نزل بعضهم في أطراف الشام, ويبدو أن سابور لم يتمكن من القضاء على قبيلة إياد وإن كان قد أضعفها, ويبدو أن بعضهم عادوا واندمجوا في ربيعة, وقد قال شاعرهم:

على رغم سابور بن سابور أصبحت

قباب إياد حولها الخيل والنعم [198]

ثم ما إن حل القرن الخامس الميلادي حتى هاجرت قبيلة تغلب وهي فرع مهم من ربيعة من منازلها في تهامة بسبب خلاف مع أقاربهم من بكر بن وائل, فاستمروا بالتقدم شمالاُ حتى وصلوا إلى الجزيرة الفراتية بين نهري دجلة والفرات قرب سنجار ونصيبين, كما هاجرت في نفس الفترة قبائل من ربيعة مثل النمر وغفيلة وبكر. كما هاجرت كثير من القبائل العدنانية في نهاية القرن السادس الميلادي وبداية القرن السابع[199].

لذا فإننا نجد أن تلك المناطق وأثناء تقدم جيوش الفتح العربي الإسلامي قد كانت تعرف بأسماء القبائل التي سكنتها, فهناك ديار مضر, وديار ربيعة, وديار بكر التي مازالت إلى اليوم في تركيا تدعى بنفس الاسم.

---

[198] تاريخ ابن خلدون ج2

[199] الجزيرة الفراتية وديارها العربية.

خريطة توضح توزع القبائل العربية في شمال العراق والشام بين النهرين

سكنت هذه القبائل تلك النواحي, واعتنقت الديانة المسيحية, لذا فقد كان الفرس ينظرون إليهم نظرة متوجسة خوفاً من وقوفهم مع البيزنطيين المسيحيين, وهكذا فقد دعا بنو إياد في حربهم مع سابور باسم "عباد الله", في حين نقش بنو تغلب صورة "مار سرجيس" على راياتهم التي يرفعونها في الحروب وبنوا العديد من الكنائس, ويقول الأخطل في ذلك:

لما رأونا والصليب طالعا ومار سرجيس وسماً ناقعا

وأبصروا راياتنا لوامعا كالطير إذ تستورد الشرائعا

والبيض في أكفنا القواطعا   خلوا لنا راذان والمزارعا

واستمر هؤلاء العرب في ديانتهم تلك قرون عديدة كما سيتبين.

عندما تولى أبو بكر الصديق ﵁ أمر خالد بن الوليد بعد حسم معركة اليمامة بالتوجه إلى جنوب العراق, إلى المنطقة التي كان يدعوها العرب باسم "السواد" نظراً لكثرة أشجارها وأنهارها, وأمره أن يدخلها من الجنوب جهة البصرة, والتي دعوها باسم "أرض الهند"[200] كما دعاها عمر بنفس الاسم, ويبدو من ذلك أن ميناء البصرة كان نشطاً جداً مع شبه القارة الهندية وقد تكون سكنته بعض الجاليات الهندية.

فاتجه خالد إلى هناك وخاض بعض المعارك, فما كان من القبائل العربية التي تقع تحت سيطرة الفرس إلا الوقوف معهم في وجه الجيوش الإسلامية. وقد كان على قيادة العرب من النمر وتغلب وإياد عقة بن مهران, الذي ما أن اقتربت جيوش المسلين بقيادة خالد حتى توجه إلى القائد الفارسي وقال له: إن العرب أعلم بقتال العرب فدعنا وخالداً, قال: صدقت, لعمري لأنتم أعلم بقتال

[200] تاريخ الطبري

العرب وأنكم مثلنا في قتال العجم, فخدعه واتقى به. ولكن خالد لم يمهلهم كثيراً فباغتهم وهزمهم هزيمة منكرة.

ويبدو أن العرب القاطنين هناك كانوا يظنون الجيوش الإسلامية هي مجرد غزوات قبائل بدوية عابرة ليس لها هدف سوى السلب والنهب, وما أن تبين لهم خطأ اعتقادهم حتى بدأوا يترددون في موقفهم, لذا نجد أن القائد الفارسي في الأنبار لما انهزم برر ذلك بأنه كان وسط قوم لا عقول لهم وأن أصلهم من العرب.

ولما استقر خالد بالأنبار رآهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها, فسألهم ما أنتم؟ فقالوا قوم من العرب, نزلنا إلى قوم من العرب قبلنا, فكانت أوائلهم نزولاً أيام بختنصر حين أباح العرب, ثم لم تزل عنها, فقال " ممن تعلمتم الكتاب؟ فقالوا: تعلمنا الخط من إياد, وانشدوه قول الشاعر:

قومي إياد لو أنهم أمم أو لو أقاموا فتهزل النعم

قوم لهم باحة العراق إذا ساروا جميعا والخط والقلم[201]

كذلك حدث ذات الأمر مع القبائل العربية في مواجهة جيوش المسلمين في الشام, فقد وقفت إلى جانب البيزنطيين, كما سبق أن أشرنا في الحديث عن الغساسنة, ولكن بالإضافة إلى توقف

---

[201] تاريخ الطبري

الإمبراطور عن دفع رواتب المرتزقة العرب, بعد معركة مؤتة جاء مندوب البيزنطيين ولم يدفعوا رواتب العرب, وقال : "بالكاد يستطيع الإمبراطور دفع رواتب جنوده, وأقل من ذلك أن يدفع لهذه الكلاب" فانصرف العرب مستائين لهذا ومالوا بذلك للمسلمين[202].

بعد أن تم للمسلمين فتح السواد وبلاد الشام, تبقت المنطقة الشمالية التي تعرف باسم الجزيرة تشكل خطراً على تواجد المسلمين, حيث بلغ عمر بن الخطاب ﵁ أن البيزنطيين يحشدون الجيوش هناك, فأرسل إلى قائد جيوش الشام أبو عبيدة قائلاً: "فإذا قرأت كتابي هذا فاعقد عقداً لعياض بن غنم وجهز معه جيشاً إلى أرض ربيعة وديار بكر " وروى البلاذري أن عثمان بن عفان﵁ أمر معاوية والي الشام والجزيرة أن ينزل العرب بمواضع بعيدة عن المدن والقرى. فأنزل بني تميم الرابية, وفعل ذلك في جميع نواحي مضر, ورتب ربيعة في ديارها على ذلك. وهو ما يؤكد أن هذه الأسماء كانت متداولة ومعروفة منذ وقت مبكر[203]

وقد حاول بعض قادة الجيوش الإسلامية أن يفرضوا الإسلام على تلك القبائل العربية, على اعتبار أنهم من جزيرة العرب,

---

[202] الفتوحات العربية في روايات المغلوبين

[203] الجزيرة الفراتية وديارها العربية

فاشتكوا إلى عمر بن الخطاب, فقبل شكواهم ونهى الجند أن يجبرون أحد على تغيير دينه وقال لهم إنما ذلك في جزيرة العرب التي فيها مكة والمدينة. وعندما اختاروا البقاء على المسيحية, فرضت عليهم الجزية, لكنهم أنفوا منها و اشتكوا إلى عمر فوصلوا إلى حل يرضي الجميع, فيدفعونها ولكنها لا تسمى جزية و إنما الصدقة مضاعفة مقابل الحماية وكانت ترد لهم في حال عجز الجيش الإسلامي عن حمايتهم أو في حال تقديمهم خدمات عسكرية مع المسلمين, وقد حدث ذلك في مناسبات عديدة فقد قاتل إلى جانب المسلمين بعض القبائل من المسيحيين من أتباع الطبيعة الواحدة وبعضهم من النساطرة[204] فأسقطت عنهم الجزية.

هكذا كان موقف العرب السابقين من العرب الفاتحين, فقد اعتقدوا في البداية أنها غزوات بدوية هدفها السلب والنهب فوقفوا إلى جانب السلطات الإمبراطورية في الجهتين, ثم لما تبين لهم أن هؤلاء الناس لم يخرجوا من شبة الجزيرة العربية إلا ليبقوا ويقيموا دولة, فمالوا إليهم واحتفظوا بدينهم, وكان بعضهم يدخل الإسلام على مدى قرون طويلة, حتى أصبح الإسلام الأكثرية, فيما احتفظ بعضهم بديانتهم حتى يومنا هذا.

[204] الفتوحات العربية في روايات المغلوبين

وقد كان لهذه العمليات الحربية أثر في الاتجاه الأخر, فقد كان البعض يهاجرون إلى داخل الأناضول بعيداً عن العمليات العسكرية, ومنهم جزء من قبائل إياد, فلما وصل الخبر لعمر بن الخطاب ﵁ غضب وأرسل خطاباً للإمبراطور البيزنطي بأن يرجعوا إلى الشام, فعاد منهم أربعة آلاف وانتشروا في أطراف بلاد الشام[205]

بعد أن فتحت الشام كاملة في يد المسلمين, أصبحت مصر ثمرة تنتظر من يقطفها, فمن يعجز عن استعادة بلاد الشام القريبة سيعجز حتماً عن مصر الأبعد, إضافة إلى ذلك فإن مصر كانت تعاني من الاضطهاد تحت الحكم البيزنطي, لاختلاف المذهب القبطي عن مذهب الإمبراطورية الرسمي, فكان أن تولى حكم مصر رجل يدعى سيروس – يعتقد البعض أنه المقوقس نفسه – فكان حاكماً وبطريركاً للإسكندرية في نفس الوقت, وبدأ حملة اضطهاد كبيرة للأقباط مما دفع بطريرك الأقباط الأنبا بنيامين إلى الهرب والاختفاء عن الأنظار في مصر العليا لمدة عشر

[205] تاريخ الطبري

سنوات, ولم يخرج من ملجئه إلا بعد فتح الإسكندرية لمقابلة عمرو بن العاص[206]

بعد أن فتح العرب المسلمون مصر فتح أمامهم الطريق إلى أفريقيا, فاستمروا إلى ليبيا وبلاد المغرب ومنها إلى الأندلس في الغرب, كما انتشروا في الشرق حتى بلغوا الهند والصين, وكل هذه الفتوحات كانت مصحوبة بحركة بشرية ضخمة, فكان المسلمون منذ البداية في المناطق المفتوحة يسمون أنفسهم "المهاجرين" تأسياً بالهجرة الإسلامية الأولى, وكونهم استقروا في مناطق بعيدة عن تلك التي ولدوا فيها, وكان الاختلاط مع السكان السابقين واضحاً من البداية, فقد روى الطبري أن الجنود الفاتحين ولطول المدة تزوجوا من بعض القبائل التي اصطحبت نسائها, في حين تزوج بعضهم من أهل الكتاب المحليين.

وهنا لابد من الإشارة إلى قرار في غاية الأهمية, وهو قرار عمر﵁ بعدم تقسيم أرض السواد بين الفاتحين رغم أنها فتحت عنوة, وأنه أبقى أهلها فيها, فقد عاد من جلا عنها من أهلها[207] واستمروا فيها, ورغم أن ذلك قد أغضب الكثير ولابد في حينه, إلا أنه كان ضرورياً بلا شك, فقد كان يعني خراب الاقتصاد

---

[206] الفتوحات العربية في روايات المغلوبين

[207] تاريخ الطبري

ومـوت الأرض لعشـرات السـنين, لكـن عمـر فضـل أن تعـود الأرض لأهلها وأن يكون عليها الخراج.

أخيـراً فعنـدما اسـتقرت الدولـة الإسـلامية وبسـطت نفوذهـا مـن أقصـى الشـرق إلـى أقصـى الغـرب, ولـم يكـن لعربـي فضـل علـى أعجمـي إلا بـالتقوى, فقـد وفـر هـذا الجـو البيئـة المناسـبة لحركـة بشرية دائمة بين مناطق الدولة, فكانـت بغداد مثلاً وجهـة العلمـاء والتجار, وأضحت دمشق ومصر والأندلس منـاطق جـذب للنـاس, فكم من عالم اشتهر في المدينة وهو مـن أقصـى الشـرق, وكـم مـن قائد عرف في بلاد العجم وهو من العرب.

أخيـراً هنـاك هجـرة أخـرى شـهيرة حـدثت بعـد الفـتح الإسـلامي بقـرون, وهـي هجـرة القبائـل العربيـة مـن الحجـاز إلـى مصـر ثـم عبورها إلى ليبيا والمغرب.

فلمـا كانـت السـلطة فـي تلـك الفتـرة بيـد الفـاطميين وعاصـمتهم القاهرة, فقد خرج القرامطة وبسطوا سلطانهم من ساحل الخلـيج العربي حتى وصلوا إلى مكة, فحالفتهم بعض القبائل التي لا تريد سـوى السـلب والنهـب, ولمـا تـم القضـاء علـى القرامطـة قـام الفاطميين بتهجير هذه القبائـل مـن بنـي هـلال وسُليم مـن الحجـاز إلـى الجهـة الشـرقية مـن مصـر, وبقـوا هنـاك يثيـرون المتاعـب

للسلطات الفاطمية وللفلاحين, لكن حدث أخر قام بتغيير مجرى قدر هذه القبائل, فقد قام والي المغرب بمبايعة الخليفة العباسي وإعلان مذهب أهل السنة, فبدا للوزير الفاطمي أن يمكر بالاثنين, فيتخلص من هذه القبائل المزعجة بأن يرسلها للمغرب لتقاتل المعز الصنهاجي فإن انتصروا فقد تخلص من خطره وإن انهزموا فقد تخلص منهم واشغلهم ببعضهم البعض.

فأرسل إلى أمراء هذه القبائل وأجزل لهم العطاء ووعدهم مناهم وسمح لهم باجتياز النيل إلى الغرب وأعطى كل من يذهب من عامتهم بعير ودينار, فتوافدوا وخلصوا أول أمرهم إلى برقة ففتوحها واستباحوها, وكتبوا لإخوانهم في شرق النيل يرغبونهم في البلاد. وساروا كالجراد المنتشر كما يصفهم ابن خلدون

فلما وصلوا إلى تونس الحالية قابلهم المعز في جمع تعداده ثلاثين ألف من قبائل البربر ومن العرب السابقين الذين قدموا في الفتح. فلما دارت المعركة انحاز عرب الفتح للقبائل المهاجمة وهزم المعز.

واستمرت هذه القبائل في زحفها حتى وصلت المغرب, وكان لها معارك وصراعات خلدتها كتب الأدب والقصص الشعبي, عن أبو زيد الهلالي وغيرها من القصص.

الأندلس

كان توسع العرب كبيراً بعد الفتح لأنحاء الشرق والغرب, وقد دخلت أمم أخرى وساعدتهم في هذه الفتوحات, فعندما غزا طارق بن زياد الأندلس كان برفقته جيش عدده سبعة آلاف جلهم من البربر. فلما تم فتح الأندلس استوطنها خليط من العرب والبربر بالإضافة للسكان المحليين بطبيعة الحال, لكن الانقسام العربي البربري بقي موجوداً فلما حصلت ثورة البربر في شمال أفريقيا امتد أثرها وثار البربر في الأندلس كذلك, حتى جاء الجيش الشامي والأندلسيين فقضوا عليها.

واستمر الحال على ما هو عليه من اختلاط كبير في الأندلس, وبدأت تسقط المدن بيد ملوك الشمال المسيحي الواحدة تلو الأخرى على مراحل من الهدوء تصل أحيانا إلى قرن أو اثنين, حتى سقطت غرناطة آخر المدن الأندلسية عام 1492م وتعهد فرناندو أن يبقي على السكان ويمنحهم حق العبادة وحقوقهم الأخرى, لكن ذلك بقي حبر على ورق, فاستمرت مضايقة الأندلسيين الذين أطلق عليهم لاحقاً اسم المورسيكيين, وهو لفظ لا يطلق على كل من سكن الأندلس واعتنق الإسلام أي كان أصله, حتى وإن كان أصله من القوط السابقين للفتح.

بقي هؤلاء المورسيكيين يضطهدون ويتم تحويل أعداد منهم إلى المسيحية سواء كان ذلك حقيقياً أو في الظاهر تجنباً للمضايقات, حتى أتى مرسوم إيزابيلا الذي تحول من خلاله هؤلاء إلى مسيحيين بشكل تلقائي وتم التعامل معهم على هذا الأساس حتى وإن كان الجميع يعلم أنهم ليسوا كذلك. لكن معاملتهم في وطنهم كغرباء استمرت أيضاً, وإن كان هناك زيجات مختلطة وبدأت هويتهم في الذوبان في وسط هذا البحر, لكنهم سعوا جاهدين للمحافظة على تميزهم, فكان لابد من الصدام مع السلطات القشتالية, رغم أن تلك السلطات كانت تخشى منهم لأن عددهم كان كبيراً جداُ, مابين 635-835 ألف شخص, كما أن لهم ثقلاً كبيراً في الجانب الاقتصادي, لكن شرارة الثورة اندلعت عام 1499م ثم مرة أخرى في الثورة الكبرى عام 1568م, وتم القضاء على كلتا الثورتين, لكن الأندلسيين بقوا في تجمعاتهم وإن هرب بعضهم نتيجة حرق محاكم التفتيش لبعضهم, فاضطر بعضهم للهرب إلى قشتالة والتخفي هناك, وهو أمر لم يكن صعباً فقد كان من العسير التمييز بين الأندلسي والقشتالي.

استمرت حال الأندلسيين كذلك في ازدواجية غريبة يحاول الجميع تجاهلها حتى بلغ الأمر بالسلطات إلى قرار نفي جميع الأندلسيين خارج شبة الجزيرة الأيبيرية عام 1609م

فبدأ ترحيلهم إلى سواحل شمال أفريقيا وإلى مصر والشام, حيث تعرضوا أيضاً في بعض المناطق للاضطهاد والقتل لبقر بطونهم بحثاً عن الذهب.

لكن يبدوا أن الترحيل لم يكن دقيقاً وشاملاً, فإحدى الوثائق التي تعود لسنة 1728م تبين أن 73 أندلسياً أحرقوا أحياء في احتفاليين دينيين. وفي سنة 1769م فوجئ عمال محاكم التفتيش بأحد المنازل التي يستخدمها الأندلسيين كمسجد للصلاة. وروي في عام 1807م أن اسبانياً اسمه بدية BADHIA قام بأداء فريضة الحج [208]

---

[208] الأندلسيون الموراكة

الفصل السادس

الترك

الترك هم أحد الشعوب الرعوية التي عاشت في مناطق آسيا الوسطى من سواحل بحر قزوين حتى منغوليا, وقد قدر لهم أن يلعبوا دوراً هاماً في العصور الوسطى, أما أول ذكر ورد لهم في الوثائق البيزنطية فيعود إلى القرن السادس حيث أسسوا أولى إمبراطورياتهم, رغم أن بيزنطة قد عرفت في فترة سابقة العديد من القبائل التي تندرج تحت الجنس التركي مثل البلغار والخزر والقفجاق والبورداس والماجيار[209]

بدأ انتشار الأتراك وتوسعهم في جميع الجهات بعد انهيار إمبراطوريتهم, فمنهم من توجه إلى أراضي الدولة الإسلامية ومنهم من توجه إلى أراضي الدولة البيزنطية.

أما علاقة الأتراك بالإسلام فقد بدأت منذ فتح المسلمين الأراضي القريبة منهم, وكان المسلمين يعرفون أرض الأتراك باسم "بلاد ما وراء النهر" حيث بدأ الاحتكاك المباشر, ومن حسن الحظ أن الأتراك لم يصطدموا عسكرياً بالمسلمين, وهو أمر كان من شأنه استنزاف الطرفين, ولكنهم بدأوا يدخلون في الإسلام طواعية وإن

---

[209] بلاد الترك

تم ذلك بعد الفتح بثلاثة قرون, وقد تم ذلك عن طريق الشيوخ والدعاة الأتراك والخرسانيين الذين دخلوا أرضهم في عهد الدولة السامانية[210] فقد أسلم أحد شيوخ القبائل ومعه مئتي ألف خيمة عام 960م, وإن تأخرهم كان بسبب نمط معيشتهم, فيروى أنه عندما دعى قتيبة بن مسلم أحد شيوخ القبائل للإسلام وترك الغزو والسلب, فجمع له في صباح اليوم التالي مئة ألف فارس من قبيلته وقال له: هؤلاء الذين ترى ليس فيهم حداد أو نجار,فإن أسلمنا وتركنا الغزو فمن أين يعيشون ؟!

وكان لدخول الأتراك الإسلام في تلك الفترة أثراً عظيماً جداً على كل من الدولتين العباسية والبيزنطية, فقد سعى كل من هؤلاء وبسبب الضعف الذي دب في جسد الدولتين لاستخدام العنصر التركي القوي والشجاع في تجنيدهم للحرب, وما علموا أنهم بذلك إنما يكررون الخطأ الخطير الذي ارتكبته روما من قبل, فكانت كل من القسطنطينية وبغداد تسير في ذات الطريق وإن تم ذلك بسيناريوهات مختلفة.

اعتنق الترك الإسلام وأصبح اسمهم المتداول هو التركمان, ولعل ذلك لتمييزهم عن الترك الذين بقوا على وثنيتهم, ثم أن هؤلاء الذين اسلموا ما لبثوا أن يشنوا الغارات على القبائل الوثنية.

---

[210] الأترك والتركمان

ورغم كثرة القبائل التي تنتسب للترك, والرابطة الجنسية بينهم وبين المغول, إلا أننا سنتناول بالبحث فقط اثنين من قبائلهم نظراً لما كان لهجرتها من أثر كبير مازال حتى يومنا الحاضر, وهم السلاجقة والعثمانيين.

حرص الخلفاء العباسيين في سعيهم للحفاظ على السلطة, والخوف من منافسة أقربائهم الهاشميين, على الاستعانة بالعناصر غير العربية في قيادة الجيوش, ووجدوا في العنصر التركي خير جندي, من حيث القوة والبطش والولاء, فقد حرص المأمون والمعتصم والمتوكل على الاستعانة بهم, حتى اشتكى سكان بغداد منهم, فتم بناء مدينة خاصة لهم, هي مدينة سامراء حيث سكن الخليفة وجنده.

بينما كان الخلفاء العباسيين يحرصون على إضعاف العنصر العربي وتولية الأمر لعسكر غرباء كانت الأقوام التي تسكن في الشرق تزداد قوة وتحاول السيطرة على الخلافة نفسها, فسيطر البويهيون الفرس على الخلفاء وسيروا أمور الدولة كما يشاؤون, في حين كانت تظهر في أرض الأتراك قوة جديدة, هي قوة السلاجقة بقيادة "سلجوق بن دقاق" الذي كان زعيماً لقبيلته من الأتراك الغز, فقد هاجر بقبيلته بسبب بعض الصراعات مع

القبائل الأخرى إلى ديار الإسلام حيث اعتنق الإسلام هو وقبيلته واخذ يشن الغارات على الكفار الترك[211]

أخذ السلاجقة يبسطون سيطرتهم على الممالك المحيطة بهم, وكان على رأسها الدولة التي أسقطوها في معركة داندقان, ثم استغلوا ضعف سلطة البويهيين والصراعات الداخلية فيما بينهم, كما تذرعوا باستنجاد الخليفة العباسي بزعيمهم طغرل بك, الذي تحرك متظاهراً بالحج, واستأذن الخليفة في دخول بغداد فأذن له, فدخلها في سنة 1055م منهياً سيطرة البويهيين الفرس ومبتدأ سيطرة السلاجقة الأتراك, فأعاد الخليفة الهارب إلى بغداد وخطب ابنته, فحاول الخليفة التهرب من هذا الطلب الوقح لكنه لم يتمكن من ذلك, فتم الزواج, لكن طغرل بك لم يطل به العمر كثيراً فمات, فقيل إن ذلك بسبب دعاء الخليفة عليه.

حدثت بعد وفاة طغرل بك حرب أهلية على خلافته فانتصر فيها " ألب أرسلان " الذي استمر في سياسة التوسع, فلما أحس الإمبراطور البيزنطي بالخطر قرر مواجهة السلاجقة في معركة حاسمة, حيث جميع ما يقارب الثلاثمائة ألف جندي, كان عدد كبير منهم من الأتراك أيضاً, والتقى بالأتراك السلاجقة الذين يقلون عنهم كثيراً في عام 1071م في معركة "ملاذكر" الشهيرة

---

[211] دولة السلاجقة

فـي شـرق الأناضـول, فكـان النصـر حليـف السـلاجقة, وهـزم البيزنطيين وأسر الإمبراطور رومانوس نفسه, لكن ألـب أرسـلان أكرمه وأطلق سراحه, فما أن وصل إلـى القسطنطينية حتـى وجد أنه تم خلعه وتنصيب غيره, فسملت عيناه.

كـان لمعركـة ملاذكـرد نتـائج مهمـة للغايـة, فقـد تقـرر بموجبهـا مصير الأناضول إلـى الأبـد, وتغيـرت حـدود الثغـور التـي عرفـت طـوال فتـرة الخلافـة العباسـية, فأصـبح شـرق ووسـط الأناضـول أرض مفتوحـة أمـام القبائـل التركيـة, فكانـت المرحلـة اللاحقـة مرحلة تقدم مستمر للأتراك وتراجع مستمر للبيزنطيين, فقد كانت بيزنطة تعاني أصلاً منذ فقدانها أهم مقاطعاتها فـي مصـر والشـام, أما وقد فقدت الأناضول أيضاً فقد كانت على حافة الانهيار, وإنـه لمن الغريب حقاً أنها استطاعت أن تبقى لسنوات طويلة لاحقة.

قامـت فـي الأناضـول دولـة عرفـت فـي التـاريخ باسـم "سـلاجقة الـروم" تمييـزاً لهـم عـن الدولـة السـلجوقية الكبـرى التـي أسسـها طغرل بك, وينسـب الفضـل فـي تأسيس دولـة سـلاجقة الـروم إلـى سـليمان بـن قتلمش وهـو مـن أبنـاء عمومـة ألـب أرسـلان, وأحـد المنافسـين لـه, اسـتغل سـليمان النصـر فـي معركـة ملاذكـرد لاستيطان الأناضول, فدخل فـي معمعـة المؤامرات التـي تقـع بـين المتنافسـين فـي القسـطنطينية وحـاول استثمار ذلـك لصـالحه, فقد

استعان بهم الإمبراطور البيزنطي ميخائيل ضد نقفور بوتنياتوس الذي أعلن العصيان, لكن سليمان وأخاه منصور تخليا عن ميخائيل وانضما إلى نقفور, الذي أدخلهما إلى مدينة نيقية الهامة والتاريخية, فلما حاول الإمبراطور لاحقاً إجلاء الأتراك عن الأراضي التي دخلوها, أعلنوا العصيان, وأعلن سليمان نفسه سلطاناً واتخذ مدينة نيقية عاصمة لمملكته في العام 1075م, أي بعد معركة ملاذكرد بأربع سنوات فقط, وليس أدل على ضعف الدولة البيزنطية في هذه المرحلة من أن سقوط نيقية التي لعبت دوراً مهماً للإمبراطورية والديانة المسيحية, فقد عقدت فيها المجامع المسكونية الأولى, لم تشر المصادر البيزنطية لهذا الحدث الهام سوى في إشارات عابرة.

عندما تكونت للسلاجقة التركمان مملكة جديدة في الأناضول, فقد سارع كافة التركمان للاعتراف بسلطانها, بل هاجرت بعض القبائل التركمانية من آسيا الوسطى إلى الدولة الجديدة[212], لم يكتف سليمان بن قتلمش بما حققه بل سعى للتوسع, والتقى قرب أنطاكية بجيش تتش بن ألب أرسلان, فهزم سليمان وقتل في تلك المعركة, ثم تولى بعده بسنوات ابنه قلج أرسلان الأول, وهو الذي كان يحاصر عاصمة الدانشمند التركمان عندما بلغه أن

[212] بلاد الترك

الحملة الصليبية قد حاصرت عاصمته نيقية, فعقد مع الدانشمند هدنة وانطلق مسرعاً لنجدة العاصمة لكنه لم يتمكن من ذلك, فسقطت نيقية بيد الصليبيين وسلمت للإمبراطور البيزنطي بناء على الاتفاق الذي كان بينهم.

وذلك أنه لما سقطت الأناضول بيد الترك, سعى الإمبراطور البيزنطي لدى القوى الغربية وعلى رأسها البابا في روما لنجدته في استعادة ما فقد من مقاطعات, فتم له ذلك وانطلقت أولى تلك الحملات بشكل شعبي غير منظم فانتهت بمذبحة شاملة على يد قلج أرسلان, لكن حملة الأمراء التي تبعتها تمكنت من الاستيلاء على نيقية كما أشرنا. واستمر الصليبيون باتجاه الجنوب فأسسوا إمارة لهم في الرها وحاصروا أنطاكية التي كانت مثل عاصمة سلطنة سلاجقة الروم أرض أخذت حديثاً من البيزنطيين وكان غالبية السكان من الروم, وكان الانطباع السائد هو أن الروم أتوا لاسترداد الأرض التي فقدوها, ولم يكن ياغي سيان أمير أنطاكية الذي قاوم ببسالة لمدة سبعة أشهر يعتقد أنهم سيذهبون أبعد من ذلك[213], وكانت هذه المقاومة سبباً في استباحة المدينة وارتكاب المجازر فيها.

[213] الحروب الصليبية كما رآها العرب.

وقد كـان اعتقـاده صـحيحاً جزئيـاً, فـالإمبراطور البيزنطـي كـان يسـعى لاسـتعادة أنطاكيـة ولـم يكـن يهـتم كثيـراً بحـرب "الكفـار" المسـلمين واسـتعادة القـدس. فلمـا تـم للصـليبيين الاسـتيلاء علـى أنطاكية, طالبهم بما اتفقوا عليه, لكنهم تجـاهلوا ذلـك ولـم يعيدوها له وتكونت فيها إحدى الممالك الصليبية الأربع.

لم تتمكن القوات الصـليبية من دحـر التـرك, بل إنهـا لقيت هزائم فادحة لما حاولت التوغل فـي الأناضـول, وكـان كل مـا فعلتـه هو أنهـا اسـتعادت بعـض المنـاطق فـي غـرب الأناضـول. ثـم أن هـذه الممالك الصليبية غرقت في بحر المؤامرات والنزاعـات الداخليـة السـائدة فـي ذلـك الوقـت وتحولـت لعـدو يهـدد القسـطنطينية نفسـها التـي باتـت فـي بعـض الأحيـان تعتبـر المسـلمين حليفـاً فـي وجـه الصليبيين الذين كانوا لا يتوانون عن اتهام البيزنطيين بالتخاذل و الخيانـة.

كانت العلاقات في تلك الفترة سـواء بـين المسلمين أنفسـهم أم بـين المسـلمين والبيـزنطيين أو بـين البيـزنطيين والصـليبيين تتـأرجح بشكل دائم بين العداء السافر و التحـالف الظـاهر. فكـان كـل طـرف حـريص علـى إضـعاف الأطـراف الأخـرى جميعهـا وهـو لا يـرى فيها إلا تهديد, ويسعى لموازنـة القـوى والتحـالفـات. لـذا كانـت هـذه التحالفـات عرضـة للتبـدل والتغييـر بشـكل فـج. بـل حتـى علـى

المستوى الاجتماعي كان التزاوج بين أمراء السلاجقة وأميرات من بيزنطة أو العكس غير مستغرب.

أما الإمبراطور البيزنطي فقد كان في حيرة من أمره فهو لا يأمن للسلاجقة ولا للصليبيين, وكان كثير من جيشه من المرتزقة ومن فئات مختلفة, ذلك أن الأناضول كانت المعين الرئيسي لهذا الجيش, فلما فقدها فقد أحد أهم العناصر البشرية والاقتصادية .

في عام 1176م حدث خلاف بين الإمبراطور البيزنطي مانويل وقلج أرسلان الثاني, فتقدم الإمبراطور بجيوشه لكنه هزم هزيمة كبيرة أخرى في معركة ميريويفالوم, تقدم على إثرها الترك وزاد توسعهم عن ذي قبل ليصلوا لاحقاً إلى شواطئ المتوسط, لكن الحدود لم تكن مستقرة فكانت تعتمد على ميزان القوى في التقدم والتراجع.

حدث في عام 1204م أن الحملة الصليبية احتلت القسطنطينية وتم تنصيب إمبراطور لاتيني, فهرب بعض القادة البيزنطيين وأسسوا مملكة منفى واتخذوا نيقية عاصمة لهم في سعيهم لاستعادة القسطنطينية. وفي ظل هذه الانقسامات والضعف العام, ظهرت في المنطقة قوة كاسحة لا يقف أمامها أحد, وهم المغول الذين كان لتحركهم من الشرق إلى الغرب أثر كبير جداً, فقد اسقطوا كل الممالك التي في طريقهم بما في ذلك الخلافة العباسية

في بغداد, ولم يوقف اكتساحهم سوى المماليك في معركة عين جالوت, هؤلاء المماليك الذين اسقطوا أحفاد صلاح الدين وأقاموا مكانهم مملكة جديدة ستعمر طويلاً حتى تسقط على يد قوم من الأتراك أيضاً.

انطلق المغول الذين ينتمون هم والأتراك إلى جنس واحد من أراضيهم شرق آسيا بقيادة جنكيز خان, فاجتاحوا الشرق كاملاً ولم يصمد أمامهم أحد, فولد تقدمهم العنيف باتجاه الغرب موجة أخرى من نزوح القبائل التركية إلى منطقة الأناضول التي زالت منها سلطنة السلاجقة وقامت مكانها العديد من الإمارات السلجوقية. وعند وصول جحافل المغول للمنطقة أدرك هؤلاء الأمراء الضعفاء أن لا قبل لهم بمقاومة المغول من جهة وأنهم ينتمون إلى جنس واحد من جهة أخرى, فأعلنوا الخضوع لهم وانخرطوا في خدمتهم عند تقدم الجيوش في بلاد الشام, فلما انهزم المغول في عين جالوت نقم عليهم قادة المماليك فتقدم لحربهم وهزموهم في معركة البستان, لكن المماليك انسحبوا بعدما رأوا تشتت هذه الإمارات وتركوها على حالها[214]

إن ما يهمنا من اجتياح المغول للشرق الأدنى ليس انتشار المغول في حد ذاته, رغم أنهم أسلموا بعد ذلك وأسسوا العديد من

---

[214] بلاد الترك

الإمـارات التــي اسـتمرت فــي الحكـم فــي بعـض المنــاطق لمئــات السنين, بل ما يهمنـا هـو مـا صـاحب ذلـك مـن عمليـة تتريـك جديـدة, فقد انتشر هؤلاء الهاربون من وجه المغول حتى وصلوا شـواطئ البحر الأسود وكيليكا, وكان يصحب أمراء هذه القبائل العديد مـن الدراويش وشيوخ الصوفية لتحـريض علـى قتـال الكفـار, لـذا كـان هؤلاء يعتـزون بلقـب "غـازي" الـذي زيـن أسـماء الحكـام لقـرون لاحقة.

كان من بـين تلـك القبائـل النازحـة قبيلـة تـدعى "قـاتي" أو "قـايي" تتجول تحت قيادة زعيمها سليمان شاه بن قيا ألب, الـذي تنقـل بهـا من مكـان إلـى آخـر حتـى وصـل إلـى نـهـر الفـرات حيـث مـات غرقـاً ودفن في قلعة جعبر, حيث أصبح قبره مشكلة لتركيـا التـي تضـع حراسة مشددة حول القبر مؤخراً, إلى أن تم نقل مكانـه إلـى قـرب الحدود التركية لحمايته مؤقتاً.

بعد وفاة سليمان شاه تـولى القيـادة ابنـه أرطغـرل غـازي الـذي قـاد القبيلة نحو الشمال, وفي أثناء تنقلـه وجـد جيشـين يقتـتلان أحـدهما سـلجوقي والآخـر بيزنطـي, فـدخل المعركـة إلـى جانـب السـلاجقة فانتصـروا علـى الجـيش البيزنطـي, وجـزاء لـذلك فقد كافـأه الأميـر عــلاء الــدين أميــر قونيــة إحــدى إمــارات الســلاجقة بقطعــة مــن الأرض على حدوده مع الـروم البيزنطيين, فهـي مكافـأة مـن جهـة

وحاجز من جهة أخرى, حيث يتقي بهؤلاء الفرسان الشجعان من هجمات البيزنطيين, حتى أصبح هؤلاء هم مقدمة جيش السلطان علاء الدين, ولما توفي أرطغرل تولى القيادة مكانه ابنه عثمان, الذي نسبت إليه الإمبراطورية العثمانية واستمر نسله من الملوك والخلفاء في الحكم حتى القرن العشرين. فاستمر في سياسة التوسع حتى توفي وخلفه ابنه أورخان الذي وسع المملكة بشكل أكبر وأسس الجيش الإنكشاري, ثم تلاه مراد الأول الذي وسع الحدود في الجانب الأوروبي واتخذ أدرنة عاصمة للدولة العثمانية وبقيت كذلك حتى فتحت القسطنطينية, ثم جاء بعد مراد بايزيد الأول الذي استمر في سياسة التوسع, لكن أثناء ذلك ظهر تيمورلنك في الشرق وغزا الدولة الوليدة, فهزم العثمانيون في معركة أنقرة عام 1402م وأسر بايزيد فوضعه تيمورلنك في قفص ذهبي فانتحر, وعادت الإمارات السابقة إلى عهدها القديم, لكن الدولة العثمانية لم تفقد حيويتها فعاد محمد الأول ووحد الدولة وقادها من جديد في الطريق الذي سنته لنفسها حتى سقطت القسطنطينية على يد محمد الثاني عام 1453م.

ويلاحظ من تتبع تاريخ العثمانيين أنهم كانوا يفتخرون بلقب الغازي, ويرون أن حروبهم موجهة بالدرجة الأولى ضد الإمبراطورية البيزنطية, لذا لم يولوا المناطق في الشرق اهتمام

كبير, حتى ظهر الشاه إسماعيل الصفوي في إيران حيث أسس الدولة الصفوية القائمة على التشيع والحرب المذهبية وكان جل جنوده إن لم يكن كلهم من الترك المعروفين بالقزلباش, فلما أحس العثمانيون أن حدودهم الشرقية مهددة بعد تحركات قام بها أتراك يتبعون للشاه, فتوجه سليم الأول لعاصمة الشاه والتقوا في معركة جالديران عام 1514م فهزم الشاه ونجا من الموت بأعجوبة, لكن سليم لم يكتف بذلك فاستولى على الشام وتوجه إلى مصر حيث هزم المماليك وعاد ومعه الخليفة العباسي الذي أجبر على التنازل على الخلافة للسلطان العثماني. فأصبحت الخلافة العثمانية تسيطر على أجزاء واسعة من أوروبا الشرقية فحاصروا فينا أكثر من مرة, كما حكموا مصر والشام والعراق والجزيرة العربية وأجزاء من المغرب العربي حتى بدايات القرن العشرين عندما انقسمت وخسرت أجزاء كبيرة لصالح الدول الأوروبية حتى أعلن مصطفى كمال إنهاء الخلافة وإعلان قيام الجمهورية التركية في حدودها اليوم.

لقد تميز الترك بنزوعهم للقتال والتنقل, فأسسوا العديد من الممالك من الهند حيث ما زال يوجد الراجبوت أو أبناء الملوك إلى إيران والعراق وتركيا الحالية, كما أسسوا ممالك أخرى

كبيـرة كمملكـة الخـزر التــي عاصـرت الدولـة الإسـلامية. إلا أن أشهر آثارهم الباقية فهو تتريك الأناضول.

الفصل السابع

العالم الجديد

خلال سردنا طوال الفصول السابقة كانت الهجرة تتمظهر في تأثير واحد كقدوم الغرباء إلى أرض جديدة والاختلاط بالسكان المحليين والاندماج بهم, أو أن يصاحب قدوم الغرباء تهجير للسكان السابقين للحلول محلهم. إلا هذه الهجرة التي نحن بصدد الحديث عنها, فقد تبدت في ثلاثة اتجاهات, أولاً قدوم الغرباء إلى العالم الجديد, ثم تهجير وإبادة جزء كبير من السكان السابقين, ثم جلب سكان من قارة أخرى للحلول محل هؤلاء الذين أبيدوا !

بدأت القارة الأوربية في التعافي من آثار الهجرات والتغيرات التي حدثت في العصور الوسطى وانهيار الدولة الرومانية, فظهرت الممالك الأوربية اللاحقة وبدأت في الاتجاه صعوداً, حتى إذا حل القرن الخامس عشر كانت القوى الأوربية متحفزة ومتحمسة للفتوحات والحروب, لكن وجود الدولة العثمانية في الشرق وسيطرتها على غالبية أجزاء العالم الإسلامي, ثم الاستيلاء على القسطنطينية عام 1453م وتهديها عمق أوربا والوصول إلى فيينا, دفع الأوربيين للتوجه إلى الغرب, والبحث عن طريق يؤدي إلى الهند بدون المرور من مناطق العثمانيين,

فكانت الرحلات التي قام بها البرتغاليون الذين اشتهر منهم الملك هنري الذي لقب بالملاح لاهتمامه البالغ في هذا الجانب, فقد أرسل الحملة الأولى فسارت بمحاذاة الساحل الأفريقي عام 1418م , ثم حقق البرتغاليون نصراً كبيراً باجتيازهم الرأس الأخضر على الساحل الأفريقي الغربي, وبما أن أسبانيا لم تكن بعيدة عن هذا الميدان فقد وصل كولومبوس حينها إلى الجزر في أمريكا الوسطى, فنشأ عن ذلك نزاع كبير بين الدولتين حول الأحقية بالأراضي المكتشفة خارج أوروبا, ولم يحل هذا النزاع سوى البابا في روما, فقد توصل إلى اعتبار الخط الطولي الذي يقع على منتصف المسافة بين جزر الرأس الأخضر التي اكتشفها البرتغاليون وجزر أمريكا الوسطى التي اكتشفها الأسبان بأنه خط فاصل بين سيطرة الدولتين, فكل ما كان شرق هذا الخط فهو من حق البرتغال وكل ما هو غربيه من حق إسبانيا, وعلى ذلك وقعت معاهدة توردسيلاس عام 1494م.

فانطلق الاثنان, الأسبان والبرتغاليون كلاً من خلال الجزء الخاص به من الأرض حسب المعاهدة, في سباق من أجل الوصول إلى الهند, والمقصود كافة الجزر التي تنتج التوابل في شرق آسيا, وهي سلع كانت مطلوبة جداً في أوروبا. فوصل

البرتغاليون إليها في رحلة شاقة انطلقت عام 1497م ولم تعد إلا سنة 1499م.

قاد السباق إلى الهند إلى إحدى أكثر قصص التاريخ غرابة. فقد كان كولومبوس[215] - وهو بحار من جنوى – مؤمناً إيماناً تاماً بأنه إذا توفرت له السفن اللازمة فأنه يمكنه الوصول إلى الهند بالاتجاه نحو الغرب معتمداً على فكرة كروية الأرض, وإنه مما يدعو إلى الإعجاب عمق إيمان هذا الرجل بفكرته, فقد قصد ليشبونة وعرضها على ملك البرتغال فرفضها, ثم عرضها على فيرديناند وإيزابيلا ملوك اسبانيا فرفضاها أيضاً بناء على توصية المستشارين بعد خمس سنوات من البحث, ثم عرضها شقيق كولومبوس على هنري السابع ملك انكلترا فرفضها أيضاَ, لكن الإسبان عادوا فوافقوا على تجهيز هذه الحملة في عام 1492م بعد سقوط غرناطة بأربعة أشهر, وانطلقت الحملة بثلاث سفن في أغسطس (آب) 1492م , و وصلت بعد مشقة وتمرد بين البحارة في الثاني عشر من أكتوبر (تشرين أول) إلى إحدى جزر الباهاما ثم إلى كوبا وعادت في الربيع في مارس (آذار) 1493م ليستقبل كولومبس وبحارته بالفرح والتكريم, ثم عاد في رحلة ثانية عام

[215] لن نخوض في النقاش الدائر حول أول من اكتشف أمريكا, فهناك من ينسبه إلى الصينيين, وهناك من ينسبه إلى أحد حكام مالي المسلمين, وهناك من يعود به إلى الفينيقيين أو إحدى قبائل العبرانيين المفقودة, وأي يكن فإن وصول كولومبوس هو الأمر الوحيد الذي غير مستقبل هذه القارات

1493م ورحلـة ثالثـة عـام 1498م ورابعـة, فقـد كـان يطمـع أن تكون كافة هذه الأراضي تحت سلطته كحاكم تابع للتـاج الإسـباني بناء على الاتفاق مع ملك اسبانيا, لكن ذلك لم يحدث إذ تم سجنه وطرده من العـالم الجديد ليعود إلـى اسبانيا ويموت فقيراً معدما يكتب الرسائل المطالبة بحقه فـي الأرض التـي وصـل إليهـا وكـان ما يزال مؤمناً أن الأرض التي وصـل إليهـا إنمـا هـي الهنـد, شـأنه في ذلك شأن الجميع, وقد استمرت هذه القناعة عشرين سنة حتـى بدأت الشكوك تتكاثر في وجود بحر آخر خلف هذه الأرض, وقد كتـب أمريكـو فيسبوتشـي, وهـو بحـار مـن فلورنسـة, قـام بـبعض الرحلات إلى العالم الجديد, العديد من الرسائل التي يثبـت فيهـا أن هذه الأرض منفصلة عن العالم القديم, وقد كـان ذلك لاحقاً سبب في إطلاق اسمه على هذه الأرض, ثم لتأتي رحلة ماجلان وتكمل ما بدأه كولومبوس وتصل فعلاً إلى الهند بالاتجاه غرباً ثم المرور من أسفل القارة من المضيق الذي عرف باسم ماجلان, ثم الإبحار غرباً في المحيط الهادئ والوصول إلى جزر الفلبين[216] حيث قتـل مـاجلان, ليكمـل الرحلـة من بقـي مـن البحـارة بـالمرور مـن رأس الرجاء الصالح والعودة إلى إسبانيا بعد أن فقد الجميـع الأمـل فـي عودتهم فـي العـام 1522م , وقد كانـت تلك الرحلـة الأولـى حـول

---

[216] نسبة إلى الأمير فيليب ابن الملك الإسباني شارل الخامس راعي رحلة ماجلان

العالم, والرحلة التي قطعت بما لا يدع مجالاً للشك أن الأرض التي اكتشفها كولومبوس هي قارة جديدة منفصلة تماماً عن العالم القديم.

اتخذ الإسبان جزر الكاريبي قاعدة لهم ينطلقون منها لاستكشاف الأراضي القريبة المجهولة بالنسبة لهم, ونظراً لازدياد عدد الرحلات فقد قرر الإسبان وتفادياً لإرهاق الميزانية أن تكون أجور العاملين والبحارة هي من الهنود الذين يمكن استرقاقهم وبيعهم, كما قرروا ولزيادة عدد الفاتحين أن يتم فتح أبواب السجون للمحكومين بالإعدام حيث ينالون حريتهم بعد قضاء سنتين في المنفى وللمحكومين بالمؤبد بقضاء سنة.

أدى تعامل الإسبان البالغ القسوة مع المحليين الذين استقبلوا كولومبوس بالترحاب معتقدين أن هؤلاء القادمين قد جاؤوا من السماء إلى نقص حاد في السكان حتى كادت الجزر تقفر تماماً من ساكنيها خلال عشر سنوات, مما دفع الملكة إيزابيلا إلى إباحة شن الغارات على الشواطئ المجاورة لجلب العبيد اللازمين لتغطية هذا النقص[217]

كانت أولى الأراضي التي يستقر بها الإسبان بعد الجزر الوسطى هي بنما القريبة, فقد هرب البحار "فاسكو نونييث دي بالبوا"

---

[217] أمريكا اللاتينية, الثقافات القديمة ما قبل الكولومبية

بسبب سوء الأحوال في تلك الأنحاء وبسبب الديون إلى بنما التي أطلقوا عليها كعادتهم أسماء المدن الإسبانية فدعيت "كاستيا دل أورو" أو قشتالة الذهب, فتوغل في هذه البلاد بحثاً عن الذهب ومفتتحاً مرحلة كبيرة من الفتح, حيث لم تقف قوى السكان المحليين الضعفاء أمام الفرسان على الخيول وبصحبة الكلاب والأسلحة النارية وهي كلها أمور لم يعهدها هؤلاء السكان, ومن هناك توصل إلى وجود بحر خلف القارة هو المحيط الهندي, كما وصف له السكان وجود أرض غنية جداً بالذهب, هي أرض البيرو الأسطورية.

كان لوصول هذه الأخبار لأسبانيا الأم وقع كبير, فتم اختيار ألفي رجل من المتقدمين للسماح لهم بالهجرة إلى العالم الجديد, وتم تجهزيهم وحملهم في عشرين سفينة, فلما وصلوا ازدادت أمور الإسبان تعقيداً, فنظراُ لبعد المسافة عن إسبانيا فتكاد تكون سلطة الملك هناك اسمية فقط, ومجرد أن يصل البحارة إلى تلك المناطق فهم أحرار في أن يفعلوا ما شاءوا, مما أدى إلى تفجر الخصومات والنزاعات الداخلية والمؤامرات التي أطاحت بالعديد منهم وكان من أول الرؤوس التي قطفت رأس فاسكو نونييث نفسه. وكأنما لعنة الضحايا الأبرياء المسالمين تلاحق قادة الفتح أينما حلوا ابتداء من كولومبوس وليس انتهاء بنونييث. أضف إلى

هـذه الانقسـامات فلـم تكـن أرض العـالم الجديـد مرحبـة زاخـرة بالكنوز كما تصورها الحكايات في البلاد الأم دائماً, وإنما كان الإسبان في بعض المناطق يموتون جوعاً إلى درجة أنهم حرفياً ابتدئوا بأكل لحوم السكان المحليين ثم أكل لحوم رفاقهم إذا لزم الأمر.

إن جل المعلومات التي تتوفر لدينا عن الإبادة التي ارتكبها الإسبان في تلك المناطق تأتي من الروايات التي استمر المطران الإسباني "لاس كازاس" وهو رجل نبيل حقاً, لم يرض بما يفعله الفاتحون, واستنكر أفعالهم في رسائل إلى الملك وفي كتب نشرها, وأنكر أن يكون ذلك من تعاليم المسيح, فحقيقة الأمر لم يقاوم السكان الأصليين التبشير, وكان دخولهم في الدين المسيحي سهلاً, لكن ذلك لم يكن يعجب الفاتحين كثيراً لأن ها الأمر سيكون عقبة أمام استمرار عمليات النهب والاستعباد, فالحجة في ذلك هي رفضهم للدين المسيحي, بل وعندما لم يجد البعض حجة دينية تؤيدهم لجئوا إلى المنطق الأرسطي على اعتبار أن هذه الشعوب همجية وبربرية ومن حق الشعب الأرقى إبادتها والسيطرة عليها.

كانت العمليات في السنوات الخمس والعشرين الأولى تكاد تقتصر على الجزر وبعض المناطق الساحلية والمناطق الوسطى,

فلم يتوغل الإسبان في داخل الأرض القارية لا شمالاً ولا جنوباً, وذلك نظراً لقلة أعدادهم ولانشغالهم في المناطق التي تلقت الصدمة الأولى, وكان بعد ذلك على الإسبان إتمام مهمتهم في اجتياح إمبراطورية البيرو الأسطورية التي كانوا يسمعون عنها منذ دخلوا مناطق بنما ومنذ عام 1513م لكن المهمة كانت صعبة, فالحملة تحتاج لتمويل, فكان أن تحالف جنديان مجهولان هما بيثارو (بيسارو) و ألماغرو لاقتحام تلك المناطق وبعد تقدمهم على طول الساحل أدرك بيثارو أنه يحتاج لمزيد من الدعم لذا عاد إلى إسبانيا حيث اقنع الملك بتقديم هذا الدعم, فعاد بعد عدة سنوات ومعه ما يكفي من الرجال وتوجه إلى عاصمة الإنكا, حيث قابله الإمبراطور أتاهولبا للترحيب به ومعه أربع أو خمس آلاف رجل غير مسلحين إلا بالعصي والهراوات, لكن بيثارو الذي كان لديه خطة أخرى أعطى الإشارة لجنوده قليلي العدد والمسلحين بالبنادق والمدافع لبدء المذبحة, فتم أسر الإمبراطور مباشرة ولم يتعرض أي إسباني لأي أذى رغم قلة عددهم حيث فتكوا بذلك العدد الكبير كما تفتك الذئاب بالخراف, فعرض الإمبراطور على بيثارو إطلاق سراحه مقابل أن يملأ له غرفة كاملة بالذهب, فوعده بذلك, ليتم جمع هذه الكمية من الذهب من كل أنحاء المملكة, لكن بيثارو بعد أن استولى على الذهب وجه

لأتاهولبا تهمة قتل أخيه وحكم عليه بالإعدام حرقاً ولتجنب هذا المصير قرر الإمبراطور التحول إلى المسيحية حيث استبدل حكم الحرق بالخنق, دعا الإسبان تلك المنطقة باسم مملكة قشتالة الجديدة واستمروا فيها بنفس سياسة الإبادة, ويروي لاس كازاس أنه تم قتل ما يقارب أربعة ملايين ومازال القتل مستمراً عند روايته لتلك الأحداث.

كانت الحضارتان الرئيسيتان في العالم الجديد عند قدوم الإسبان هما حضارة الإنكا في البيرو وحضارة الأزتيك في المكسيك, وقد تكفيل بيثارو قبل أن يقتله رفاقه بالبيرو, أما المكسيك فقد كانت من نصيب كورتيز الذي انطلق عام 1519م من جزيرة كوبا, حيث رست سفنهم على خليج المكسيك, ويقال أن كورتيز أحرق السفن هناك لمنع جنوده من التفكير في العودة لكوبا, خصوصاً وأنه لم يكن على توافق مع حاكم كوبا بعد أن انطلق بالسفن خلسة خوفاً من تنحيته عن المهمة.

أرسل كورتيز رسلاً للأزتيك مطالباً بعودة سبعة أسبان كانت قد غرقت سفينتهم قبالة الشاطئ قبل سنوات, لكن هؤلاء رفضوا العودة وفضلوا البقاء إلى جانب زوجاتهم في مجتمع رحب بهم بشدة, ولم يرجع منهم إلا واحد, ولم يكن ذلك حباً من كورتيز بهم ولكنه يعلم أنه سيكون بحاجة لهم كمترجمين أو كأدلاء.

سمع كورتيز عن عاصمة الأزتيك الباهرة المقامة على جزيرة في وسط بحيرة المكسيك, فتقدم نحوها وبدأ حصارها ولم تلبث أن سقطت في يده بعد تحالفه مع قبائل معادية للأزتيك وتم أسر الملك كواوهيتموك الذي قاوم الإسبان بقوة طوال أشهر, ثم تم تعذيبه وإعدامه.

وهكذا كان يتكرر السيناريو ذاته في أكثر من مكان, جزر أمريكا الوسطى إلى المكسيك التي دعيت باسم اسبانيا الجديدة, والبيرو وكولمبيا وصولاً إلى تشيلي و الأرجنتين التي كان استعمارها أصعب نظراً لوعورتها وبعدها, فلم يستكمل الاستيطان إلا بعد قرون.

ويروي لاس كازاس تلك القصص المأساوية بتجرد وحسرة, فلم يسلم من تلك المذابح وذلك الاستعباد مكان وصله الأسبان, حتى بدأ السكان المحليين بقتل أنفسهم للخلاص من الاستعباد والعمل المرهق, فكانت عوائل كاملة تقتل أنفسها, ويروي أنه لم يبق في كوبا خلال عشر سنوات من وصول الإسبان إلا خمسمائة شخص من أصل مليون نسمة, وهو أمر اضطر كورتيز نفسه إلى الاعتراف بخطورته, لأنه لا يريد لهذه الأيد العاملة أن تفنى مما يهدد المستعمرين أنفسهم, لكن الوضع استمر بنفس الطريدة, فكانت كل تلك المناطق من نصيب الأسبان إذا استثنينا البرازيل

التي كانت من نصيب البرتغال, حيث أن جزء كبير من ساحلها الشرقي يقع شرق الخط الذي رسمه البابا وتم الإتفاق عليه في معاهده توردسيلاس عام 1494م وهي البلد الوحيد في أمريكا اللاتينية الذي يتحدث سكانها اللغة البرتغالية في حين يتحدث سكان باقي المناطق اللغة الإسبانية.

هذا بالنسبة لتلك المناطق الواقعة من المكسيك شمالاً إلى أقصى جنوب القارة, أما فيما يتعلق بأمريكا الشمالية فقد كانت الحكاية مختلفة.

تأخر استيطان القارة الشمالية من قبل الشعوب الأوروبية ما يقارب القرن من الزمان عن استيطان الإسبان للقارة الجنوبية, وقد حملت أمم أوروبا الشمالية على عاتقها هذه المهمة, وكأنما اقتسموا العالم الجديد كلاً يأخذ ما يليه.

وصلت إلى الشواطئ الأمريكية الشمالية بعض الرحلات الكشفية في وقت مبكر بعد أن حفزتهم أخبار اكتشاف كولومبوس, فقد وصلت رحلة انكليزية بقيادة جون كابوت عام 1497م إلى نيوفاوندلاند, ثم قام برحل أخرى عام 1498م فاستكشف الساحل الشرقي للقارة من شماله حتى فلوريدا, وكذلك قام الفرنسيون برحلة بقيادة جاك كارتييه وصلت إلى مونتريال وكيبيك عام 1534م , فيما انطلق الهولنديون بقيادة هنري هدسون في رحلة

كشفية حتى وصلوا إلى منطقة نيويورك الحالية حيث ما يزال اسمه يطلق على نهر هدسون في نيويورك وخليج هدسون في شمال كندا.

أما أولى محاولات الاستيطان فقد كانت على يد السير همفري جلبرت عام 1583م حيث وصل إلى نيوفاونلاند مع جماعة من المهاجرين, لكن هذه المحالة فشلت و لم تستمر. فكان أن أنشأت انكلترا شركتين استعماريتين هما شركة لندن وشركة بليموث عام 1606م بأمر خاص من الملك جيمس الأول, فكأن أن أرسلت شركة لندن عام 1607م كريستوفر نيوبورت وجماعة من المهاجرين يقدر عددهم بمائة شخص إلى منطقة فرجينيا- التي سميت كذلك نسبة إلى الملكة العذراء إليزابيث - حيث أسسوا هناك أول مستعمرة انكليزية في العالم الجديد وأسموها باسم الملك " جيمس تاون", إلا أن ظروف هذه المستعمرة كانت سيئة للغاية في البداية ولم تبدأ بالتحسن وزيادة أعداد المهاجرين إلى من عام 1614م و ما بعد, وخصوصاً في عام 1619م حيث وصلت للمستعمرة سفينة تحمل تسعين فتاة للزواج, مما سمح للمهاجرين بتكوين عائلات وازدياد أعدادهم, كما وصل في ذات السنة مركب هولندي يحمل على متنه عبيداً لاقوا رواجاً كبيراً لكثرة الأعباء التي كان يضطلع بها المستوطنون.

أما في شمال الساحل الشرقي فقد أسست شركة بليموث مدينة هناك لكن لم يكتب لها النجاح, وفي عام 1620م انطلقت من انكلترا سفينة تحمل على متنها من كانوا يدعون أنفسهم بالحجاج, وهم مجموعات من المتدينين المحتجين على الكنسية الانجليزية والمطالبين بإصلاحها, وكانت وجهتهم إلى فرجينيا, لكن وبسبب بعض العواصف فقد انحرفت سفينتهم المشهورة في التاريخ الأمريكي "مايفلور" إلى الشمال فلما رسوا هناك قرروا بناء مدينة والبقاء فيها, وقبل أن ينزلوا إلى الشاطئ وقعوا اتفاق ينظم شؤونهم عرف باتفاق "مايفلور" وأسسوا مدينة بليموث في ماساتشوستس الحالية.

بقي تطور هذه المستعمرة بطيئاً حيث لم يزد عدد سكانها عام 1630م عن 300 شخص, إلا أنها ما أن بدأت تصلها جموع البيوريتان حتى بدأ العدد بالزيادة الكبيرة حتى وصل إلى عشرين ألفاً عام 1640م[218]

استمر تدفق المهاجرين الكبير على تلك الشواطئ, فقد نزل جماعة من الكاثوليك الذين أرادوا أن يبتعدوا عن مناطق البروتستانت بقيادة اللورد بلتيمور فأسسوا لنفسهم مستعمرة خاصة سنة 1634م وأسموها "ماريلاند", وكذلك وفد جماعة من

---

[218] تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية الحديث

المعـروفين ب "الكـويكرز" بقيـادة زعـيمهم الروحـي ولـيم بـن فأسسوا مستعمرة بنسلفانيا عام 1682م . وأسس عدد من التجار مستعمرة كارولينا 1665م, هذا وقد تسرب الكثير من الأوربيين الآخـرين إلـى شـواطئ العـالم الجديـد, فقـد وصـل الهوغونـوت الفرنسـيين هربـاً مـن اضـطهاد الكاثوليـك لهـم, وقـد أدت حـروب لـويس الرابـع عشـر إلـى فـرار الكثيـر مـن الألمـان ثـم تـبعهم اليونـانيون والايطـاليون والسـويديون والأسـبان, إلا أن هـؤلاء جميعـاُ لـم يشـكلوا سـوى 10% مـن المسـتعمرين فانضـووا تحـت سيادة الإنجليز نظراً لسابقتهم ولكثرتهم العددية.

وقد انقسم الشاطئ الشرقي للولايات المتحدة الحالية بعد استقرار هذه الجماعات إلى 13 مستعمرة مختلفة تخضـع جميعهـا للسـيادة الانكليزيـة, لكـن هـذه السـيادة لـم تكـن بـالقوة الكافيـة, وقـد منحـتهم إدارة شـؤونهم الذاتيـة بنفسـهم, فكـانوا يمارسـون الديمقراطيـة فـي ذلك, وقاموا مبكراً بإنشاء الجامعات, حيث أسست جامعة هارفرد سنة 1636م ثم جامعة ييل عام 1702م, ويلاحظ منذ بدايـة تكـون هذه المستعمرات بأشكال مختلفة هو عدم تجانسـها لا مـن الناحيـة الدينية ولا من الناحية الاقتصادية, وهذا الشـيء سيكون لـه تـأثير كبير في تحديد مستقبل هذه المستعمرات.

لم يكن الفرنسيون بعيدين عن تحركات الإنكليز والأسبان, فقد أسسوا في الشمال مستعمرة كيبيك عام 1608م ومن هناك أخذوا يتوغلون إلى منطقة البحيرات, ومنها انطلق دي لاسال محاذياً حوض المسيسبي باتجاه الجنوب حتى وصل الفرنسيون إلى مصبه في خليج المكسيك, وأطلقوا على هذه المنطقة اسم "لويزيانا" نسبة إلى الملك الفرنسي لويس الرابع عشر, وهناك عند مصب المسيسبي أسسوا مدينة أورليان الجديدة "نيو أورلينز", وبهذا فقد أحاط الفرنسيون بالمستعمرات الإنجليزية من الجهات الثلاث, ورغم هذه الأراضي الواسعة لكن الفرنسيون كان ينقصهم الكثافة العددية, فقد كان إجمالي المهاجرين في تلك المناطق 18 ألف نسمة, وقد سعى الفرنسيون لتعويض هذا النقص العددي بالتحالف مع السكان الأصليين "الهنود الحمر".[219]

نظراً لهذه الأوضاع السائدة في العالم الجديد من تنافس بين فرنسا وانكلترا وما بينهما من تنافس وعداء في القارة الأوربية نفسها, فقد اشتعلت بينهما حرب السبع سنوات عام 1756م وانتهت عام 1763م وانتهت بهزيمة فرنسا التي عن كل أراضي كندا وعن

[219] تاريخ الأمريكيتين والتكوين السياسي للولايات المتحدة

أراضيها الواقعة شرق المسيسبي لانكلترا, أما لويزيانا فقد تنازلوا عنها لإسبانيا حتى حين.

بمجرد أن ارتاح الإنكليز من المنافس الفرنسي عمدوا إلى الاستيلاء على "نيو امستردام" من الهولنديين وأطلقوا عليها اسم "نيو يورك" عام 1774م وبذلك لم يبق أمامهم إلا التوسع غرباً لكن كان هناك أمر لا بد من تسويته أولاً, وهو أمر العلاقة غير الواضحة مع الوطن الأم إنكلترا, فقد تولى الملك جورج الثالث الحكم عام 1760م فسعى إلى تقوية الحكم المركزي. ونظراً للتكاليف العالية في الحرب في العالم الجديد, وضرورة إبقاء جزء من الجيش هناك لحماية الحدود الغربية من السكان الأصليين, فقد قام الملك بفرض ضرائب على المستعمرات عام 1764م ثم سنت ضريبة عرفت باسم "التمغة" عام 1765م فاستقبلت باستهجان شديد, خصوصاً وأنه لا يوجد في البرلمان الإنجليزي من يمثل مصالح المستعمرات, ونظراً للعرف القائل أنه " لا ضرائب بلا تمثيل" فما كان من البرلمان إلا الخضوع وإلغاء الضرائب, لكنه عاد ففرض ضرائب جديدة على الورق والشاي والزجاج والرصاص المستورد إلى المستعمرات, فقوبلت بنفس ردة الفعل التي قوبلت بها سابقتها, فخضع البرلمان مرة أخرى وألغى الضرائب باستثناء ضريبة الشاي فقد أصر الملك

علـى إبقائهـا, فقامـت فـي المسـتعمرات حركـة مقاطعـة للبضـائع الإنكليزيـة فقابلهـا الإنكليـز بـالقوة فقتـل فـي بوسـطن عـام 1770م ثلاثة من المستعمرين وهو ما عرف باسم "مذبحة بوسطن" وساد الهدوء في المستعمرات لمدة ثلاث سنوات عندما رست في مرفأ بوسطن سفينة محملة بالشاي الإنكليزي, فطلب منها المغادرة لكن ربانها رفض, فقاد آدامز فرقة من الوطنين في الليل وألقوا حمولة السفينة في البحر, وهو ما عرف لاحقاً ب "حفلة شاي بوسطن", وبناء على هذه الأحداث فقد دعا قادة المستعمرات إلى مؤتمر عام في فلادلفيا عام 1774م نتج عنه نداء إلى الملك بإلغاء الضرائب, فلم ينتج عن مطالبهم شيء, فانعقد المؤتمر الثاني في العام التالي وأعلن تبني الجماعات التي تقاتل الإنكليز على اعتبار أنها جيش وطني,وعين لقيادته جورج واشنطن, وهو شاب أثبت في الحرب الفرنسية شجاعة وقيادة عالية.

ورغـم كـل هـذه الأحـداث فلـم يكـن غالبيـة المسـتعمرين يؤيـدون الانفصـال عـن انكلتـرا, لكـن أملهـم خـاب عنـدما اسـتأجر الملـك الإنجليـزي مرتزقـة ألمـان يقـدر عـددهم بعشـرين ألـف جنـدي لإخضـاع المسـتعمرات التـي أعلـن أنهـا متمـردة. فمـا كـان مـن الولايـات إلا إعـلان وثيقـة الاسـتقلال فـي الرابـع مـن يوليـو عـام 1776م وبناء على ذلك فقد تجهز الجميع للمعركة الفاصلة. ويبدو

أن الفرنسيين كانوا على اتصال مع قادة المستعمرات الإنكليزية في سعيها للثأر من هزيمتها في حرب السبع سنوات, فانطلق من أوروبا العديد من الجنود والمغامرين للوقوف إلى جانب المستعمرات في حربها ضد الملك. وكان على رأس هؤلاء المركيز لافييت, الذي سيكون له شأن كبير في الثورة الفرنسية لاحقاً والذي ما يزال اسمه يطلق على الحديقة الخلفية للبيت الأبيض.

نشبت الحرب وما لبث المستعمرون أن انتصروا عام 1777م على الإنكليز في معركة حاسمة شمال نيويورك , فما كان من فرنسا وإسبانيا إلا دخول الحرب إلى جانب المستعمرات, وفي عام 1781م استسلم جزء كبير من الجيش الإنكليزي, ولما اتضح للانكليز عبثية الاستمرار في هذه الحرب فقد وقعوا بعد ذلك بعامين على معاهدة باريس التي نصت على إنشاء دولة أمريكية تمتد حدودها من البحيرات الكبرى حتى فلوريدا – التي حصلت عليها اسبانيا- ومن شاطئ الأطلسي في الشرق إلى نهر المسيسبي في الغرب. وبذلك ظهرت أول دولة مستقلة في العالم الجديد إلى الوجود, رغم أن ظهورها كان غير واضح المعالم حتى للمستوطنين الأمريكان أنفسهم.

عند الاستقلال كان هناك 13 مستعمرة شبه مستقلة, تدير كل منها شؤونها الخاصة بنفسها, لذا فعند إعلان الاستقلال تم الاتفاق بين المجتمعين في مؤتمر فيلادلفيا أن يكون هناك نوع من الاتحاد بين هذه المستعمرات باسم "الدول الأمريكية المتحدة" حيث تدير كل دولة شؤونها بنفسها باستثناء الشؤون الخارجية والهندية التي أنيطت بالكونغرس. لكن كثير من المستعمرات لم تهتم كثيراً بذلك, فأخذت تتجاهل هذه السلطات وراحت توقع الاتفاقات وتدير العلاقات الخارجية بمعزل عن المستعمرات الأخرى, لذا كان لابد من اتخاذ موقف حازم, فتمت الدعوة لعقد مؤتمر جديد عام 1787م تم الاتفاق فيه على العمل على دستور لتنظيم العلاقة بين الولايات, وفعلا فقد تم الاتفاق على الدستور وتم إعلانه في السنة التالية بعد اعتماده من تسع مستعمرات أما المستعمرات الباقية فلم توقع وترضخ للانضمام إلا بعد الضغط عليها, وتولى رئاسة الاتحاد الجديد قائد جيوش الاستقلال جورج واشنطن.

عندما جاء المستعمرون الأوائل لم يقابلهم السكان الأصليين بعداء بل رحبوا بهم كما فعل إخوانهم مع الإسبان في أمريكا الوسطى والجنوبية, ولكن ما أن تبين لهؤلاء خطر المستعمرين الجدد وتوسعهم المستمر وتهديدهم لمناطق الصيد بأسلحتهم النارية حتى بدأ الصدام بينهم, وبالطبع كانت الغلبة في أكثر الأحيان إلى

المستعمرين لذا فقد كان توسعهم للغرب مستمراً, لكنه وحتى الاستقلال كان يقتصر على المستعمرات الثلاث عشرة الساحلية, ولكن يبدو أن الذهنية الأمريكية كانت تسعى للتوسع منذ البداية, ففي عام 1803م قام الرئيس جفرسون بشراء لويزيانا الواسعة التي كان قد استعادها نابليون من إسبانيا قبل ذلك, ثم و أثناء رئاسة مونرو تم ترسيم الحدود مع كندا, ثم تم الاستيلاء على أراضي مستعمرة فلوريدا وتعويض إسبانيا عنها بمبلغ 5 ملايين دولار.

يتضح هذا الاندفاع التوسعي من خلال القوانين التي أقرتها المستعمرات, فقد نصبت نفسها حاكمة للغرب كله حتى شاطئ المحيط الهادئ, ولأنها لا تملك العدد الكافي من المستعمرين فقد شجعت الهجرة بأن سنت قوانين تبيح استقبال المهاجرين والاستيلاء على ما شاءوا من الأراضي, حيث يمكنهم إدارة شؤونهم بالطريقة التي يرونها حتى إذا وصل عددهم ستين ألفاً ينضمون إلى الولايات المتحدة على قدم المساواة مع الولايات المؤسسة, وقد أتت هذه السياسة أكلها, فقد تدفع سيل المهاجرين الذين يدفعهم الطموح, فانضمت للاتحاد ولاية كنتاكي عام 1792م وتينسي 1796م و أوهايو 1803م.

ومنذ مطلع القرن التاسع عشر بدأ تيار الهجرة المحموم إلى أميركا تدفعه أساطير " الحدود" فكانت تترد على شفاه هؤلاء المهاجرين أغنية " هيا نذهب بعيداً مع نهر أوهايو" باتجاه الغرب ومن هنا فقد ظهرت إلى عالم الوجود ست ولايات خلال ست سنوات فقط, وهي : انديانا 1816م وميسسبي 1817م وإلينوي 1818م وألباما 1819م ومين 1820م وميسوري 1821م , ثم نشبت الحرب مع المكسيك وتم الاستيلاء على تكساس وكاليفورنيا ونيو ميكسيكو مقابل خمسة عشر مليون دولار كتعويض, وأخيرا فقد تنازلت انكلترا عن أوريغون في عام 1846م .

لم يكن هذا التوسع الصاروخي بطبيعة الحال إلا على حساب السكان الأصليين الذين كان يقدر عددهم قبل وصول الأوربيون بحوالي 18,5 مليون نسمة, و الذين تعرضوا لإبادة جماعية أفنت الملايين منهم حتى لم يبق في بداية القرن العشرين إلا ربع مليون, فمن لم يمت منهم بالسيف مات بالأمراض و الأوبئة التي تم نشرها عمداً من خلال إرسال بعض البطانيات الموبوءة للسكان كتبرعات, ومما يؤسف له حقيقة أن الكثير من الكتب التي تتناول تاريخ الولايات المتحدة لا تكاد تأتي على ذكر السكان الأصليين إلا من خلال إشارات عابرة هنا وهناك, حيث يتركز

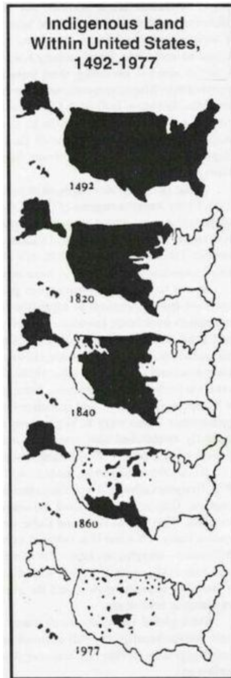
جل اهتمامهم على تاريخ المستعمرات وتطورها, بل ذهب بعضهم إلى إنكار وجود إبادة أصلاً على اعتبار أن الأرض كان يسكنها عدد قليل من القبائل من التي اصطلح على تسميتهم الهنود الحمر, في تكريس للرواية التي تبناها المستعمرون الأوربيون منذ قدومهم في بداية القرن السابع عشر في سفينة مايفلور, فقد كانوا يدعون أنفسهم باسم "الحجاج" ويرون أنفسهم "كبني إسرائيل" وإنما هم مسخرون لاستيطان الأرض التي بلا شعب للشعب الذي بلا أرض.[220] وهناك من يراهن على أن عمليات الإبادة ما زالت مستمرة, عدا عن أن هذه الإبادة لم تقتصر على الناحية الجسدية فقط بل تجاوزت ذلك للإبادة الثقافية, فقد كان يتم أخذ أطفال السكان الأصليين لمدارس خاصة هي أشبه بالمعتقلات, حيث يتم إعطائهم أسماء جديدة, وتعليمهم الثقافة الغربية واللغة الانكليزية ويمنعون بشكل تام من استخدام لغاتهم الخاصة بهم, واستمر وجود هذه المدارس حتى تسعينات القرن الماضي.

---

[220] من الكتب العربية التي تتناول هذا الجانب مؤلفات منير العكش مثل تلمود العم سام, وأميركا والإبادات الجماعية وغيرها



إحدى المدارس الخاصة لتعليم أطفال "الهنود الحمر"



خريطة توضح انحسار أراضي السكان الأصليين

كان التوسع و السيطرة على كافة الأراضي حتى الوصول إلى شاطئ المحيط الهادئ يزيد الشقة بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية, ولأسباب اقتصادية بحتة, فقد كانت الولايات الشمالية تعتمد في مواردها على التجارة في حين أن الولايات الجنوبية كانت تعتمد على الزراعة التي كان عمادها الرئيسي الرقيق الأسود وخصوصا من أجل زراعة القطن, فكان كل طلب انضمام لولاية جديدة يطرح السؤال :هل ستكون ولاية يسمح فيه بالرق أم لا؟ ومن أجل المحافظة على التوازن كان دائماً يتم المساواة في عدد الولايات حتى لو اضطر بعضها إلى الانتظار حتى طلب ولاية أخرى لإبقاء العدد متوازناً, إلى أن تقدم لينكولن بالترشح لانتخابات الرئاسة وهو من أشد المعارضين لتجارة الرقيق وكان أحد وعوده أن يلغي هذا النظام, فلما نجح بفارق ضئيل رحبت بذلك الولايات الجنوبية على اعتبار أنه وفر لها الحجة لإعلان الانفصال, وفعلا فقد سارعت كارولينا الجنوبية بالانفصال وتبعها جورجيا و الاباما و فلوريدا و ميسيسبي و لويزيانا وتكساس ثم انضمت اركنساس وكارولينا الشمالية وفرجينيا, واشتعلت الحرب الأهلية عام 1861م بعد إصرار لينكولن على إعادة الولايات المنشقة بالقوة, وفعلا فقد خسرت الولايات الجنوبية الحرب عام 1865م بعد معارك دامية راح

ضحيتها ما يقارب ستمائة ألف جندي من الطرفين, واغتيل لنكولن نفسه في ذات العام قبل أن يقطف ثمرة انتصاره.

كانت الولايات المتحدة تعيش صعوداً مستمراً منذ بداية القرن التاسع عشر, فقد زاد عدد سكانها من سبعة ملايين عام 1812م إلى ثلاث وعشرون مليون عام 1852م, ولمواجهة نفوذ الدول الأوروبية وبعد تفجر الثورات واستقلال الأرجنتين و تشيلي وكولومبيا والمكسيك والبرازيل وغيرها من دول الجنوب, فقد أعلن الرئيس مونرو عن مبدأه الشهير بأنه لا يحق للدول الأوروبية التدخل في شئون دول العالم الجديد, لكن هذه الدول باتت تخشى الولايات المتحدة القريبة أكثر مما تخشى الدول الأوروبية البعيدة, ولم تخف الولايات المتحدة نواياها التوسعية, فقد اشترت ألاسكا من روسيا, وفرضت على اليابان معاهدة بالقوة, ثم أعلنت الحرب على إسبانيا عام 1898م واستولت على كوبا والفلبين بدعوى تحريرها, ولكنها لم تلبث أن أصبحت دولة احتلال تواجه السكان المحليين بالقوة, وضمت جزر هاواي في العام نفسه, ومن أجل تأمين ممر بحري دبرت ثورة في بنما عام 1903م. ورغم هذه الحروب لكن الولايات المتحدة استمرت في صعودها واستمر تدفق المهاجرين لها بشكل كبير, وهو ما سنذكر بعض تفاصيله في الفصل القادم.

بقي أن نلفت النظر لأمر أخر له أهمية كبيرة في تاريخ العالم الجديد, وهو جلب الرقيق السود من القارة الأفريقية.

لقد كان الاستعباد طوال التاريخ يجري بشكل مواز لأي هجرة أو أي غزوات, فقد كان في غالب الأحيان يستعبد الأسرى من الحروب ويباعون على أنهم رقيق, وذلك ببساطة لأنه لا يوجد خيار آخر فإما قتلهم أو بيعهم لكي يجدوا من يطعمهم, لأن إطلاقهم كان يشكل خطراً في تجميع قوتهم من جديد, ولم يقتصر الاستعباد على الأفارقة بل شمل أجناس متعددة, بل أن كلمة Slave التي تعني عبد اشتقت من اسم السلاف أثناء غزو الهون للقارة الأوروبية كما أسلفنا, لكن ما يميز الاستعباد في هذه المرحلة هو أنه تحول إلى تجارة رائجة ودولية وكثيفة للغاية لدرجة أنها استمرت لقرون, و كان لها نتائج هامة في البلدان التي استهدفتها, وما زالت بعض أثارها واضحة جداً.

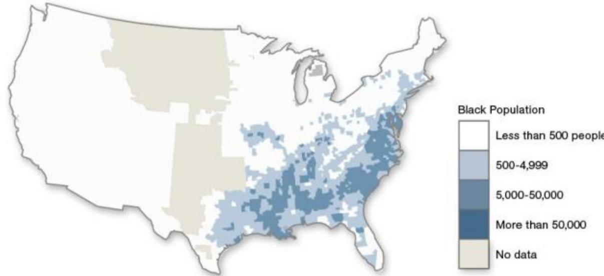
بدأت تجارة الرقيق لتلبية احتياجات أوروبا لليد العاملة, وكان ذلك يتم عن طريق السواحل الغربية للقارة الأفريقية, حيث توجد هناك أسواق الرقيق المصدرة ليتم نقلها إلى أوروبا عن طريق لشبونة في البرتغال وأشبيلية في إسبانيا, حيث أصبحت هاتين المدينتين أهم أسواق الرقيق في أوروبا, ولما تم اكتشاف القارة الأمريكية الجديدة, ونظراً لازدياد الحاجة لليد العاملة هناك,

ولعدم تعاون السكان الأصليين من "الهنود الحمر" الذين كانوا يفضلون الانتحار الجماعي على العمل تحت سياط الأوربيين, أدت هذه العوامل إلى زيادة الطلب على العبيد بشكل كبير جداً وقد وصلت أولى السفن إلى أمريكا الجنوبية منذ زمن مبكر حيث كانت البرازيل إحدى أهم نقاط استقبالهم, كما أن الولايات المتحدة بدأت باستقبال العبيد وبالذات في الولايات الجنوبية بعد تأسيسها مباشرة, حيث وصلت أولى هذه السفن عام 1619م.

وبسبب هذا الرواج الكبير لهذه التجارة فقد أنشئت العديد من الشركات الخاصة بالرقيق, مثل شركة غينيا الفرنسية, وشركة البحر الجنوبي الإنجليزية, حيث كانت تنطلق سفن هذه الشركة إلى أسواق البيع على الساحل الأفريقي, الذي يتم فيه اختطاف الرجال وأسرهم ثم تقديمهم للنخاسين الأوربيين الذين يستعرضون البضاعة ثم يختارون منها ما يعتقدون أنه يلائم احتياجاتهم, ليتم نقلهم لسفن تم تصميمها خصيصاً لتستوعب أكبر عدد ممكن من الرجال المقيدين بالسلاسل, ثم إذا شقت هذه السفن عباب البحر وتبين أن بعضهم يعاني من مرض ما, أو أن حمولة السفينة أكثر مما يجب, يتم التخلص منهم بسهولة برميهم في البحر, وقد كان يهلك لهذه الأسباب 20-30% من المستعبدين

قبل أن يصلوا لسواحل العالم الجديد, حيث يعانون الأمرين في مزارع القطن والتبغ.

واستمرت هذه التجارة رائجة طوال القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر, حيث وصل للعالم الجديد ما يقارب عشرين مليون نسمة من الزنوج الأفارقة, تركز العديد منهم في الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة مما سبب مشكلة تحرير الرقيق التي تسببت في اندلاع الحرب الأهلية كما أسلفنا. وما زال إلى اليوم تركز الأفارقة الأمريكان في الولايات الجنوبية الشرقية.

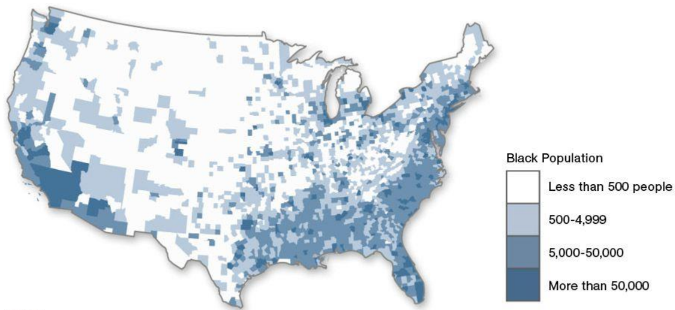


1860
On the eve of the Civil War, 89 percent of the nation's blacks were slaves, most living in the South; among free blacks, more than half lived in the South.

U.S. black population: 4.4 million (14.1% of total population)

خريطة توضح توزع الأفارقة الأمريكان

عام 1860م



2010
Family ties and an economically stronger South have created a reverse migration in recent decades; 55 percent of blacks now live in the South, increasingly in suburbs.

Black population: 42 million (13.6% of total)

Alaska: 33,150 (4.7% of state total)
Hawaii: 38,820 (2.9%)

عام 2010م

الفصل الثامن

الهجرة في عالمنا

استمرت الولايات المتحدة في التصاعد الاقتصادي بعد الحرب الأهلية, لذا فقد اجتذبت المزيد والمزيد من المهاجرين, لكن ذلك لم يكن حصراً عليها فقد كانت جموع الأوربيين تعبر المحيط متجهة إلى العالم الجديد حيث أحلام الثراء ما زالت تراود الكثيرين, وكانت حصة بريطانيا هي الأولى من هذه الهجرة فيما بين العامين 1845-1915م وتقدر بـ 40% أما إيطاليا فقد حلت ثانياً ب 16% وألمانيا 13% , وكل من النمسا والمجر واسبانيا وروسيا بين 4-7%, وكانت وجهة 70% من هؤلاء المهاجرين إلى الولايات المتحدة و 10% إلى الأرجنتين و 5% إلى أستراليا وكندا والبرازيل.[221]

أما أستراليا فقد بدأت الهجرة البريطانية لها منذ عام 1788م , وقد بدأت عن طريق ترحيل المحكم عليهم إلى تلك النواحي لاستعمارها, واستمرت زيادة المستعمرين التي ترافقت لاحقاً مع ترحيل المحكوم عليهن من النساء في بريطانيا إلى أستراليا

---

[221] تاريخ الهجرات الدولية

للتزاوج مع المستعمرين هناك وتكوين استيطان طويل الأمد, ثم لاحقاً تكرر نفس السيناريو في الحاجة لأيد عاملة رخيصة, لذا سمحت بريطانيا بالاستعانة بالعمالة الرخيصة من الصين والهند وجزر جنوب المحيط الهادئ, لكن يبدو أن المستعمرين الأستراليين أحسوا بخطر ذلك, لذا فقد زاد العداء ضد هؤلاء المهاجرين عموماً والصينيين منهم تحديداً, فكانت تلك أولى مهام البرلمان الاتحادي عام 1901م في أن ينهج سياسة " أستراليا البيضاء", ثم حدث الأمر ذاته في نيوزيلندا التي بدأ البريطانيون استعمارها منذ العام 1830م ببضعة آلاف حتى وصل عددهم إلى 250 ألف عام 1871م. ولا ننسى أيضا المجاعة العظمى التي حدثت في أيرلندا بسبب فساد محاصيل البطاطس, وهي الغذاء الرئيسي الذي يعتمد عليه السكان, فمات من ومات وهاجر من هاجر, واليوم نجد أن سكان أيرلندا حوالي أربعة ملايين في حين يوجد من أحفاد المهاجرين في الولايات المتحدة فقط عشرة أضعاف هذا الرقم.

لقد كان للثورة في مجال الطب منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في أوروبا عامل مهم في زيادة معدل الولادات وانخفاض معدل الوفيات, فساهم ذلك في اكتظاظ القارة الأوربية بسكانها ففاض من زاد منهم إلى العالم الجديد, ويمكننا

القول أن ذلك الأمر استمر حتى أواسط القرن العشرين. وقد كانت الحكومات في الولايات المتحدة وكندا واستراليا ونيوزيلندا تحاول دائماً المحافظة على الهوية الأوروبية - الهوية الانجلوسكسونية حصراً في بعض الأحيان – مما دفعهم إلى إصدار العديد من القوانين التي تحد من هجرة الآسيويين, حتى وإن احتاجوهم لأوقات معينة كأيد عاملة.

أما القرن العشرين فقد كان حافلاً بالأحداث العالمية, فلم تمض عشرين سنة حتى انفجرت الحرب العالمية الأولى, التي اشتركت فيها لأول مرة أطراف متعددة من قارات متعددة بما في ذلك الولايات المتحدة التي كانت حتى ذلك الحين تعتبر نفسها في معزل عن أحداث العالم القديم, وكان أثر تلك الحرب مزلزلاً, فقد كانت الخسائر البشرية كبيرة للغاية من قبل كل أطراف المتحاربين, بالإضافة إلى استعانة الدول الاستعمارية وعلى رأسها فرنسا وبريطانية بمستعمراتها بعد الحرب, وتوسع هذه المستعمرات بعد الحرب وبالذات على حساب الدولة العثمانية التي كانت من الخاسرين.

ثم كان من نتيجة المعاهدات التي أنهت الحرب أن اضطر في أوروبا وحدها إلى النزوح ما يقرب من خمس ملايين مواطن من أجل تطبيق هذه الاتفاقات, حدث نفس الأمر فيما بين تركيا

واليونان بموجب معاهد لوزان التي أنهت الحرب بينهما, حيث اضطر ما يقرب من مليون ونصف من اليونانيين إلى مغادرة أراضيهم, مقابل مغادرة أربعمائة ألف تركي لأرضهم أيضاً, ولا ننسى عمليات تهجير الأرمن التي تمت من قبل الدولة العثمانية لنقلهم من الشمال إلى بلاد الشام لمنعهم من التعاون مع الروس أثناء الحرب, حدث الشيء ذاته مع بعض الشعوب الإسلامية الحليفة للدولة العثمانية في القوقاز, فقد تم ترحيلهم إلى تركيا عن طريق البحر الأسود.

أما في روسيا فبعد اندلاع الثورة البلشفية فقد برزت ظاهرة جديدة وهي التي دعيت بالمواطنين "الذين ليس لهم دولة" وكان عددهم كبيرا للغاية قدر عام 1926م ب 9 ملايين ولم تكن أي من الدول المحيطة على استعداد لقبولهم. ولم تكد تهدأ الأمور بعد الحرب العالمية حتى اندلعت الأزمة الاقتصادية في الثلاثينات, فارتفعت الأصوات بالعداء للأجانب والمطالبات الوطنية لكن ذلك لم يدم حتى اشتعلت الحرب العالمية الثانية في أواخر الثلاثينات.

ورغم أن الحرب كانت مدمرة على الصعيد الإنساني, فقد راح ضحيتها عشرات الملايين, عدا عن المصابين الذين كانوا في حاجة لمن يرعاهم, إلا أن تأثيرها على التنقلات البشرية كان كبيراً جداً.

وفـي فتـرة بعـد الحـرب بـدأت الحركـة الاسـتعمارية فـي التراجـع, وبدأت البلدان تكسب استقلالها, ولكن ذلك لـم يكـن بهـذه السـهولة, فقـد سـعت الـدول الاسـتعمارية لتقسـيم تلـك البلـدان وزرع بـذور الشـقاق بـين هـذه الأقسـام لكـي تبقـى ضـعيفة وبحاجـة مسـتمر للمسـتعمر إمـا مـن خـلال الاختلافـات العرقيـة أو الدينيـة. وعنـد انسـحاب القـوى الاسـتعمارية ترافـق معهـا كثيـر مـن سكـان الـدول المسـتعمرة ممـن كـانوا يتعـاونون مـع المسـتعمرين خشـية انتقـام القوى الوطنية.

أمـا التنقلات بـين البلـدان التـي رسـمت حـدودها حـديثاً فقـد شـملت العديد من الـدول, كتلـك التـي حـدثت بسـبب انفصـال باكسـتان عـن الهند, حيث تبادل البلدان ما يقارب 17 مليون نسمة مـا بـين مسـلم وهندوسـي ليـتم ترسـيم الحـدود حتـى تتطـابق مـع الهويـة الدينيـة الجديدة لهذه الدول !

في حين استمرت الهجرة إلى العـالم الجديد وبصـورة خاصـة مـن ألمانيا وإيطاليا, واستمرت هذه الهجرة كذلك حتـى الستينات, فقد كان يصـل للأرجنتـين مـثلاً 60 ألـف أوروبـي كـل عـام منذ نـهايـة الحرب العالمية حتـى عـام 1960م, لكـن ذلـك تغيـر منـذ الستينات حيث استقرت الأمور في القارة الأوربية وبدأت بعض البلدان في التقدم الصنـاعي السريع بعد الحـرب المدمرة, مما أدى إلى ضـعف

إقبال الأوربيين على الهجرة إلى ما وراء المحيط, فقامت بسبب ذلك الولايات المتحدة عام 1962م بإلغاء نظام الحصص الذي يتعلق بالبلدان التي يقبل منها المهاجرون, فتدفقت موجات جديدة من المهاجرين الآسيويين .

أما في القارة الأوروبية فقد أصبحت العديد من البلدان مغرية للهجرة كما أنها تحتاج لمزيد من الأيد العاملة للنهوض بالاقتصاد بعدما دمرته الحرب. فقامت فرنسا بتعديل قوانينها حيث أعطت سكان المستعمرات بعض الحقوق التي كانت حصراً على الفرنسيين, ثم عقدت اتفاقيات مع إيطاليا لأنها اعتبرت أن إيطاليا أقرب ثقافياً, كما أن بإمكانهم الاندماج في المجتمع الفرنسي بسهولة أكبر, رغم الأحداث الدامية التي حدثت بين العمال الإيطاليين والفرنسيين في مرسيليا قبل ذلك بعشرات السنوات, فوصل بموجب هذه الاتفاقيات 54 ألف عامل إيطالي إلى فرنسا.

أما في ألمانيا فقد كانت الغلبة للمهاجرين الأتراك إذ بلغ عددهم في السبعينات حوالي نصف مليون مهاجر.

لم تطل الحال ببلدن جنوب أوروبا – ايطاليا ,اسبانيا, البرتغال, اليونان – حتى أصبحت هي الأخرى من البلدان المستقبلة للهجرة سواء العابرة منها أو المستقرة. وقد ساهم في ذلك العديد من العوامل, فقد كان الانفجار السكاني عالمياً حيث ازداد عدد سكان

العالم من 2,5 مليار عام 1950م إلى 5 مليارات عام 1987م في حين كانت الزيادة متواضعة في البلدان المتقدمة, وهذا يعني حاجتها المتزايدة إلى أيد عاملة للنهوض بأعباء اقتصادياتها, أضف إلى ذلك بروز منافس قوي في الدول الآسيوية حيث اليد العاملة الرخيصة مما شكل تهديد حقيقي لانتقال الكثير من الصناعات في زمن العولمة والشركات المتعددة الجنسيات إلى تلك البلدان حيث اليد العاملة الرخيصة وضعف المنظمات العمالية وقرب المواد الخام. لكن ذلك لم يكن بلا تكاليف, فقد ازداد الشعور الشعبي في هذه البلدان بالتهديد بفقدان هويتها الوطنية, وبرزت دعوات تندد بمحافظة المهاجرين على ثقافة ولغة البلدان التي قدموا منها وتدعي أن المهاجرين فشلوا في الاندماج في المجتمعات المستقبلة, فظهرت بعض أحداث الشغب, كالتي حدثت في فرنسا عام 2005م, وفي استراليا عام 2006م بين بعض البيض وبعض الشباب ذوي الأصول اللبنانية, حيث برزت الدعوات للمحافظة على هوية استراليا البيضاء[222].

لا أحد يملك اليوم أرقاماً دقيقة لعدد المهاجرين نظراً لازدياد أعداد المهاجرين غير الشرعيين, إلا أن العدد قدر عام 2007 ب 200 مليون مهاجر, يندرج تحت ذلك العديد من أنواع

---

[222] لابد وأن هذا الأمر كان مثيرا من وجهة نظر سكان استراليا الأصليين (أبوريجينال)

المهاجرين, كاللاجئين السياسيين أو النازحين, أو العمالة المؤقتة, وكذلك الباحثين عن الاستيطان الدائم.[223]

ونحن حقيقة طوال بحثنا كان جل تركيزنا عن المهاجرين المستوطنين, الذين تشكل تحركاتهم تغييرات كبيرة في الثقافة والجغرافية السياسية والتوزيع العرقي. لذا فإننا لن نتطرق لهذه الهجرات المؤقتة أو هجرات اليد العاملة أو حركات النزوح واللجوء بسبب أحداث العنف التي تجري هنا أو هناك, نظراً لكثرة البحوث التي تغطي هذه الجوانب, كذلك فإن المنظمات الدولية تصدر العديد من التقارير التي تحصي هذه الهجرات وتتناولها بالدرس الدقيق.

أما على صعيد الهجرات الاستيطانية, فمن الواضح جداً أن الولايات المتحدة أو كندا أو بلدان أميركا اللاتينية لم تعد مستعمرات أوروبية لا سياسياً ولا ثقافياً أو عرقياً, فهي أشبه ب "دول عالمية" تنصهر فيها جميع الأعراق والثقافات والأديان, وهذا الأمر لم يقتصر على القارات الأمريكية بل بدا واضحاً في القارة الأوروبية نفسها, وهو أمر أحس من خلاله سكان تلك البلدان بالتهديد, خصوصاً بعد التدفقات الكبيرة للاجئين خلال السنوات الأخيرة, فارتفعت أصوات الصحافة الشعبية, وبدأت

---

[223] عصر الهجرة

التيارات اليمينية المتطرفة بإيجاد أرضية خصبة لتبرير مطالبها, وقد وجدت أذان صاغية في العديد من البلدان الأوروبية, حيث حصلت على نسب لا يستهان بها من أصوات الجماهير.

وفي إيطاليا التي تشكل البوابة الرئيسية للمهاجرين حالياً, برزت أصوات قوية ترفض استقبال اللاجئين تماماً, وقد عبر عن ذلك عمدة إحدى المدن الإيطالية عندما وجد في مدينته الصغيرة عدداً كبيراً من المهاجرين, بالقول :" إننا نتعرض لغزو" ثم تم محاصرة المكان من الأهالي وعدم السماح للمهاجرين بالخروج.

وفي الانتخابات الايطالية التي جرت قبل أيام فازت التيارات اليمينية التي تضع ملف المهاجرين في أولى مهامها, حيث تم ترحيل العشرات منهم, وتم إغلاق بعض المساجد.

ولكن إيقاف تيار المهاجرين لن يكون بهذه السهولة لأن للمسألة أسباب أعمق, فالقضية مرتبطة ارتباطاً تاماً بالاقتصاد الأوروبي, ولا يمكن لهذا الاقتصاد الوقوف على قدميه والمنافسة بدون الاستعانة بالمهاجرين, و لا يمكن ببساطة أن يأتي هؤلاء المهاجرون بأيديهم بما تحمله من قوة فقط, بدون رؤوسهم وما تحمله من أفكار وثقافات. وهناك من يحذر اليوم بأن مشروع التعدد الثقافي نفسه في خطر, وأن الاتحاد الأوروبي مهدد بالتفكك ما دام هذا الملف يثير الكثير من الخلافات بين الدول,

وخصوصا بعد خروج بريطانيا, رغم الدعم المتواصل من قبل ألمانيا, وهي أهم الداعمين حالياً لبقاء الاتحاد. ويبدو أن الأيام والسنوات القادمة ستشهد تغييرات كبيرة في هذا الجانب,

الفصل التاسع

الهجرة و الإنسان

تناولنا في البحث طوال الفصول السابقة التنقلات البشرية على مدى التاريخ المعروف بما هو متوفر من معلومات لدينا اليوم, مع الأخذ بالاعتبار أن هذه المعلومات التاريخية قابلة للتعديل الجزئي أو الكامل من خلال ما قد يستجد من معلومات وأبحاث واكتشافات أثرية. لكننا في النهاية نتساءل: ما الفائدة المرجوة من كل هذا الكم من المعلومات التاريخية المعروفة والمتوافرة في المراجع؟ وما الذي يمكن أن نستخلصه من كل ذلك؟

إن الحقيقة الثابتة التي اتضحت لنا طوال الصفحات السابقة هي أن التحركات البشرية الجماعية لم تنقطع أبداً, فهي تزيد وتنقص, وتختلف من مكان إلى آخر, وتأخذ أشكالاً متعددة, لكنها تبقى مستمرة بشكل دائم, وهذه الحقيقة لابد وأنها تؤثر على كافة مناحي الحياة الأخرى, وتتأثر بها كذلك, من حيث المسببات والنتائج, لذا سنتناول هذه المؤثرات بالبحث واحدة واحدة.

التأثيرات الجيوسياسية

للهجرات تأثير هائل وهام جداً في مجال الجغرافية السياسية, بل أن التنقلات البشرية كما مر بنا ترسم الحدود السياسية بدقة, وكثيراً ما تحطم الحدود القائمة لترسم حدوداً جديدة.

فالحدود التي سادت في حضارات مابين النهرين, والتنافس بين الدول الشمالية والجنوبية, ثم بين الفرس والإغريق, ثم بناء إمبراطورية الإسكندر والرومان وما بعدها, كلها رسمت حدوداً سياسية مختلفة, إما بسبب انتشار مجموعات مهاجرة معينة إلى الحدود القصوى التي يمكنها من بسط سيطرتها عليها, أو العكس, حيث أن سيطرة سلطة واحدة على مساحات جديدة من الأرض لسنوات طويلة يخلق نوعاً جديداً من التجانس والهوية, ويجعل التنقل بين أرجاء مناطق سيطرة هذه السلطة سهلاً للغاية, مما يعني مزيداً من التحركات التي تتم تحت السطح بشكل هادئ وبعيد عن أقلام المؤرخين.

ولو أننا وضعنا أمام أعيننا اليوم خريطة العالم لوجدناها تطابق بشكل كبير الهجرات والتنقلات التي تحدثنا عنها, فالولايات المتحدة وأمريكا "اللاتينية" وأستراليا ونيوزيلندا هي نتيجة مباشرة لهجرات الغربيين, والحضور الفرنسي في كيبيك مثلاً مازال ماثلاً ومعترفاً به حتى اليوم.

ينطبق الأمر ذاته على الدول الأوروبية التي رسمت حدودها بشكل ما بسبب هجرات القبائل الجرمانية خلال العصور الوسطى.

كذلك الأمر بالنسبة لتركيا التي تشكلت بعد معركة ملاذكرد نتجة تقدم الترك إلى هذه المنطقة, ولشعوب القوقاز أيضاً التي قدمت في فترة مقاربة. والمغرب العربي ما كان ليكون عربياً لولا الفتح الإسلامي وهجرات متعددة لاحقة من القبائل العربية.

كذلك فإن للهجرات الكثيفة أحياناً تأثيرات غير مباشرة من خلال موجات النزوح التي تسببها, حيث أن اندفاع جموع كثيرة من البشر إلى منطقة ما يؤدي غالباً إلى نزوح عدد كبير من السكان السابقين هرباً من أمام هذه الجموع, وقد تولد هذه الموجه الثانية موجات أخرى, كما حدث عند نزوح القوط أمام جموع الهون مما أدى إلى تسبب القوط نفسها بموجات داخل الإمبراطورية الرومانية.

الأثر الحضاري:

غالباً ما كانت تتم الهجرات بشكل عنيف, من قبل مجاميع من البشر تجتاح جموع مستقرة, فيتبع هذا الاجتياح فترة من الدمار نتيجة العمليات العسكرية, قد تطول أو تقصر هذه الفترة حسب الظروف وموازين القوى, وهو الأمر الذي يلاحظه كل من يدرس التاريخ, كما فعل ديورانت عندما قال أن صرح الحضارة مهدد بشكل دائم من اجتياح الهمجية, ولاحظه ابن خلدون واعتبر أن ذلك يرجع لطبيعة العرب, رغم أن الأمر لا يتعلق بالعرب وحدهم بل هو من الآثار الجانبية لأي عمليات عسكرية تحطم القوى القديمة وتبني قوى جديدة. لكن هذا التحطيم لا يدوم طويلاً فالقوى الفتية في المهاجرين تمتزج مع السكان المحليين وينتج عنها في كثير من الأحيان حضارة جديدة ذات طابع مختلف تماماً, حيث تتزاوج فيها ثقافات القادمين الجدد والسكان السابقين لهم.

والحضارات القديمة كانت إما تنتج عن هجرات معينة, أو أن بروز هذه الحضارات وسيطرتها يسهل الأمر لهجرات جديدة.

وفي عالمنا اليوم كان للهجرات الأوروبية المختلطة إلى العالم الجديد أثر كبير, وهناك من الباحثين من يرى أن لحظة إعلان الدستور الأمريكي كانت هي البداية الأولى للدول الوطنية, التي

تتشارك فيها مكونات عرقية ودينية مختلفة تحت غطاء واحد من المواطنة.

والمهاجرون دائماً ما ينقلون أساليب عيشهم معهم, وكثيراً ما يزدرون أساليب وثقافة المهزومين, والمهزوم مولع بتقليد المنتصر كما قال ابن خلدون, لذا نجد أن الرومان أنفسهم رغم تقدمهم الحضاري الكبير على الغزاة الجرمان "البرابرة" لكنهم مع ذلك بدئوا يقلدونهم في طريقة لبسهم وأزياءهم, ويبدو أن هذا الأمر انتشر إلى حد أن الأباطرة أصدروا أوامر تحرم هذه الملابس في روما تماماً

الآثار الاقتصادية:

يعتمد مدى عمق الآثار الاقتصادية للهجرات على مدى عنف الصراع الناتج عنها, فكلما كان الصراع أكثر عنفاً كانت الآثار أكثر تدميراً, حيث يتم تدمير البنية التحتية, وقد تندثر بسبب ذلك مدن كاملة أو تهجر, وتظهر مدن أخرى جديدة, كما أن مكونات الاقتصاد نفسها قد تتغير, فالشعوب الرعوية عندما تجتاح مناطق جل سكانها من المزارعين فهذا يعني تدميراً طويل الأمد لهذا الجانب, في حين قد يجلب القادمون الجدد معهم أساليبهم أو

منتجاتهم إلى الأرض التي قدموا لها, أو العكس كما حصل عند اكتشاف القارات الأمريكية, حيث تعرف الأوربيون على محاصيل جديدة كالطماطم والتبغ, أضف إلى ذلك أن كميات الذهب الكبيرة التي نقلت إلى إسبانيا سببت مشاكل اقتصادية كبيرة لكل من المستعمرات التي تعتمد على الواردات الإسبانية, ولإسبانيا نفسها كذلك من حيث سببت التضخم في أسعار السلع.

بل أننا نجد المؤرخين يواجهون صعوبة في التفريق بين انتقال المهاجرين وأساليب الإنتاج في الحضارات القديمة, فانتقال الزراعة والتدجين وبعض أنواع المحاصيل كان يتم عن طريق حركات انتقال بعض الشعوب.

واليوم ما تزال الآثار الاقتصادية للهجرة تثير النقاش, فالتحويلات المالية التي يرسلها المهاجرون إلى الوطن الأم تؤثر على اقتصاديات البلدان المستقبلة والبلدان المرسلة, ويختلف هذا التأثير في نواحي عديدة, من حيث قدرة هذه البلدان على التنمية, ومن حيث توفر الأيد العاملة, وازدياد أو انخفاض معدلات الأجور.

الأثر الديني:

كثيراً ما كان البشر قديماً ينظرون إلى صراعاتهم على الأرض على أنها مجرد تمثيل لصراعات الآلهة في السماء, لذا كان المهزوم في كثير من الأحيان ينتقل لعبادة آلهة المنتصر إما لأنها أقوى أو لأنه يرى أن آلهته غير حقيقية فلو كانت كذلك لما هزم وهو يتعبد لها. أما في مراحل لاحقة فقد وجود المهاجرين وبسط سيطرتهم على منطقة ما كفيل بتحول سكان هذه المنطقة سواء من خلال القوة الناعمة أو الخشنة إلى دين المسيطرين الجدد, أو تجنباً للضرائب التي تختلف حسب دين الأفراد, أو طمعاً بمكاسب في الدولة الجديدة

ويحدث في بعض أحيان قليلة العكس, حيث ينتقل المنتصر رغم انتصاره وينظم إلى عقيدة المهزوم, إما لاعتبارات سياسية تجنباً لمزيد من الصدام مع السكان المحليين, أو لغلبة مفاهيم الدين عند المحليين على مفاهيم الوافدين الجدد, وهكذا نجد أن المغول الذين شكلوا أكبر تهديد على العالم الإسلامي طوال تاريخه, والذين دمروا عاصمة الخلافة وقتلوا الخليفة رغم ما يتميز به من منصب ديني وسياسي, إلا أنهم وخلال سنوات قصيرة تحولوا أنفسهم للدين الإسلامي. أيضا تحولت القبائل الجرمانية التي اجتاحت الإمبراطورية الرومانية إلى الديانة المسيحية, سواء

على مذهب الإمبراطورية نفسه أو المذهب الآريوسي المخالف. أو قد يحدث نوع من الامتزاج والتحولات الفردية بسبب الاختلاط الاجتماعي, كما في كثير من أسفار التوراة التي تنعي على العبرانيين تزاوجهم مع الكنعانيين وعبادتهم لبعل.

وقد يحدث في البدايات بعض من سوء الفهم بين القادمين الجدد والمقيمين السابقين في هذا الجانب, فينسج كل منهم أساطير عن عبادات الأخر وآلهته, إما للحط من قدرها, أو بسبب الخوف, أو ببساطة لعدم الفهم لاختلاف الثقافة, فيروى أن أحد زعماء الأنكا جاء بسطل مليء بالذهب فقال لمن حوله, هل تعرفون ما هذا؟ إنه إله الإسبان, فدعونا نرقص له حتى يرضى عنا ولا يمسنا بأذى, وبعد أن انتهوا من الرقص رأى أن يرمي الذهب في النهر حتى لا يسمع به الإسبان, لكن ذلك لم ينجيه من القتل لما وصلت الحكاية لهم.

والأسبان أنفسهم كانوا يعتقدون, بما فيهم لاس كازاس, أن القبائل في الأرض الجديدة يعبدون الشياطين, بسبب تلك الأشكال الغريبة التي يرتدونها أو يضعونها في معابدهم, وهي أشكال تشبه تلك التي كان يرسمها الأوروبيون في الكنائس لتجسد الشياطين.

وفـي عالمنـا اليـوم تعتبـر القضـية الدينيـة أهـم أسـباب الخـوف الأوروبي من المهاجرين, لأن التيارات الشعبية والصحافة بدأت في التخويف من أن ازدياد أعداد المهاجرين في هذه البلدان يفتح الباب على مصراعيه لـ "أسلمة أوروبا", وبدأ هذا الجانب يأخذ منحى تصاعدي خصوصاً بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

الأثر العرقي:

لا أدري حقيقـة بعـد كـل هـذه التـنقلات البشـرية إن كـان يمكننـا الحديث فعلاً عن "الأعراق", فكلما أوغلنا في التاريخ كلما بدأ المصطلح نفسه يفقد معناه, ومما يبدو لي أن الشعوب القديمة كانت أكثر انفتاحاً على بعضها البعض, وكانت أكثر احتراماً لبعضها البعض, حتى وإن نشبت بينها المعارك والحروب.

أضـف إلـى ذلـك أن المصـطلحات التـي يتعامـل بهـا المؤرخـون والأنثروبولجيون تخفي أكثر مما تكشف, كالتصنيف إلى شعوب " سامية " وشعوب " هندو – أوروبية " وهو تقسيم في أساسه يستند على الفروقات اللغوية التي وصلت لنا, ولا يمكننا الجزم إن كان لهذه الفروقات أسس عرقية تستند إليها. فإذا ما عدنا بالزمن إلى مراحل ما قبل التاريخ فإننا لا نكاد نجد إي دليل يمكن أن

يكون أساساً للتمييز العرقي بين البشر, خصوصاً بعد أن ظهر للباحثين أن الفروقات الجسمانية الظاهرة لا تكشف الحقيقية العرقية, فقد تعود هذه التغييرات إلى المائتين سنة الأخيرة[224]

كما أن خضوع الشعوب المختلفة لسلطة واحدة في منطقة جغرافية واسعة كفيل بأن يسهل اختلاط هذه الشعوب فيما بينها, فالجيش الفارسي مثلاً الذي هاجم اليونان كان يتألف من كل الشعوب التي خضعت لسلطة الفرس بما في ذلك إغريق آسيا.عدا عن ثقافة الترحيل التي كانت تسود الإمبراطوريات القديمة لضمان السلم, حيث يتم ترحيل شعوب وقبائل كاملة حتى لا تشكل تهديد لسلطة هذه الإمبراطوريات.

والشعوب التي تسكن منطقة معينة لفترة كافية, سترفض العودة لأن الأجيال اللاحقة لن ترى الأرض التي ولدت فيها إلا وأنها هي الوطن الحقيقي, وهي لا تعرف عن الأرض التي قدم منها أبائها إلا الاسم, وهكذا فقط رفض كثير من اليهود العودة بعد نهاية السبي البابلي, كما رفض العرب الذين استوطنوا في أواسط آسيا العودة عندما طلب عمر بن عبد العزيز عودتهم, وهو أمر غير مستغرب على من ولد في أرض ما و ترعرع و عاش فيها بأن يرفض الانتقال إلى أرض لا يعرف عنها سوى أسمها لمجرد

---

[224] الإنسان في الشتات

أن أبائه أو أجداده ولدوا هناك, إلا إذا أجبرته ظروف معينة على الانتقال كتلك التي أجبرت أجداده على القدوم.

بل إن وعينا بالذات والأعراق الأخرى هو وعي يتشكل ويختلف من عصر إلى آخر, ولا يتمتع بالثبات الذي نظنه, والهجرات التي كانت تحدث في مكان ما كانت ارتداداتها ابعد من المنطقة الجغرافية التي تحدث فيها فقط, فهجرات البرابرة مثلاً على حد وصف ديورانت أدخلت دم ألماني غزير إلى إيطاليا, ودم "غالي" إلى إسبانيا, ودم آسيوي إلى روسيا والبلقان وبلاد المجر[225]. والأمر ذاته يتكرر بصور مختلفة على مدار التاريخ.

الأثر الاجتماعي :

أن هذا الانتقال الكبير للجماعات البشرية على مدار التاريخ, لابد وأنه ولد الكثير من الآثار الاجتماعية الإيجابية والسلبية, فالصراع بين القادم والمقيم يكون مدمراً للبنى الاجتماعية القديمة ليؤسس بنية اجتماعية جديدة, ويختلف هذا الأمر حسب حدة وقوة المواجهة, فكلما كانت المواجهة العسكرية أكثر عنفاً, كلما كان ذلك مؤناً بتدمير المجتمع السابق, وكلما كان التسرب أكثر

---

[225] قصة الحضارة

سلاسة, كلما كان تأثير ذلك أقل على المجتمع المستقبل. رغم أنه في أكثر الهجرات التي مرت بنا, كان دائماً ما يسبق الهجرات الكبرى, هجرات فردية وتسرب بسيط, حتى قد ينخرط هؤلاء المهاجرون السابقون في مواجهة أقاربهم من المهاجرون الجدد, كما كان القائد الروماني "استلكو" وهو جرماني الأصل أحد أهم القادة الرومان في مواجهة اجتياح الجرمان. بالإضافة لكثيرون غيره كانوا جنودا في الجيش الروماني.

وهناك صراع من نوع آخر, هو صراع الأجيال الطبيعي, لكنه في حالة المهاجرين يجد الكثير مما يغذيه في اختلافات بين المهاجرين أنفسهم. فالجيل الأول من المهاجرين غالباً ما يتمتع "بثقافة منقولة" هي ثقافة الوطن الأم التي نشأ وتربى بها, وهو يرى نفسه غريباً عن المجتمع المحلي بنظمه وعاداته كافة, وكثيراً ما ينظر لها بازدراء. لكن ذلك لن يكون حال الأجيال التالية, التي ستولد وتتربى في بيئة جديدة مختلفة تماماً عن بيئة أبائها. وهذا الأمر مشاهد بشكل كبير لدى المهاجرين في عصرنا هذا, فالآباء يبذلون كل جهودهم لتوريث ثقافتهم ولغتهم لأبنائهم, ولكن الأبناء قد ينظرون لهذه الثقافة القديمة بشكل مختلف, مما يسبب الكثير من المشاكل التي قد تصل إلى القتل عندما يتعلق الأمر بالأخلاقيات أو الأديان. ومشكلة التكيف قد تواجه المهاجر

وذريته في حال كانت ثقافة البلد المستقبل هي المسيطرة, وقد تواجه السكان المحليين السابقين في حال فرض المهاجرون الجدد ثقافتهم وقيمهم على المجتمع.

والاختلاط لا محالة قائم بين المهاجرين والمحليين, بل قد يبدأ منذ السنوات الأولى,رغم اختلاف الأعراق أو الأديان, حيث نجد أن الفاتحين المسلمين تزوجوا من أهل الكتاب منذ بدأ فتح العراق, واختلاط الأجيال اللاحقة هو أمر لا تخطئه العين, فالملامح الآسيوية تكاد تكون نادرة في تركيا الحديثة, والملامح الهجينة موجودة في القارة الأمريكية ولم تسلم منها إسبانيا نفسها. بل إننا نجد أن أشد الشعوب تمسكاً بهويته وازدراء لغيره لم يسلم منها, وهو الشعب الإسرائيلي في عز عنفوانه, فالتوراة لا تكف عن هجاء أبناء الشعب الذين يتزوجون من بنات الكنعانيين ويزوجونهم بناتهم ثم يعبدون بعل ويهجرون إله آبائهم !

الأثر الأدبي :

تولد الهجرة بما تفعله من تغييرات على المستوى الاجتماعي الكثير من الآثار الإيجابية والسلبية على المستوى الوجداني في الإنسان, فينعكس أثر ذلك بشكل واضح في الآداب التي يخلفها هؤلاء الناس, سواء كانوا من المهاجرين أنفسهم, أو من المجتمعات المستقبلة لهم .

والهجرة تكاد تكون مرادفة للغربة والفقد, فقد الأحبة وفقد الأوطان. ولعل الصراع في وجدان الأجيال التي تتولد فيها حركات هجرة كبرى لا تقل عن الصراعات بالحراب والسيوف, إلا أن الأولى تنتج لنا ثماراً عذبة, ويمكننا القول أن " العهد القديم" هو قصة هجرة واغتراب في كثير من مناحيه, فقال الله "لإبرام: اعْلَمْ يَقِينًا أَنَّ نَسْلَكَ سَيَكُونُ غَرِيبًا فِي أَرْضٍ لَيْسَتْ لَهُمْ"226 , " وَلاَ تَضْطَهِدِ الْغَرِيبَ وَلاَ تُضَايِقْهُ، لأَنَّكُمْ كُنْتُمْ غُرَبَاءَ فِي أَرْضِ مِصْرَ" 227

ولابد أن المشاعر الإنسانية ذاتها قد رافقت تلك التغيرات في كل تجسداتها, ولابد أنها أنتجت الكثير من القصائد التي تمجد الشجاعة, وتلك التي تمجد الشهداء, وتلك المليئة بالأنين لفقد

---

[226] التكوين 15

[227] الخروج 22

الأحبة والحسرة على زمان ولى ولن يعود. تقول عجوز من إحدى شعوب السكان الأصليين "الهنود الحمر"

" في بعض الأماسي, أجلس أمام نهرنا

نهر الميزوري العظيم

الشمس تغيب, والغسق يذوب في المياه

وتلوح لي في تلك الظلال قريتنا الهندية

وفي هدير النهر أسمع جلبة المقاتلين تموج مع قهقهات الصغار والكبار.

لكنني أحلم ! نعم إنها ليست إلا أحلام أمراة عجوز

فأنا لا أرى إلا أشباحاً, ولا أسمع إلا هدير المياه

ثم تنفجر الدموع في عيني

لأنني أعرف أن رجالنا ذبحوا وأن حياتنا الهندية انتهت... إلى الأبد"[228]

واللغات الأوروبية اليوم ما كان لها أن تتشكل على هذا النحو لولا هجرات القبائل الجرمانية في العصور الوسطى, حيث تفاعلت لغات هذه القبائل مع اللغة اللاتينية فنتج عنه هذه اللغات المتقاربة, وبالنسبة للغة الإنجليزية فقد كان انتقال النورمان عام 1066م أثر بالغ الأهمية في تشكيلها على هذا النحو. كذلك فإن

---

[228] تلمود العم سام. وقد كان هذا المقتطف أحد أكبر الدوافع للبحث في موضوع الهجرة

تأثير اللغة العربية و تأثرها واضح باللغة الفارسية والأوردية والتركية .

وفي تراثنا العربي الإسلامي تلعب الهجرة أثراً لا يقل عن غيرنا من الأمم, بل قد يزيد, فتاريخنا يبدأ بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم, وما تبع ذلك من فتوحات وما صاحبها من هجرات إلى أنحاء العالم الإسلامي الجديد, بقي لنا من بعض أثارها قصيدة مالك بن الريب التي يرثي بها نفسه, و منها :

أقول وقد حالتْ قُرى الكُردِ بيننا

جزى اللهُ عَمرًا خيرَ ما كان جازيا

إنِ اللهُ يُرجعني من الغزو لا أُرى

وإن قلَّ مالي طالِبًا ما ورائيا

تقول ابنتيْ لمّا رأت طولَ رحلتي

سِفارُكَ هذا تاركي لا أبا ليا

لعمريْ لئن غالتْ خراسانُ هامتي

لقد كنتُ عن بابَي خراسان نائيا

فإن أنجُ من بابَي خراسان لا أعدْ

إليها وإن منَّيتُموني الأمانيا

وكـذلك قـول عبـد الـرحمن الـداخل لمـا رأى نخلـة وحيـدة فـي الأندلس, فرأى أنها تشبهه و فتذكر دياره في الشرق:

تبدَّتْ لنا وسْطَ الرُّصافة نخلةٌ
تناءتْ بأرضِ الغرب عن بلد النخلِ
فقلتُ شبيهي في التغرُّب والنوى
وطولِ التَّنائي عن بَنِيَّ وعن أهلي
نشأتِ بأرض أنتِ فيها غريبةٌ
فمثْلُكِ في الإقصاءِ والمُنْتأى مثلي
سقتكِ غوادي المُزْن من صَوبها الذي
يسِحُّ وتستمري السِّماكَين بالوَبل

ومما يـؤثر عـن بعـض التنقلات طلبـاً للـرزق, عينيـة ابـن زريـق الشهيرة التي يقول في بعضها واصفاً وداعه لزوجته :

أستَودِعُ اللهَ فِي بَغدادَ لِي قَمَراً
بِالكَرخِ مِن فَلَكِ الأَزرارَ مَطلَعُهُ
وَدَّعتُهُ وَبوُدّي لَو يُوَدِّعُنِي

صَفوَ الحَياةِ وَأَنّي لا أَودعُهُ

وكم تشفّعَ بي أن لا أُفَـارِقَهُ

وللضروراتِ حالٌ لا تُشفّعُهُ

وَكَم تَشبَّثَ بي يَومَ الرَحيلِ ضُحَىً

وَأَدمُعِي مُستَهِلّاتٍ وَأَدمُعُهُ

وفي بدايات القرن العشرين, هاجر كثير من أدباء بلاد الشام إلى الأميركيتين, حيث أسسوا هناك بعض الأندية الأدبية, وكان لهذا التيار أثر فاعل في الأدب العربي الحديث, عرفوا باسم شعراء المهجر, منهم إيليا أبو ماضي, وجبران خليل جبران, وميخائيل نعيمة وغيرهم, ومما جاء في بعض أشعارهم عن الحنين إلى الوطن :

ويح الغريب على الأشواك مضجعه

وخبزه من عجين الهم والتعب

يعيش عن ربعه بالجسم مغتربا

وقلبه وهواه غير مغترب

يستقبل الليل لا تغفو هواجسه

ويوقظ الفجر في ليل من الكرب

خاتمة

حاولنا في الفصول السابقة أن نـأتي علـى كافـة حركـات التنقلات البشرية الكبرى في التاريخ, رغم أننا بلا شك لم نـتمكن مـن ذلـك, ولابد أننا أغفلنا الكثير والكثير منها, ولعل ذلك يكون واضـحاً فـي غياب الحديث عن الهجرات في الشرق الأقصـى, وهـي أمـر لابـد وأنه حدث مـراراً وتكـراراً, وأخرهـا هجـرات وانتشـار الصـينيين في أرجاء آسيا, ومن ذلك البحث في اختلاف شعب "الأينـو" فـي اليابـان, أو هجـرة الفرس إلـى الهنـد... وغيرهـا كهجـرات العـرب جنوب الصـحراء الأفريقية, والبوير في جنوب أفريقيا.

أو تلك التي ذكرناها بشكل مقتضـب بجملـة عـابرة بمـا لا ينـاسـب حجم الأثر والمعاناة الناتجة عنها كالحديث عن تـهجيـر الأرمـن أو تـهجيـر شـعوب القفقــاس إلــى تركيـا, والتــي سـردها "بــاغرات شــينكوبا" بشــكل بــالغ الجمــال حـد الألــم فــي روايــة " آخــر الراحلين"[229]

[229] ترجمها ونشرها الدكتور محي الدين سليق , دمشق 1988م

ونحن ابتداء من الفصل اعتمدنا على ما يتوافر حالياً من معلومات, وهذه المعلومات قد تتغير مع اكتشافات جديدة, فقبل يومين فقط تم اكتشاف إصبع بشري شمال المملكة العربية السعودية, تم إرجاع تاريخه إلى ما قبل 85 ألف سنة, وهذا يعني إعادة رسم لخريطة انتشار البشر انطلاقا من أفريقيا, والتي رسمناها في الفصل الأول, ولكن ذلك لن يناقض الحقيقة نفسها حتى وإن تغيرت الأرقام أو تعدلت بعض المسارات.

كما أننا لم نتناول الأسباب التي تقف خلف هذه الظاهرة العالمية, وذلك لانتشارها على سطح الجغرافيا وعمقها على مدى التاريخ, وهي قد تختلف من زمن إلى آخر ومن حركة إلى أخرى, والمحاولات التي تمت في هذا الصدد, والتقسيم إلى أسباب دافعة وجاذبة هي غالباً محاولات أكاديمية لتسهيل الدراسة, كتلك التي قام بها فيرتشايلد[230].

أما عن السؤال حول كون الإنسان محباً للاستقرار أم للترحال, فبعد كل هذه الحركات فإنه لن يهمنا ما يحب الإنسان بقدر إدراكنا أن التنقل حقيقة ثابتة, وأن تغير طبيعة الانتقال إنما يعود إلى أسباب موضوعية, تتعلق بالمنشأ وأرض الاستقبال, فقد كان من الممكن أن اكتشاف القارات الأمريكية سيكون أقل حدة لولا وجود

---

[230] مقدمة في علم السكان : الهجرة

الذهب, وما كان وصول العرب إلى الصين ليتم لولا ظهور الدين الإسلامي, ولما كانت أوروبا تقبل اليوم بسيل اللاجئين لولا حاجتها لليد العاملة, وما كانت هذه صورة أوروبا لولا تحركات القبائل الجرمانية, وما كانت تركيا إسلامية لولا ظهور الترك.

ومن الملاحظ أيضا أن وعينا بالذات وبالآخر هو أمر متغير خلال الحقب التاريخية, فمن يقرأ هيرودوت بتمعن يجد أنه يتحدث عن عالم يختلف عن الذي نتصوره, فهو يسرد أسماء العديد من القبائل سواء في آسيا أو في أوروبا, ومن الواضح أن اهتمامه ومعرفته بمصر وبلاد فارس أكثر من اهتمامه ومعرفته بالبلاد الأوروبية, وهو لا يكاد يذكر شيئاً عن البلاد شمال الدانوب إلا بما يتعلق بغزو الفرس, فالإغريق في ذاك الحين شعب ينتمي للبحر المتوسط أكثر مما ينتمي للقارة الأوروبية.

والعرب كانوا ينظرون قبل الإسلام إلى الروم والفرس نظرة إكبار, فهم أهل الملك, ولما جاء الإسلام وفتحت تلك الديار تبدلت النظرة فأصبحوا "عجماً".

والهويات بذلك تتبدل وتتغير وتمتد وتنكمش, والتنقلات والهجرات البشرية تعمل فيها عمل الخلاط الذي قد يصهر مكونات متعددة ليظهر منها شكل جديد.

والعديد من البلدان اليوم تواجه مشكلة الهوية, فالمكسيك التي تضع تمثالاً للملك الذي قاوم الإسبان, تتحدث الإسبانية وتدين بالكاثوليكية, وهذا ينطبق على كل بلدان القارتين.

وفي القارة الأوروبية التي سعت منذ تأسيس الاتحاد الأوروبي إلى إيجاد هوية مشتركة يبرز اليوم شرخ قد يؤدي إلى انهيار الإتحاد وإلى عودة الدول إلى سابق عهدها في إبراز هوياتها المحلية.

وفي البلدان العربية تبرز دعوات ضعيفة ذات صبغة سياسية, إلى إيجاد هويات محلية حسب الحدود السياسية التي رسمت خلال القرن الماضي, إلى حد أن بعضهم يطالب باعتماد اللهجات المحلية كلغة أم رسمية بدلاً عن اللغة العربية.

ما هو مستقبل الهجرة؟

تتعلق الهجرة بدون أدنى شك بازدياد السكان بالإضافة إلى عوامل أخرى, و ازدياد السكان العالمي اليوم يشكل حقيقية أمر مثير للقلق إلى حد أن مالثوس قد يتململ في قبره من جراء ذلك. والهجرة اليوم تتخذ في غالبيتها اتجاه واحد من دول العالم الثالث إلى دول العالم الصناعي حيث تتوفر فرص أفضل للحياة والعمل, وهي هجرة سلمية, يمكن القول عنها أنها فردية التخطيط, لكنها جماعية بالإجمال. وهي ترتبط بالاقتصاد برباط

وثيق جداً, لذا فإن تراجع الاقتصاد في الدول الصناعية وازدياد معدلات البطالة هناك قد يغير من طبيعة هذه الهجرات. وقد نشاهد عودة إلى النماذج السابقة من الاجتياح, ويمكن فقط تخيل لو أن قائد ما تمكن من توحيد القارة الأفريقية خلف قيادته والمطالبة بنصيب هذه البلدان من ثرواتها التي تنهب, وهو سيناريو وإن كان مستبعداً إلا أن التاريخ يخبرنا أن لا شيء مستحيل, وأن حالة الاستقرار الهش التي سادت بعد الحرب العالمية الثانية لن تدوم إلى الأبد, وأن الانفجار السكان إن استمر في الازدياد سيتبعه انفجارات أخرى.

المصادر والمراجع

1- الإنسان في الشتات, لويجي لوكا كافالي سفورزا, الوراق, 2005م
2- مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة, طه باقر, الوراق, الجزئين الأول والثاني
3- قصة الحضارة, ويل ديورانت, دار الجيل, 1988
4- تاريخ العرب القديم, توفيق برو,دار الفكر 1996
5- سوريا القديمة, عبد الله الحلو, ألف باء الأديب, 2004
6- الحوريون تاريخهم وحضارتهم, جرنوت فيلهلم, دار جدل, 2000م
7- تاريخ الحيثيون, صلاح أبو السعود, مكتبة النافذة, 2011م
8- مقدمة في تاريخ فلسطين القديم, زياد منى, بيسان للنشر, 2000م
9- شجرة الحضارة, رالف لنتون, ت أحمد فخري, المركز القومي للترجمة
10- ما وراء التاريخ, وليام هاولز, ت أحمد أبو زيد, المركز القومي للترجمة, 2011

11- موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم, نعيم فرح, دار الفكر, 1972م
12- تاريخ ابن خلدون, ابن خلدون, دار الكتب العلمية, 2006
13- الفتوحات العربية في روايات المغلوبين, حسام عيتاني, دار الساقي 2011
14- الأندلسيون المواركة, عادل بشتاوي, دار أسامة, 1985
15- تاريخ الطبري, ابن جرير الطبري, دار المعارف بمصر
16- الجزيرة الفراتية وديارها العربية, عبد الحكيم الكعبي, دار صفحات للدراسات والنشر, 2009
17- اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها, إدوارد جيبون, الهيئة المصرية العامة للكتاب, 1997
18- النبي ابراهيم والتاريخ المجهول, سيد القمني, مدبولي الصغير
19- اليهود أنثروبولوجيا, جمال حمدان, كتاب الهلال, 1996
20- التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي, توماس م طومسون, ت صالح سوادح, بيسان للنشر والتوزيع 1995
21- الوطن العربي في العصور الحجرية, تقي الدباغ, دار الشئون الثقافية العامة, 1988
22- دولة السلاجقة, علي الصلابي, دار ابن الجوزي

23- جولة سريعة في تاريخ الأتراك والتركمان, أسامة تركماني, دار الارشاد للنشر, 2007م
24- التاريخ الإسلامي, محمود شاكر, المكتب الإسلامي, 1987
25- الحروب الصليبية كما رآها العرب, أمين معلوف, الفارابي, 2012
26- كيف أسلم المغول, محمد علي البار, دار الفتح, 2008
27- بلاد الترك في العصور الوسطى, زبيدة عطا, دار الفكر
28- الكتاب المقدس, طبعة الفانددايك, دار الكتاب المقدس بمصر, 2015
29- العبرانيون وبني إسرائيل في العصور القديمة, أبراهام مالمات و حييم تدمور, ت رشاد الشامي, المكتب المصري لتوزيع المطبوعات, 2001
30- تاريخ الحضارة الهلينية, ارنولد توينبي, ت رمزي جرجس, مكتبة الأسرة, 2003
31- تاريخ البشرية, ارنولد توينبي, نقولا زيادة, الأهلية للنشر والتوزيع, 2004
32- الرومان, حسين الشيخ, دار المعرفة الجامعية, 2005

33- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى, سعيد عبد الفتاح عاشور, دار النهضة العربية, 1972
34- اللومبارديون في التاريخ والحضارة, محمود محمد الحويري, دار المعارف, 1986
35- حضارات العصر الحجري القديم, فرانسيس أور, مطابع ألف باء الأديب, 1995
36- مدينة ماقبل الصناعة, ج. جوبيرغ, ت أبو بكر أحمد باقادر, مكتبة الجسد, 1990
37- دراسات في تاريخ الشرق القديم, أحمد فخري, مكتبة الأنجلو المصرية, 1963
38- مقدمة في علم السكان ج2 الهجرة, عبد الله الخريجي و محمد الجوهري, دار الشروق, 1980
39- أمريكا اللاتينية : الثقافات القديمة ما قبل الكولومبية, لاوريت سيجولاند, ت صالح علماني, المشروع القومي للترجمة, 2003
40- المسيحية والسيف, المطران برتولومي دي لاس كازاس, ت سميرة عزمي الزين, المعهد الدولي للدراسات الإنسانية, 1991

41- تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية الحديث, عبد العزيز نوار وعبد المجيد نعنعي, دار النهضة العربية
42- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام, جواد علي, دار العلم للملايين, 1980
43- تاريخ هيرودوت, هيرودوت, ت عبد الإله الملاح, إصدارات المجمع الثقافي, 2007
44- دراسات في تاريخ العرب القديم, محمد بيومي مهران, دار المعرفة الجامعية, 1993
45- مقالات في التاريخ القديم, عبد العزيز الثعالبي, دار الغرب الإسلامي, 1986
46- التجربة الإغريقية حركة الاستعمار والصراع الاجتماعي, روبرت ج ليتمان, ت منيرة كروان, المشروع القومي للترجمة , 2000
47- معالم حضارات الشرق الأدنى القديم, محمد أبو المحاسن عصفور, دار النهضة العربية, 1987
48- تاريخ الهجرات الدولية, باولا كورتي, ت عدنان علي, هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث, 2011
49- تلمود العم سام, منير العكش, رياض الريس للنشر, 2004

50- الشرق الأدنى القديم, عبد العزيز صالح, مكتبة الأنجلو المصرية, 2012
51- تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة, عبد العزيز صالح, الأنجلو المصرية, 2010
52- تاريخ العرب القديم, أحمد مغنية, دار الصفوة, 1994
53- عصر الهجرة, ستيفن كاستلز و مارك ميللر, ت منى الدروبي, المركز القومي 1993
54- تاريخ الإنسان حتى ظهور المدنيات, أسامة عبد الرحمن النور و أبو بكر شلابي, دار فاليتا, 1995

مصادر أخرى:

الموسوعة العربية على الانترنت
موقع الأمم المتحدة للهجرة

مقال: الهجرات الكبرى في التاريخ – مجلة القافلة, عدد 3 مجلد 65, مايو – يونيو 2016

The Human Family – Documentary

Journey of Man a Genetic Odessy Documentary

Uncovering The Etruscan Glory Documentary

فهرس



هذه حكاية تستحق أن تروى !

هي حكاية الإنسان منذ أن وطأت قدماه الأرض,بل هي حكاية الإنسان منذ خرج من جنته وحمل عصا الترحال في أرض كتب الله عليه أن لا يستقر له على ظهرها حال.

هي حكاية البشر منذ خرجوا من القارة الأفريقية وجابوا العالم لأول مرة في التاريخ بشكل مجموعات صغيرة تستكشف هذا العالم الغريب الساحر والعنيف الغادر,تسربوا من بين الجبال والبحار وكأنما يهيمون على غير هدى,تطوح بهم الحظوظ وترسم لهم الأقدار خريطة المستقبل.

ثم إذا استقروا وتوزعوا بين قارات العالم في رحلات طويلة استغرقت آلاف السنين,آخذت موجات من الغرباء تضرب استقرار هؤلاء الذين استوطنوا الأرض,وكأنما هؤلاء الغرباء يأتون من المجهول, وكأنما هناك نبع مسحور يخرجون منه

